الدولة البيزنطية





دار البداية ناشرون وموزعون

الدكتور أسامة أبو طالب

الدولة البيزنطية

الدكتور
أسامة أبو طـــالب

الطبعة الأولى
2014م - 1435هـ



دار البداية ناشرون وموزعون

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2013/8/2889)



الطبعة الأولى
2014م / 1435 هـ



دار البداية ناشرون وموزعون
عمان - وسط البلد - تلفاكس : 4640679 6 962+
ص.ب 184248 عمان 11118 الأردن
Info.daralbedayah@yahoo.com
خبراء الكتاب الأكاديمي

ISBN: 978-9957-82-305-4

المقدمة

سوف نتحدث في كتابنا هذا عن الامبراطورية والتي تشير في أغلب الأحيان إلى الامبراطورية الرومانية حيث كان ينظر إليها بأنها مهمة الحاكم الإشراف على شؤون الدفاع عن هذه الامبراطورية ولا يتم ذلك إلا من خلال نظام خالف كافة الأنظمة التي كانت متبعة في الماضي حيث تم تقسيم الامبراطورية إلى جزأين رئيسين بوساطة خط عمودي يمتد من الشمال إلى أن يصل إلى الجنوب وتم اختيار شخصاً للحاكم ورفيق للسلاح ليكون له مساعداً له في الأمور العسكرية إلا أن ذلك لم يساعد هذا التقسيم من تلافي حدوث الفتن التي كثر حدوثها في ذلك الزمن وكبح الطامعين في الحكم وسنتوسع في شرح ماهية الامبراطورية البيزنطية ونشأتها وتاريخها من خلال هذا الكتاب.

نأمل أن نكون قد وفقنا في بث المعلومات التي تساعد الباحث والدارس في فهم التاريخ.

والله ولي التوفيق

المؤلف

الطبعة الأولى

الفصل الأول

الإمبراطورية البيزنطية

[1]

دار البداية ناشرون وموزعون

الإمبراطورية البيزنطية

الإمبراطورية البيزنطية (أو بيزنطة) كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية امتدادًا من العصور القديمة المتأخرة وحتى العصور الوسطى وتمركزت في العاصمة القسطنطينية، عرفها سكانها وجيرانها باسماالإمبراطورية الرومانية (باليونانية: ασιλεία Ῥωμαίων) أو رومانيا (باليونانية: Ῥωμανία) وكانت استمراراً مباشراً للدولة الرومانية القديمة وحافظت على تقاليد الدولة الرومانية، يجري التمييز اليوم بين بيزنطة وروما القديمة من حيث توجه الأولى نحو الثقافة اليونانية وتميزها بالمسيحية بدلًا من الوثنية الرومانية وكان سكانها في الغالب يتحدثون اللغة اليونانية بدلًا من اللاتينية.

بما أن التمييز بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البيزنطية حديث إلى حد كبير، فليس من الممكن تحديد تاريخ الفصل بينهما، ولكن النقطة المهمة كانت نقل الإمبراطور قسطنطين الأول العاصمة في 324 من نيقوميديا(في الأناضول) إلى بيزنطة على البوسفور والتي أصبحت القسطنطينية أي "مدينة قسنطين" (أو "روما الجديدة" أحياناً)، [ملاحظة 1] قسمت الإمبراطورية الرومانية أخيراً في 395م بعد وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (حكم 379-395)، وبالتالي هذا التاريخ مهم جدًا حيث يعتبر بداية الإمبراطورية البيزنطية (أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية) وفصلها تمامًا عن الغربية، يبدأ الانتقال إلى التاريخ البيزنطي الخاص أخيراً في عهد الإمبراطور هرقل (حكم 610-641)، حيث أسس هرقل على نحو فعال دولة جديدة بعد إصلاح الجيش والإدارة من خلال إنشاء الثيمات وبتغيير اللغة الرسمية للإمبراطورية من اللاتينية إلى اليونانية.

عاشت الإمبراطورية البيزنطية لأكثر من ألف سنة، منذ القرن الرابع وحتى 1453، خلال الجزء الأكبر من وجودها، كانت واحدة من أقوى القوى الاقتصادية والثقافية والعسكرية في أوروبا على الرغم من النكسات وفقدان الأراضي وخصوصاً خلال الحروب الرومانية الفارسية والبيزنطية العربية، تعافت الإمبراطورية تحت حكم السلالة المقدونية وصعدت مرة أخرى لتصبح قوة بارزة في شرق البحر الأبيض المتوسط بحلول أواخر القرن العاشر لتنافس الخلافة الفاطمية.

بعـد 1071، بـدأت الإمبراطوريـة تفقـد كثـيراً مـن آسـيا الصـغرى معقـل الإمبراطورية لصالح السـلاجقة الأتـراك، اسـتعاد الكومنينيـون بعـض الأرض وفرضـوا هيمنتهم لفترة وجيزة في القرن الثاني عشر ولكن بعد وفاة الإمبراطـور أنـدرونيكوس الأول كومنينوس (حكم 1183-1185) ونهاية سلالة الكومنينيين في أواخر القرن الثاني عشر تراجعت الإمبراطورية مرة أخرى، تلقت الإمبراطورية ضربة قاصـمة عـام 1204 خلال الحملة الصليبية الرابعة عندما حلت وانقسمت إلى كيانين متنافسـين بيزنطي يوناني ولاتيني.

على الرغم مـن اسـتعادة القسـطنطينية في نهايـة المطـاف، وإعـادة إرسـاء الإمبراطورية في 1261 تحت حكم الأباطرة الباليولوج، ظلت بيزنطة واحدة فقـط من بين عدة دول متنافسـة في المنطقـة عـلى مـدى السـنوات المـائتين الأخـيرة مـن وجودهـا، ومـع ذلـك، كانـت هـذه الفـترة الزمنيـة الأكـثر إنتاجـاً ثقافيـاً في تـاريخ الإمبراطورية، أدت الحروب الأهليـة المتعاقبـة في القـرن الرابـع عشرـ إلى اسـتنزاف المزيد من قوة الإمبراطورية، وفقدت معظم أراضيها المتبقية في الحروب البيزنطيـة العثمانية، والتي بلغـت ذروتهـا في سـقوط القسـطنطينية والاسـتيلاء عـلى الأراضي المتبقية من قبل.

أصل التسمية

ظهرت تسمية الإمبراطورية بالبيزنطية في أوروبا الغربيـة في 1557 عنـدما نشر المؤرخ الألماني هيرونيموس فولف كتابهكوربوس هستوريا بيزنتيا وهو مجموعـة من المصادر التاريخية، يأتي المصطلح من بيزنتيوم وهو اسم القسطنطينيةقبل أن تصبح عاصمة قسطنطين الأول، نادراً ما استخدم هذا الاسم من تلك النقطة فصاعداً إلا في السـياقات التاريخيـة أو الشـعرية، أشـاع نشرـ بيـزنتين دو لـوفر (كوربـوس سكريبتوروم هستوريا بيزنتيا) عام 1648ونشرـ شـارل دو كـانج لكتابـه هسـتوريا بيزنتينا استخدام مفـردة بيزنطـي بـين المـؤلفين الفرنسـيين مثـل مونتسـكيو اختفـى المصطلح حتى القرن التاسع عشر عندما استخدم على نطاق واسع في العـالم الغـربي، قبل هذا الوقت، كانت تستخدم تسمية اليونانية للدلالة على الإمبراطورية وأحفادها في إطار الدولة العثمانية.

عرفت الإمبراطورية البيزنطية لسكانها الإمبراطورية الرومانية أو إمبراطورية الرومان (باللاتينية: Imperium Romanum أو Imperium Romanorum) (باليونانية: Βασιλεία τῶν Ῥωμαίων أو Ἀρχὴ τῶν Ῥωμαίων) أو رومانيا [ملاحظة 2] (باللاتينية: Romania) (باليونانية: Ῥωμανία) أو الجمهورية الرومانية (باللاتينية: Res Publica Romana) (باليونانية: Πολιτεία τῶν Ῥωμαίων) أو غريكيا (باليونانية: Γραικία) أيضاً رومايس (باليونانية: Ῥωμαΐς)، على الرغم من الطابع متعدد الأعراق للإمبراطورية البيزنطية خلال معظم تاريخها، فإنها حافظت على التقاليد الرومانية الهيلينستية، وعرفها معاصروها الغربيون والشماليون بعنصرها اليوناني السائد، استخدم أحيانًا لقب إمبراطورية اليونان (باللاتينية: Imperium Graecorum) في الغرب للإشارة إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية وسمي الإمبراطور البيزنطي إمبراطور اليونان (باللاتينية: Imperator Graecorum) وذلك لتمييزها عن هيبة الإمبراطورية الرومانية في الممالك الغربية الجديدة، خضعت سلطة الإمبراطور البيزنطي كوريث شرعي للإمبراطور الروماني للتحدي عندما توج شارلمانImperator Augustus من قبل البابا ليون الثالث في العام 800م، حيث أن البابا ليون الثالث احتاج دعم شارلمان في نزاعه ضد أعدائه في روما فاستغل ليون غياب وريث ذكر لعرش روما حينها ليعلن شغوره وبالتالي أنه يمكنه تتويج إمبراطور جديد بنفسه، عندما أشار الباباوات أو حكام الغرب للأباطرة الرومان الشرقيين فإنهم استخدموا Imperator Romaniæ بدلًا من Imperator Romanorum وهو اللقب الذي احتفظ به شارلمان وخلفائه.

لم يوجد مثل هذا التمييز في العوالم الإسلامية والفارسية والسلافية، حيث اعتبرت الإمبراطورية استمراراً للإمبراطورية الرومانية، في العالم الإسلامي أطلق عليهم اسم الروم.

في الأعمال التاريخية الحديثة، عادة ما تسمى الإمبراطورية بالإمبراطورية الرومانية الشرقية في سياق الفترة 395-610، أي قبل عهد الإمبراطور هرقل الذي غير اللغة الرسمية من اللاتينية إلى اللغة اليونانية (وهي لغة أغلبية السكان)، في السياقات بعد 610، يستخدم مصطلح الإمبراطورية البيزنطية بصورة أكبر.

1. التاريخ المبكر للإمبراطورية الرومانية

نجح الجيش الروماني في السيطرة على أراضي واسعة تمتد على اتساع المتوسط وجزء كبير من أوروبا الغربية، ضمت هذه الأراضي العديد من المجموعات الثقافية المختلفة، متراوحة بين البدائية إلى المتطورة، بصفة عامة، كانت مقاطعات شرق البحر الأبيض المتوسط أكثر تحضراً وتطوراً اجتماعياً، حيث سبق لها أن خضعت للإمبراطورية المقدونية خضعا للثقافة الهلنستية، في المقابل، كانت المناطق الغربية لا تزال في معظمها غير موحدة تحت سلطة واحدة ثقافية أو سياسية، وكانت لا تزال إلى حد كبير ريفية وأقل نمواً، استمر هذا التمييز بين الشرق الهيلنستي والغرب اللاتيني اليافع وأصبح ذا أهمية متزايدة في القرون اللاحقة.

2. تقسيم الإمبراطورية الرومانية

خلق دقلديانوس نظاماً إدارياً جديداً في عام 293 عرف باسم الحكم الرباعي، حيث يوجد إلى جانب الإمبراطور مساعد أو أغسطس، كما استعان كل أغسطس بزميل يافع منح لقب قيصر ليشاركه في الحكم ويخلفه في نهاية الأمر، بعد تنازل دقلديانوس وماكسيميان انهار الحكم الرباعي واستبدله قسطنطين الأول بمبدأ الخلافة الوراثية.

اتساع أراضي الإمبراطورية:

نقل قسطنطين مقر الإمبراطورية وأدخل تغييرات هامة في دستورها المدني والديني، في 330، أسس القسطنطينية باعتبارها روما الثانية على موقع بيزنطة والتي كانت في مركز جيد على مفترق طرق التجارة بين الشرق والغرب.

بنى قسطنطين على الإصلاحات الإدارية التي أدخلها دقلديانوس، استقرت العملة (أصيحالصوليدوس الذهبي الذي قدمه عملة ثمينة جداً ومستقرة) وأجرى تغييرات على بنية الجيش،[26] تعافت الإمبراطورية تحت حكم قسطنطين واستعادت الكثير من قوتها العسكرية وتمتعت بفترة من الاستقرار والازدهار.

تعميد قسطنطين بريشة تلاميذ رفائيل(1520-1524 الفاتيكان في القصر الرسولي)، ذكر يوسابيوس القيصري أن عادة الملوك معتنقي المسيحية حينها كانت أن يؤخروا تعميدهم حتى وقت قصير من وفاتهم.

لم تكن المسيحية الديانة الحصرية للدولة تحت حكم قسطنطين، ولكنها تمتعت بالأفضلية الإمبراطورية، وذلك لأن الإمبراطور دعمها بامتيازات سخية، أسس قسطنطين مبدأ أن الأباطرة لا ينبغي لهم تسوية مسائل العقيدة، ولكن يجب استدعاء المجالس الكنسية العامة لهذا الغرض، عقد قسطنطين مجمع آرل المسكوني والمجلس الأول في نيقيا حيث عرض دعواه أن يكون رأس الكنيسة.

يمكن وصف حالة الإمبراطورية في 395 أنها نتيجة أعمال قسطنطين، اعتمد مبدأ التوريث بقوة حتى أنه عند وفاة الإمبراطورثيودوسيوس الأول في ذلك العام، انتقلت المملكة إلى أبناءه: أركاديوس في الشرق وهونوريوس في الغرب، كان الإمبراطور ثيودوسيوس آخر من حكم الإمبراطورية غير مقسمة.

نجت الإمبراطورية الشرقية إلى حد كبير من الصعوبات التي واجهتها الغربية في القرنين الثالث والرابع، ويرجع ذلك في جزء منه إلى ثقافة حضرية أكثر رسوخاً، والمزيد من الموارد المالية التي جذبت الغزاة مع مرتزقتهم، بينما حصن ثيودوسيوس الثاني القسطنطينية بالأسوار المنيعة ضد معظم الهجمات، لم تخرق تلك الجدران حتى 1204، دفع ثيودوسيوس لرد الهون جزية (نحو 300 كغم من الذهب).

الإمبراطورية الرومانية الشرقية عام 500

رفض خليفته مارقيان استمرار في دفع هذا المبلغ الباهظ، ولحسن الحظ كان أتيلا قد حول انتباهه بالفعل نحو الإمبراطورية الرومانية الغربية، بعد وفاته في 453 انهارت إمبراطورية الهون؛ استأجرت القسطنطينية من تبقى من الهون في كثير من الأحيان كمرتزقة في خدمتها.

بعد سقوط أتيلا، تمتعت الإمبراطورية الشرقية بفترة من السلام، بينما انهارت الإمبراطورية الرومانية الغربية (التأريخ عادة 476م عندما خلع القائد العسكري الجرماني الروماني أودواكر الإمبراطور الغربي الاسمي رومولوس أوغستولوس).

تفاوض الإمبراطور زينون مع القوط الشرقيينلاسترداد إيطاليا والذين كانوا قد استقروا في مويسيا، أرسل الإمبراطور الملك القوطي ثيودوريك إلى إيطاليا بصفته ("القائد العام لإيطاليا") لإسقاط أودواكر، من خلال حثه ثيودوريك لغزو إيطاليا، خلص زينون الإمبراطورية الشرقية من خطرهم وحصل على الأقل على سيطرة اسمية على إيطاليا، [29] بعد هزيمة أودواكر في 493، حكم ثيودوريك إيطاليا بنفسه.

اعتلى أناستاسيوس الأول عرش الإمبراطورية في 491م وهو ضابط مدني مسن من أصل روماني، لكنه انتظر حتى عام 498 لتنظم قواته مقاومة في إيسوريا، تميز أنسطاسيوس بكونه إصلاحياً نشطاً ومديراً قادراً حيث حسن نظام صك العملة الذي أتى به قسطنطين الأول عندما ثبت الوزن النهائي للفوليس النحاسي وهي العملة المستخدمة في معظم المعاملات اليومية، كما أصلح النظام الضريبي حيث احتوت خزينة الدولة عند وفاته 145,150 كيلوغرامًا من الذهب عند وفاته في 518.

3. إعادة غزو المقاطعات الغربية

أشرف جستنيان الأول الذي تولى العرش في 527 على فترة من إعادة السيطرة على المقاطعات السابقة، قد يكون جستنيان وهو ابن لفلاح إيليري قد مارس نوعًا من السلطة خلال عهد عمه جستين الأول (518-527)، في 532، وفي محاولة لتأمين حدوده الشرقية، وقع جستنيان معاهدة سلام مع كسرى الأول الفارسي ووافق على دفع جزية سنوية كبيرة للساسانيين، في العام نفسه، نجا جستنيان من تمرد في القسطنطينية (ثورة نيكا) والتي انتهت بمقتل 30-35 ألفًا من مثيري الشغب بناء على أوامره، عزز ذلك النصر من قوة جستنيان، أرسل البابا أغابيتس الأول إلى القسطنطينية من قبل ملك القوط الشرقيين ثيوداهاد ولكنه فشل

في مهمته توقيع سلام مع جستنيان، مع ذلك، نجح في إزالة البطريرك المونوفيزي أنتيمون الأول من القسطنطينية على الرغم من دعم الإمبراطورة ثيودورا له.

بدأت الفتوحات الغربية في عام 533، عندما أرسل جستنيان القائد بيليساريوس لاستعادة إقليم إفريقية السابق منالفاندال الذين كانوا قد سيطروا عليه منذ 429 وكانت عاصمته قرطاجة، نجح بيليساريوس في ذلك بسهولة عجيبة، لكنه لم يستطع إخضاع القبائل الكبرى المحلية حتى 548، في إيطاليا القوطية الشرقية، أدت وفاة ثيودوريك العظيم وابن أخيه ووريثه أثالاريك وابنته أمالاسونثا إلى وصول قاتلها ثيوداهاد إلى العرش على الرغم من ضعف سلطته، نجحت حملة بيزنطية في 535 على صقلية بسهولة في استعادة الجزيرة، ولكن سرعان ما شدد القوط من مقاومتهم ولم يأت النصر حتى 540 عندما استولى بيليساريوس على رافينا بعد حصارين ناجحين على نابولي وروما.

اتحد القوط الشرقيون تحت قيادة الملك توتيلا وسيطروا على روما في 17 ديسمبر 546، استدعى جستنيان بيليساريوس إلى القسطنطينية في نهاية المطاف في بدايات 549 من رافينا، بينما كان وصول الخصي- الأرمني نارسيس إلى إيطاليا (أواخر 551) على رأس جيش قوامه 35,000 رجل نقطة تحول أخرى لمملكة القوط، هزم توتيلا في معركة بوستا غالوروم كما هزم خليفتهتيا في معركة مونس لاكتاريوس (أكتوبر 552)، على الرغم من استمرار مقاومة الحاميات القوطية القليلة المتبقية وغزوتين لاحقتين من قبل الفرنجة والألامانيين، إلا أن الحرب في شبه الجزيرة.

الإيطالية قد وصلت النهاية، في 551، حاول أثاناغيلد وهو نبيل قوطي غربي من هسبانيا الحصول على مساعدة جستنيان في تمرد ضد الملك، حيث أرسل الإمبراطور قوة بقيادة ليبيريوس القائد العسكري الناجح، احتفظت الإمبراطورية بشريحة صغيرة من ساحل شبه الجزيرة الإيبيرية حتى عهد هرقل.

أما في الشرق فاستمرت الحروب الفارسية الرومانية حتى 561 عندما وقـع مبعوثو جستنيان وكسرى معاهدة سلام لمدة 50 عاماً، من منتصف عقد 550 كان جستنيان قد حقـق انتصـارات في معظـم الحـروب مـع اسـتثناء ملحـوظ في منطقـة البلقان، التي خضعت لتوغلات متكررة من السلاف، في 559، واجهت الإمبراطورية غزواً كبيراً من الكوتريغوريين والسـكلافينيين، اسـتدعى جسـتنيان بيليسـاريوس مـن التقاعد وهزم التهديـد الهـوني الجديـد، تسـبب تعزيـز أسـطول الـدانوب في تراجـع الكوتريغور الهون وموافقتهم على معاهدة وفرت لهـم ممـرًا آمنًـا ليعـودوا إلى وراء الدانوب.

في 529، قامت لجنة من عشرة أشخاص ترأسها تريبونيان بتنقيح الدسـتور الروماني القديم وقـدمت الدسـتور الجسـتنياني الجديـد وهـو نسـخة مختصرـة مـن النصـوص القانونيـة السـابقة، في 534، تـم تحـديث الدسـتور الجسـتنياني وإعـادة تنظيمه في نظام قانوني استخدم في بقية العصرـ البيزنطـي، كانـت هـذه الإصـلاحات القانونية إلى جانـب التغيـيرات القانونيـة العديـدة الأخـرى تعـرف باسـم كوربـوس جوريس سيفيليس.

خلال القرن السادس، كانت الثقافـة التقليديـة اليونانيـة الرومانيـة لا تـزال مؤثرة في الإمبراطورية الشرقية ومـن أعلامهـا البـارزين الفيلسـوف الطبيعـي يوحنـا فيلوبونوس، مع ذلك، كانت الفلسفة والثقافة المسيحية سائدة وبـدأت تحـل محـل الثقافة القديمة، علمت التراتيل التي كتبها رومانوس المرنم تطور القداس الـديني في حين أن المهندسين المعماريين والبنائين عملوا لاسـتكمال الكنيسـة الجديـدة للحكمـة المقدسة، آيا صوفيا، التي صممت لتحل محل كنيسة أقدم دمرت خـلال ثـورة نيكـا، يعتبر ذلك الصرح اليوم أحد المعالم الرئيسية في تاريخ الهندسة المعماريـة البيزنطيـة، خلال القرنين السادس والسـابع، ضربـت الإمبراطوريـة سلسـلة مـن الأوبئـة، والتـي ذهبت بأرواح الكثيرين وأدت إلى تراجع اقتصادي كبير وإضعاف الإمبراطورية.

توفي جستنيان في 565 ليخلفه جستن الثاني الذي رفض دفع الجزية الكبيرة لفرس، في غضون ذلك، غزا اللومباردالجرمان إيطاليا وبحلول نهاية القـرن كـان ثلـث إيطاليا فقط في أيدي البيزنطيين، خلف جسـتن تيبريـوس الثـاني، والـذي اختـار مـنح إعانات للآفار وشن حملة عسكرية ضد الفرس، على الـرغم مـن أن جـنرال تيبريـوس

موريس قد قاد حملة فعالة على الحدود الشرقية، إلا أن الإعانات فشلت في كبح الآفار، سقطت قلعة سيرميوم البلقانية بيدهم في 582، في حين شق السلاف طريقهم عبر نهر الدانوب، اعتلى موريس العرش بعد وفاة تيبريوس وتدخل في الحرب الأهلية الفارسية ونصب كسرى الثاني الوريث الشرعي مرة أخرى على العرش وزوجه ابنته، جلبت معاهدة موريس مع صهره الجديد سياسة الوضع الراهن في الشرق، حيث تضخمت الإمبراطورية شرقاً إلى حد لم يتحقق من قبل في تاريخها عبر القرون الستة وكانت حمايتها أقل عبئاً أيضاً وفقاً للوضع الراهن، حيث وفرت الإمبراطورية الملايين من الصوليدوس فقط عبر عدم دفع الجزية للفرس، بعد نصره على الحدود الشرقية، ركز موريس على منطقة البلقان، وتمكن في 602 بعد سلسلة من الحملات الناجحة من دفع الآفار والسلاف للعودة إلى ما وراء نهر الدانوب.

انكماش الحدود

تغل كسرى مقتل موريس على يد فوكاس لاحتلال مقاطعة ما بين النهرين الرومانية، لم يحظ فوكاس بشعبية ووصف دائماً بالطاغية في المصادر البيزنطية وكان هدفاً لعدد من المؤامرات في مجلس الشيوخ، أطيح به في نهاية المطاف في عام 610 من قبل هرقل، الذي أبحر إلى القسطنطينية من قرطاج مع رمز علق على مقدمة سفينته، بعد استلام هرقل، تقدم الساسانيون في عمق آسيا الصغرى، واحتلوا دمشق والقدس ونقلوا الصليب الحقيقي إلى المدائن، اتخذ الهجوم المضاد الذي قام به هرقل طابع الحرب المقدسة، حيث حمل معه صورة للمسيح كراية عسكرية، (وبالمثل، عندما نجت القسطنطينية من حصار آفاري عام 626، عزي النصر إلى رمز العذراء الذي قاده موكب البطريرك سرجيوس حول أسوار المدينة) دمرت القوة الساسانية الرئيسية في نينوى في 627 واستعاد هرقل في 629 الصليب الحقيقي إلى القدس في احتفال مهيب استنفدت الحرب قوى الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية، وتركتهم عرضة للقوات العربية المسلمة التي ظهرت في السنوات التالية، عانى الرومان من هزيمة ساحقة من قبل العرب في معركة اليرموك عام 636 وفيما سقطت المدائن عاصمة الإمبراطورية الساسانية بيد العرب في عام 634.

أحكم العرب سيطرتهم على سوريا وبلاد الشام، وأرسلوا غزوات متواصلة في عمق الأناضول، وفرضوا الحصار على القسطنطينية نفسها بين 674-678، صد البيزنطيون أخيراً الأسطول العربي باستخدام النار اليونانية، ووقعت هدنة لثلاثين عامًا بين الإمبراطورية والخلافة الأموية استمرت الغارات في الأناضول بلا هوادة مما أدى إلى تراجع الثقافة الحضرية الكلاسيكية حيث انسحب سكان العديد من المدن إلى أماكن أصغر محصنة ضمن أسوار المدينة القديمة أو انتقلوا إلى الحصون المجاورة، كما تراجعت القسطنطينية بشكل كبير من نحو نصف مليون ساكن إلى 70,000-40,000 فقط، كما فقدت المدينة شحنات الحبوب المجانية في 618 بعد أن فقدت مصر لصالح الإمبراطورية الساسانية (واستعادتها عام 629، لكنها خسرتها لصالح العرب في 642) شغل الفراغ الذي تركه اختفاء المؤسسات المدنية شبه ذاتية الحكم نظام الثيمات والذي انطوى على تقسيم الأناضول إلى "مقاطعات" تحتلها جيوش معينة تتولى السلطة المدنية وتتبع مباشرة للإدارة الإمبراطورية، قد يكون لهذا النظام جذوره في بعض التدابير التي اتخذها هرقل، ولكن على مدار القرن السابع تطور إلى نظام جديد تماماً من الحكم الإمبراطوري.

فتح انسحاب أعداد كبيرة من الجنود من البلقان لقتال الفرس ومن ثم العرب في الشرق الباب أمام توسع الشعوب السلافية جنوباً في شبه الجزيرة، وكما هو الحال في الأناضول، انكمشت العديد من المدن إلى مستوطنات محصنة صغيرة، في عقد 670، تقدم البلغار إلى الجنوب من نهر الدانوب مع وصول أفواج الخزر، وأرسلت القوات البيزنطية عام 680 لتفريق هذه المستوطنات الجديدة لكنها هزمت، في العام التالي، وقع قسطنطين الرابع على معاهدة مع أسباروخ الخان البلغاري وضمت الدولة البلغارية الجديدة السيادة على عدد من القبائل السلافية التي كانت في السابق على الأقل اسمياً تعترف بالحكم البيزنطي في 687-688، قاد الإمبراطور جستنيان الثاني رحلة استكشافية ضد السلاف والبلغار وحقق مكاسب كبيرة، على الرغم من أن اضطراره للقتال وشق طريقه في تراقيا ومقدونيا يدل على مدى تراجع القوة البيزنطية في شمال البلقان.

حاول آخر الأباطرة الهرقليين، جستنيان الثاني، كسر قوة الطبقة الأرستقراطية في المناطق الحضرية من خلال فرض الضرائب الشديدة وتعيين "الغرباء" في وظائف إدارية، خلع من السلطة في عام 695، واحتمى بداية لدى الخزر ومن ثم لدى البلغار، في 705، عاد إلى القسطنطينية بجيوش الخان البلغاري ترفل حيث استعاد العرش، وفرض حقبة من الإرهاب ضد أعدائه، مع الاطاحة النهائية به في 711، بدعم من الطبقة الأرستقراطية انتهت السلالة الهرقلية.

السلالة الإيساورية حتى صعود باسيل الأول

صد ليو الثالث الإيساوري حصار المسلمين لهم في 717-718 وحقق النصر بمساعدة خان البلغار ترفل والذي قتل جيشه 32,000 من العرب، كما جعل مهمته إعادة تنظيم وتعزيز ثيمات آسيا الصغرى، أحرز خلفه قسطنطين الخامس عدة انتصارات في شمال سوريا كما قوض تماماً قوة البلغار.

استغل العرب ضعف الإمبراطورية بعد ثورة توماس الصقلبي في بدايات العقد الثالث من القرن التاسع واستولوا على كريت وغزو صقلية، ولكن في 3 سبتمبر 863، أحرز الجنرال بتروناس نصراً كبيراً ضد عمر بن الأكتع أمير ملطية، برز خطر البلغار مجددًا تحت قيادةكروم خان البلغار ولكن في 814 أبرم أومورتاغ نجل كروم سلامًا مع الإمبراطورية البيزنطية.

هيمن على القرنين الثامن والتاسع أيضاً الجدل والانقسام الديني حول صراح الأيقونات، حظر ليو وقسطنطين استخداما لأيقونات مما أدى إلى ثورات المؤيدين لاستخدامها في جميع أنحاء الإمبراطورية، بناء على جهود الإمبراطورة إيرينعقد مجلس نيقية الثاني في 787، وأكد إمكانية تبجيل الرموز ولكنها لا تعبد، كما سعت إيرين إلى التفاوض على تزويج نفسها لشارلمان ولكن وفقاً لتيوفان المعرّف، أحبط إيتيوس من ذوي الحظوة لديها ذلك المخطط، في813، أعاد الإمبراطور ليو الخامس الأرميني سياسة الأيقونات ولكن في 843 استعادت الإمبراطورة ثيودورا تبجيل الرموز بمساعدة من ميثوديوس البطريرك، لعب الشرخ

حول الرمـوز دوره في تعميـق الانقسـام بـين الشرـق والغـرب، والـذي تفـاقم خـلال الشقاق الفوتياني، عندما تحدى البابا نيقولا الأول صعود فوتيوس إلى البطريركية.

السلالة المقدونية والصعود

بلغت الإمبراطورية البيزنطيـة إحـدى مراحـل أوجهـا تحـت حكـم الأبـاطرة المقدونيين بين أواخر القرن التاسع إلى أوائل القرن الحادي عشر، عنـدما سـيطرت في البحر الأدرياتيكي وجنوب إيطاليا وجميـع أراضي القيصرـ صـموئيل، توسـعت مـدن الإمبراطورية وانتشر الرخاء في جميع أنحاء المقاطعات بسبب تحسن الوضع الأمنـي، ارتفع عدد السكان وزاد الإنتاج وحفز الطلب على زيادة التجارة، ثقافيًا كـان هنـاك نمو كبير في مجال التعليم والتعلم ("عصر النهضة المقدونيـة") وجـرى الحفـاظ عـلى النصوص القديمة وإعادة نسخها، كما ازدهـر الفـن البيزنطـي وانتشرـت الفسيفسـاء الرائعة في تزيين العديد من الكنائس الجديدة، كانت الإمبراطوريـة الجديـدة أصـغر بكثير مما كانت عليه خلال عهد جستنيان، إلا أنها كانت أقوى حيث كانـت الأراضي الخاضعة لها متقاربة جغرافيًا وأكثر اندماجاً سياسياً وثقافياً.

الحروب ضد المسلمين

بحلول عام 867، كانت الإمبراطورية البيزنطية قد أعادت ترسـيخ مكانتهـا في الشرق والغرب، ومكنـت كفاءتهـا العسـكرية الدفاعيـة الأبـاطرة لبـدء التخطـيط لاستعادة الفتوحات في الشرق.

بدأت تلك العملية بحظوظ مختلفة، أعقب استعادة كريت المؤقتة (843) هزيمة بيزنطية ساحقة على مضيق البوسفور، في حين أن الأباطرة كانوا غـير قـادرين على صد الفتح الإسلامي الجاري في صقلية(902-827)، اسـتخدم المسـلمون تـونس الحاليــة قاعــدة للانطــلاق وغــزو بــاليرمو831 وميســينا في 842 وإنــا859 وسرقوسة 878وكاتانيا 900 وسقطت آخر معاقل البيزنطيين في تاورمينا في 902.

عكست هذه الانتكاسات التقدم في نواح أخرى مثل الحملة على دميـاط في مصر (856) وهزيمة أمير ملاطية(863)، وتأكيد السلطة الإمبراطورية على دالماسيا

(867) وهجمات باسيل الأول على الفرات (عقد 870)، خلافاً للوضع المتدهور في صقلية، عالج باسيل الوضع في جنوب إيطاليا جيداً بما فيه الكفاية وحافظ على ما تبقى في أيدي البيزنطيين لقرنين قادمين.

في 904، حلت كارثة بسالونيك المدينة الإمبراطورية الثانية والتي غزاها أسطول عربي بقيادة القائد البيزنطي المنشق ليو من طرابلس، رد الجيش البيزنطي بتدمير الأسطول العربي في 908، وغزو مدينة اللاذقية في سوريا بعد ذلك بعامين، على الرغم من هذا الانتقام، لم يكن البيزنطيون قادرين على توجيه ضربة حاسمة ضد المسلمين، والذين ألحقوا هزيمة ساحقة بالقوة الإمبراطورية عندما حاولوا استعادة كريت في 911.

استمر الوضع على الحدود مع الأراضي العربية متذبذبًا وتحول فيه البيزنطيون بين الهجوم والدفاع، شكل الفارنجيون الذين هاجموا القسطنطينية لأول مرة في 860 تحدياً جديداً، في 941، ظهروا على الشاطئ الآسيوي من مضيق البوسفور ولكن هذه المرة تم سحقهم، مما أظهر التحسن الذي طرأ على وضع الجيش البيزنطي بعد 907، عندما كانت الدبلوماسية فقط السبيل لصد الغزاة، كان القائد المنتصر على الفارنجيين الجنرال الشهير يوحنا كوركواسوالذي واصل حملاته وانتصاراته في بلاد الرافدين وبلغت تلك ذروتها في ضم الرها(944) والتي استعادت فيها القسطنطينية المنديلون المبجل.

وسع الإمبراطوران الجنديان نقفور الثاني فوكاس (حكم 963-969) ويوحنا الأول تزيميسكيس(976-969) الإمبراطورية بشكل جيد في سوريا، وهزما أمراء شمال غربي العراق وأعادا احتلال جزيرتي كريت وقبرص، في إحدى المراحل هدد جيوش الإمبراطور يوحنا القدس في أقصى الجنوب، أصبحت إمارة حلب وجيرانها تابعين للإمبراطورية في شرق البلاد، حيث شكل الفاطميون أكبر خطر على الإمبراطورية، [64] بعد العديد من الحملات، رد آخر تهديد عربي لبيزنطة عندما جمع باسيل الثاني جيشًا قوامه 40,000 لحماية ممتلكاته في سوريا، مع وجود فائض في الموارد بسبب الانتصارات في حملتي البلغار وسوريا، خططت باسيل الثاني

لاحتلال صقلية من العرب، بعـد وفاتـه في عـام 1025، انطلقـت الحملـة في عقـد 1040وحققت نجاحاً أولياً ضعيفاً.

الحروب ضد البلغار

الإمبراطور باسيل الثاني (حكم 976-1025)

استمر النزاع التقليدي مع كرسي روما خلال العهد المقدوني، وأثارتـه مسـألة السيادة الدينية على دولة بلغاريـا المسـيحية الجديـدة، قـام التسـار البلغـار القـوي سيميون الأول عام 894 بغزو بيزنطة منهيًا هدنة دامت ثمانين عامـاً بـين الطـرفين، ولكن البيزنطيين نجحوا في صده، حيث استخدموا أسطولهم ليبحر عبر البحر الأسـود لمهاجمة البلغار من الخلف، كما اسـتعانوا بالهنغـاريين، إلا أن البيـزنطيين هزمـوا في معركة بولغاروفيغون، وأجبروا على دفع مساعدات سنوية للبلغار، توفي ليو الحكـيم في 912 وسرعان ما تجددت العداوات حيـث زحـف سـيميون عـلى القسـطنطينية عـلى رأس جـيش كبـير رغـم أن جـدران المدينـة كانـت منيعـة جـدًا، كانـت الإدارة البيزنطيـة مشـتتة ووجهـت الـدعوة لسـيميون لـدخول المدينـة حيـث مـنح التـاج الإمبراطوري لبلغاريا وزوج إحدى بناتـه مـن الإمبراطـور اليـافع قسـطنطين السـابع، عندما أدى تمرد في القسطنطينية إلى إيقاف مشروع السلالة التـي خطـط لهـا، غـزا تراسيا مجددًا وفتح أدريانوبولي، واجهت الإمبراطوريـة حينهـا مشـكلة وجـود دولـة مسيحية قوية على بعد مسير عدة أيام من القسطنطينية بالإضـافة إلى القتـال عـلى جبهتين.

أرسلت بعثة إمبراطوريـة كبـيرة تحـت إمـره ليـو فوكـاس ورومـانوس الأول ليكابينوس وانتهت مجدداً بهزيمة بيزنطية مدوية في معركة أكيلوس(917)، كما كان للبغار لاحقاً ذلك العام نهب شمال اليونان بحرية، نهبت أدريانوبولي مـرة أخـرى في 923 وفرض الجـيش البلغـاري الحصـار عـلى القسـطنطينية في العـام التـالي، إلا أن سيميون توفي فجأة في 927 وانهارت القوة البلغارية معه، أصبحت بلغاريا محميـة بيزنطية وتحررت يدا الإمبراطورية للتركيـز عـلى الجبهـة الشرقية ضـد المسـلمين، في 968، تعرضت بلغاريا لغزو شعب روس تحت إمرة سفياتوسلاف الأول من كييف،

ولكن بعد ثلاث سنوات نجح يوحنا الأول تزيميسكيس في هزيمة شعب روس وأعاد ضم شرق بلغاريا إلى الإمبراطورية البيزنطية.

انتعشت المقاومة البلغارية تحت حكم سلالة كوميتوبولي، ولكن الإمبراطور باسيل الثاني جعل من إخضاع البلغار مهمته الرئيسية كانت الحملة الأولى ضد بلغاريا رغم ذلك هزيمة مذلة على أبواب تراجان، في السنوات القليلة التالية، انشغل الإمبراطور بالتمردات الداخلية في الأناضول، بينما وسع البلغار حكمهم على البلقان، استمرت الحرب لعشرين عاماً، كانت الانتصارات البيزنطية فيسبيركايوس وسكوبيه حاسمة في إضعاف الجيش البلغاري، وفي حملات سنوية، نجح باسيل في إضعاف الحصون البلغارية، في النهاية، في معركة كليديون في 1014سحق البلغار: أسر الجيش، وقيل أن 99 رجلاً من كل مائة قد أفقدوا أبصارهم، بينما أبقى على الرجل المائة بعين واحدة كي يقود الآخرين إلى بلادهم، عندما رأى التسار ساموئيل ما تبقى من جيشه العظيم، توفي من الصدمة، بحلول 1018، استسلمت آخر معاقل البلغار، وأصبحت البلاد جزءاً من الإمبراطورية أعاد هذا النصر الحدود إلى نهر الدانوب، والتي لم تكن كذلك منذ عهد الإمبراطور هرقل.

الروس تحت جدران القسطنطينية (860)

بين عامي 850 و1100، طورت الإمبراطورية علاقة مختلطة مع دولةكييف روس الجديدة، والتي برزت إلى الشمال عبر البحر الأسود، كان لتلك العلاقة تأثيرات طويلة الأمد على تاريخ السلاف الشرقيين، وأصبحت الإمبراطورية بسرعة الشريك التجاري والثقافي لكييف، أطلق شعب روس أول هجماتهم على القسطنطينية في عام 860، ونهبوا ضواحي المدينة، في 941، ظهروا على الساحل الآسيوي من البوسفور ولكنهم سحقوا حينها، وهي دلالة على تطور الوضع العسكري البيزنطيبعد 907، عندما كانت الدبلوماسية وحدها قادرة على صد الغزاة، لم يستطع باسيل الثاني تجاهل قوة روس كييف الصاعدة، واتبع مثل سابقيه حيث استخدم الدين لتحقيق المكاسب السياسية، أصبحت العلاقات البيزنطية الكييفية أقرب بعد زواج آنا بروفيروجينيتا بفلاديمير العظيم في 988، والتنصير التالي لروس كييف، وجهت الدعوات للكهنة والفنانين والمعماريين البيزنطيين للعمل على

العديد من الكاتدرائيات والكنائس مما وسع النفوذ الثقافي البيزنطي، بينما خدم العديد من شعب روس في الجيش البيزنطي كمرتزقة، ومن أشهرهم الحرس الفارانجي إلا أنه وبعد تنصير الروس، لم تكن العلاقات ودية دائماً، كان أكثر النزاعات جدية بين القوتين حرب 968-971 في بلغاريا، ولكن سجلت العديد من غارات الروس على المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود والقسطنطينية ذاتها، رغم صد العديد منها، تبعتها عادة اتفاقيات كانت في غالبها لصالح الروس، مثل تلك التي أنهت حرب 1043، والتي أظهر فيها الروس طموحاتهم في منافسة البيزنطيين كقوة مستقلة.

الذروة

بحلول وفاة باسيل الثاني 1025، كانت الإمبراطورية البيزنطية تمتد من أرمينيا شرقاً إلى كالابريا في جنوب إيطاليا غرباً جرى تحقيق العديد من النجاحات من غزو بلغاريا، وضم أجزاء من جورجيا وأرمينيا، وإعادة غزو كريت وقبرص وأنطاكية، لم تكن تلك مكاسب تكتيكية مؤقتة وإنما فتوحات ذات مدى بعيد، []أنجز ليو السادس نقل كامل القانون البيزنطي إلى الإغريقية، أصبح هذا الإنجاز الباهر من 60 مجلدًا أساس القانون البيزنطي التالي ولا يزال يدرس حتى الآن كما أعاد ليو تشكيل الإدارة في الإمبراطوري، حيث أعاد رسم حدود الإدارات الثيمات ورتب نظام المراتب والأفضليات، كما نظم أنشطة غرف التجارة المتعددة في القسطنطينية، ساهمت إصلاحات ليو جداً في تقليل تشتت الإمبراطوري، والتي كان فيها مركز قوة وحيد حينها هو القسطنطينية، إلا أن النجاح العسكري المستمر للإمبراطورية أثري وقوى النبلاء في المقاطعات مقارنة بالقرويين الذين تحولوا إلى نوع من القنانة.

تحت حكم الأباطرة المقدونيين، ازدهرت مدينة القسطنطينية لتصبح أكبر وأغنى مدن أوروبا حيث تجاوز تعداد سكانها 400,000 شخص في القرنين التاسع والعاشر خلال تلك الفترة، وظفت الإمبراطورية البيزنطية خدمة مدنية قوية يعمل بها أرستقراط كفؤين يشرفون على جمع الضرائب والإدارة المحلية والسياسة الخارجية، كما عزز الأباطرة المقدونيون من ثراء الإمبراطورية بروابط تجارية مع أوروبا الغربية وبالأخص عبر مبيعات الحرير والصناعات المعدنية.

كما شمل العهد المقدوني أحداثاً ذات أهمية دينية، كان تنصير البلغار والصرب والروس إلى المسيحية الأرثوذكسية بصفة دائمة قد غير الخريطة الدينية لأوروبا ولا يزال صداه حتى يومنا هذا، قامكيرلس وميثوديوس وهما أخوان يونانيان بيزنطيان من ثيسالونيكي قد ساهما بشكل كبير جداً في تنصير السلافيين والعملية التي طورت الأبجدية الغلاغوليتية، والتي هي سابقة كيريلية،[83] وصلت العلاقات بين التقاليد الغربية والشرقية ضمن الكنيسة المسيحية في 1054 أزمة نهائية، وعرفت باسم الانشقاق العظيم، رغم وجود إعلان رسمي بالفصل المؤسساتي، إلا أنه وفي 16 يوليو، عندما دخل ثلاثة مفوضين بابويين حاجيا صوفيا خلال طقس القربان المقدس الإلهي بعد ظهر يوم سبت ووضعوا ثور الحرمان على المذبح، [84] كان الانشقاق العظيم نتيجة عقود من الانفصال التدريجي،[85].

الأزمة والانقسام

سقطت الإمبراطورية بعد ذلك في فترة من الصعوبات، كان سببها لحد ما تقويض نظام الثيمات والإهمال العسكري، قام نقفور الثاني (حكم بين 963-969) ويوحنا تزيميسكيس وباسيل الثاني بتغيير التقسيمات العسكرية من جيش مدني دفاعي سريع التحرك إلى قوة محترفة جاهزة للحملات العسكرية مجهزة بالمرتزقة، إلا أن المرتزقة كانوا جنودًا مكلفين ومع تراجع تهديدات الغزو في القرن العاشر، تراجعت الحاجة للحفاظ على حاميات كبيرة والتحصينات المكلفة ترك باسيل الثاني خزينة ممتلئة عند وفاته ولكنه أهمل مسألة الخلافة، لم يكن لدى أي من خلفائه المهارة العسكرية أو السياسية ووقع عبء إدارة الإمبراطورية كلياً على الخدمة المدنية، لم ينجم عن محاولات إعادة إحياء الاقتصاد البيزنطي سوى التضخم وفقدان العملة الذهبية لقيمتها، أصبح الجيش عبئاً ثقيلاً غير ضروري وخطراً سياسياً، لذلك جرى صرف القوات المحلية واستبدلت بقوات من المرتزقة في عقود محددة.

في ذات الوقت، واجهت الإمبراطورية عدواً جديداً، واجهت المقاطعات في جنوب إيطاليا النورمان الذي قدموا إلى إيطاليا في بدايات القرن الحادي عشر، خلال فترة النزاع بين القسطنطينية وروما والتي انتهت بالانقسام بين الشرق والغرب، بدأ النورمان تقدمهم، ببطء ولكن بثبات، في إيطاليا البيزنطية، سقطت ريدجو عاصمة تاغما كالابريا عام 1060 بيد روبرت جيسكارد وتبعتها أوترانتو في 1068،

خضعت باري وهي المعقل البيزنطي الرئيسي- في بوليا للحصار في أغسطس 1068وسقطت في أبريل 1071، كما شهد البيزنطيون انهيار سيطرتهم على مدن الساحل الدلماسي لصالح بيتر كريشيمير الرابع من كرواتيا (حكم 1058-1075/1074) في 1069.

إلا أن أكبر الكوارث التي أصابت الإمبراطورية جرت في آسيا الصغرى، قام السلاجقة الأتراك بأول حملاتهم الاستكشافية عبر الحدود البيزنطية إلى أرمينيا في 1065وفي 1067، قدمت حالة الطوارئ هذه الدعم للأرستقراطية العسكرية في أناضوليا والتي أمنت في 1068 انتخاب أحدها، رومانوس ديوجينيس، إمبراطوراً، في صيف 1071، شن رومانوس حملة شرقية ضخمة لدفع السلاجقة إلى اشتباك عام مع الجيش البيزنطي، في ملاذكرد، لم يتلق رومانوس هزيمة مفاجئة على يد السلطان ألب أرسلان، وإنما سقط في قبضة الأسر، عامله ألب أرسلان باحترام، ولم يفرض شروطاً ثقيلة على البيزنطيين إلا أنه وفي القسطنطينية، جرى انقلاب لصالح ميخائيل دوقاسو الذي عانى من معارضة نقفور برينيوس ونقفور بوتانياتيس، بحلول 1081، وسع السلاجقة حكمهم عملياً على كامل الهضبة الأناضولية من أرمينيا شرقاً إلى بيثينيا غرباً وأسسوا عاصمتهم في نيقية، على بعد 90 كيلومتراً من القسطنطينية.

السلالة الكومنينية والصليبيون

تعرف الفترة بين عامي 1081-1185 عادة باسم العهد الكومنيني، تيمناً بالسلالة الكومنينية، حكم الأباطرة الكومنينيون الخمسة (ألكسيوس الأول ويوحنا الثاني ومانويل الأول وألكسيوس الثاني وأندرونيكوس الأول) سوية 104 عاماً، مشرفين على استعادة ثابتة ولكن غير كاملة للوضع العسكري والتوسعي والاقتصادي والسياسي للإمبراطورية البيزنطية، رغم احتلال السلاجقة الأتراك للأناضول وهو قلب الإمبراطورية، فإن أغلب الجهود العسكرية البيزنطية قد وجهت ضد القوى الغربية وبالأخص النورمان لعبت الإمبراطورية تحت حكم الكومنينيين دوراً هاماً في الحروب الصليبية والتي ساهم ألكسيوس الأول في تسهيل مهمتها، كما مارست الإمبراطورية نفوذاً سياسياً وثقافياً هائلاً على أوروبا والشرق الأدنى والأراضي المحيطة بالمتوسط في

عهدي يوحنا ومانويل، ازداد أيضاً الاتصال بين بيزنطة والغرب "اللاتيني"، بما فيها الدويلات الصليبية بشكل كبير خلال العهد الكومنيني، أصبح البنادقة وغيرهم من التجار الإيطاليين من المقيمين في القسطنطينية والإمبراطورية بأعداد كبيرة (قدر وجود 60,000 لاتيني في القسطنطينية وحدها، التي بلغ تعداد سكانها ثلاثمائة أو أربعمائة ألف شخص)، حيث ساهم وجودهم بالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من المرتزقة اللاتين الذين وظفهم مانويل في نشر الفن والأدب والثقافة البيزنطية في الغرب اللاتيني، بينما قاد أيضاً إلى تدفق الأفكار والعادات الغربية إلى الإمبراطورية أما بخصوص حياة الازدهار والثقافة، فكان العهد الكومنيني أحد الذروات البيزنطية، ظلت القسطنطينية في عهدهم المدينة الرائدة في العالم المسيحي من حيث الحجم والثراء والثقافة كما تجدد الاهتمام بالفلسفة الإغريقية الكلاسيكية، بالإضافة إلى تزايد الناتج الأدبي باليونانية العامية، احتل الأدب والفن البيزنطيان مكانة بارزة في أوروبا، حيث كان التأثير الثقافي للفن البيزنطي على الغرب خلال هذه الفترة هائلًا وذو أهمية طويلة الأمد.

[2014]

الفصل الثاني

الدولة المملوكية والإمبراطورية البيزنطية

[2]

دار البداية ناشرون وموزعون

الدولة المملوكية والإمبراطورية البيزنطية

أرسل الإمبراطور البيزنطي في سنة 660 هـ/1262م يطلب من الظاهر بيبرس بطركاً ملكانياً ليشرف على طائفة الملكانيين في دولته[1]، وكانت رسل ملوك الحبشة تأتي طالبة من السلطان المملوكي أن يأمر بطرك اليعاقبة بالإسكندرية بتعيين مطران لهم من اليعاقبة الأقباط، وقد وضح ذلك العمري بقوله: "ولولا أن معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة أنه لا يصح تعمد معمودي إلا باتصال من البطريرك، وأن كرسي البطريرك كنيسة الإسكندرية فيحتاج إلى أخذ مطران بعد مطران من عنده، وإلا كان شمخ بأنفه عن المكاتبة، لكنه مضطر إلى ذلك"[2].

ويبدو أن السلطان المملوكي قد وظّف حاجة ملوك الأحباش إلى مطران من بطريرك الإسكندرية في خدمة سياسة دولته الخارجية، واتخذ منها عامل ضغط على ملوك الحبشة، ولذلك نجده يتشدد مع بطرك الإسكندرية: "فأمر بكتابة إشهاد عليه أنه لا يكتب إلى ملك الحبشة بنفسه ولا بوكيله لا ظاهراً ولا باطناً ولا يولي أحداً في بلاد الحبشة لا قسيساً ولا أعلى منه ولا دونه إلا بإذن من السلطان ووقوفه على كتابته، وأنه متى خالف ذلك انتقض عهده وضربت عنقه"[3].

والجاليات والطوائف الدينية الإسلامية والمسيحية، لقد وجدت جاليات إسلامية في صقلية وبرشلونة والحبشة والقسطنطينية وغيرها من البلاد الواقعة تحت سيطرة ملوك النصارى، وكانت مثل هذه الجاليات تتطلع إلى دولة المماليك حماية لها ورفعاً لما يوقعه الصليبيون بها من فتك وبطش وضيم، فقد أرسل الظاهر بيبرس إلى ملك صقيلية يطلب منه عدم الاستمرار في قتل المسلمين المقيمين ببلاده وإلا فإنه سينتقم من أسرى الفرنج، ومن طوائف النصارى المقيمين ببلاده[4]، وقد استنجدت الجالية الإسلامية في بلاد الحبشة بالسلطان المملوكي[5] أما الجالية الإسلامية في أشبونة (لشبونة) فقد أرسلت للسلطان المملوكي سيف الدين إينال (حكم من 857-865هـ/

(1) انظر: احمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام: 202.

(2) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف 39، وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 308/5، 322. المقريزي، درر العقود: 215/2.

(3) السخاوي، التبر المسبوك: 210 (سنة 852)هـ

(4)انظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر: 308.

(5) العمري، مسالك الأبصار: 17/4-18

1461-1453م) بشأن كنيسة القيامة، وأن النصارى قد ضيقوا عليهم، ولذلك يطلبون رفع الأذى عن النصارى ببلاد السلطان المملوكي[1].

ووصل إلى القاهرة في نهاية القرن التاسع الهجري/ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي - وقبيل سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس _ رسولان يطلبان النصرة من السلطان المملوكي، وقد ذكر خبرهما المؤرخ عبد الباسط الغرسي بقوله: "وصل إلى القاهرة اثنان من المغاربة من أهل الأندلس كانا قد توجها إلى بلاد الروم بمكاتبة صاحب الأندلس وعلمائها وأكابرها وأعيانها بالمبايعة لابن عثمان، وأنه ينجدهم، وإلا استولى الفرنج على بلادهم بأسرها، وذكرا أنهما توجها لبلاد ابن عثمان من جهة بلاد الفرنج في خفية وهما بزي الفرنج حتى خلصا إليه، وأوصلا إليه بالبيعة، وأنه وعدهما بجميل، وأنه يبعث إليهم بالاصطول والمقاتلة"[2].

ويظهر أن سلاطين المماليك كانوا يستجيبون في أغلب الأحيان لرسائل الجاليات الإسلامية، ويتدخلون دبلوماسياً لنصرتهم ورفع المظالم عنهم، وكانوا يتخذون من وجود طوائف النصارى ومراكزهم الدينية أداة سياسية يلوحون بها في وجه ملوك النصارى لإنصاف المسلمين والحفاظ على أرواحهم وأموالهم، ففي رسالة بعثها الناصر محمد بن قلاوون في سنة 705هـ/ 1306م إلى الملك حاكم الريدراغون ملك بلنسية وسردانية تجد ما نصه: "وعلمُ الملك محيط بأن جميع النصارى في سائر ممالكنا وبلادنا من جملة رعايانا، وممن يتعين علينا حفظهم والشفقة عليهم، ولو تعرض أحد إليهم بأذية قبلناه (كذا ولعلها: قابلناه) أشد مقابلة ورسمنا بأن يعتمد فيه الواجب، وإنما نحن الآن نؤكد على حضرة الملك في الوصية بمن في بلاده من المسلمين، كما نحن عليه أيضاً من الوصية بالنصارى؛ لأنهم رعايانا وأهل بلادنا، وقد جددنا المراسم الشريفة الآن بتجديد الوصية بجميع النصارى الذين في ممالكنا إكراماً لسؤال الملك في أمرهم..." [3].

وفي سنة 747هـ/1346م أرسل ملك الحبشة رسالة إلى السلطان الظاهر جقمق يوصيه خيراً بالنصارى في بلاده، ويطلب لهم السماح بعمارة ما درس من

(1) انظر مؤلف مجهول: مائة وثيقة: ورقة 59و.

(2) عبد الباسط، نيل الأمل في ذيل الدول: ج2 ورقة 380ظ.

(3)Maximiliano A. Alarcon Y.Santon Y. Ramon Garcia De Linares, Los Documentos Arabes Diplomaticos Del Archivo De LA Corona De Ragon, (Madride,1940), P.356..

كنائسهم، أسوة بالإفرنج وملك الكرج الذين رسم لهم بعمارة في القدس الشريف، وأخبر السلطان بأنه رفيق بالمسلمين المقيمين في أرضه(1).

وتدّل إحدى الوثائق الصادرة عن ديوان الإنشاء المملوكي في عهد السلطان فرج بن برقوق في سنة 814هـ/1411م أنه قد استجاب لطلب رئيس دير صهيون بالقدس لعمارة مهد عيسى عليه السلام وسمح بمجيء الصناع، وجلب مواد البناء والعمران من البحر – أي من الغرب وإن لم يحدد مصدرها – دون دفع أي رسوم للميناء: "... والصدقات شملته بمراسيم شريفة وكريمة بتمكينه من عمارة مهد عيسى عليه السلام من الأخشاب والرصاص وغير ذلك، وإحضار الأخشاب والصناع من البحر، والآن فقد حضر المركب بالأخشاب والصناع، ومرسومنا أن يتقدم كل واقف عليه بمنع من يتعرض إليهم في ذلك، أو يقف لهم في طريق، والوصية بالصناع النجارين والخشابين وغيرهم، ولا يطلب منهم موجب (رسوم) بمينا يافا ولا بباب قمامة بالقدس الشريف...،"(2).

وبناءً على ما تقدم من نصوص وثائقية يتبين لنا دور الجاليات والطوائف الدينية الإسلامية والمسيحية في حركة الاتصال الدبلوماسي بين المماليك وغيرهم، وما يقوم عليه ذلك من حاجة إلى الترجمة التي تنظم هذا الاتصال بين الطرفين، وإلى التراجمة الذين يشرفون على تنفيذه في كثير من الأحيان.

(1) انظر: العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان: 604-611 (حوادث:824- 850، تحقيق: عبد الرزاق القرموط، الزهراء للإعلام العربي، 1989)، السخاوي، وجيز الكلام: 589/2.

(2)N. Risani, Documenti E.Firmani, PP.82-84..

المبحث الأول

اللغات والمترجمات

تدل المصادر المختلفة التي تمكنّا من الوقوف عليها في أثناء البحث في حركة الترجمة والتعريب أن ديوان الإنشاء المملوكي قد اضطر نتيجة لعلاقات الدولة المملوكية ونشاطاتها المختلفة من دبلوماسية وعسكرية وعلمية ودينية واقتصادية إلى الترجمة من وإلى عدد من لغات الشعوب والطوائف والدول القائمة في ذلك العصر، وكان ديوان الإنشاء يضع الألقاب والأدعية وأساليب المخاطبة اللازمة لذلك، ويحدد نوع الورق الذي يكتب فيه لكل كيان سياسي بما يتناسب وعقيدته وقوته العسكرية والسياسية ومركزه الاقتصادي، ومكانته بالنسبة للدول المملوكية[(1)].

أما أهم اللغات التي تمت الترجمة منها أو إليها في ديوان الإنشاء المملوكي فإنها:

- **المغولية:** يبدو أن اللغة المغولية كانت مع بداية التوسع المغولي في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي لغة شفاهية غير مكتوبة[(2)]، ثم أمر جنكز خان (ت 624هـ/1227) أبناء المغول بتعلم الخط الأويغوري، حيث وصف لنا عطا ملك الجويني ذلك بقوله: "ووفقاً لرأي جنكز خان ومقتضى مراده فقد وضع لكل أمر قانوناً، ولكل مصلحة دستوراً، واستن لكل ذنب حداً وعقاباً، ونظراً لأن أقوام التتار لم يكن لهم خط فقد أمر أن يقوم الأويغور بتعليم أطفال المغول الكتابة"[(3)].

وقد أمدنا أحد التراجمة الذين عاشوا في بلاطات المغول والعثمانيين ثم المماليك أخيراً وهو ابن عربشاه (ت 845هـ/1441م) بمعلومات جيدة عن هذا الخط، يقول: "وأما الجغتاي فلهم قلم يسمى أويغور، وهو بالقلم المغولي مشهور، وعدته أربعة عشر حرفاً...، وسبب نقصانه وانحصاره في هذا العدد، أن حروف الحلق يكتبونها على هيئة واحدة، وكذلك تلفظهم بها، ومثل هذه الحروف المتقاربة في المخرج مثل الباء والفاء، ومثل الزاي والسين والصاد، ومثل التاء والدال والطاء

(1) انظر العمري، التعريف بالمصطلح الشريف 36-84، الحلبي، التبيان في اصطلاح أهل الزمان: ورقة 6، ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، ورقة 6-13، القلقشندي، قلائد الجمان في مصلح مكاتبة أهل الزمان: ورقة 36و39ظ.

(2) انظر: بوزورث، الأسر الحاكمة في الإسلام:200.

(3) السباعي محمد السباعي، عطا ملك الجويني وكتابة جهان كشا: 230، وانظر، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي:553.

وبهذا الخط يكتبون تواقيعهم ومراسيمهم، ومناشيرهم ومكاتيبهم، ودفاترهم ومخاتيمهم، وتواريخهم وأشعارهم وقصصهم وأخبارهم، وسجلاتهم وأسفارهم، وجميع ما يتعلق بالأمور الديوانية، والتوراة الجنكيزخانية، والماهر في هذا الخط لا يبور بينهم؛ لأنه مفتاح الرزق عندهم"[1].

ويبدو أن الانتصارات السريعة والساحقة التي حققها المغول أدت إلى انتشار هذا الخط وذيوعه، وبلغ من تعصب المغول للغتهم وخطهم أنهم كانوا يعدون تعلمه قمة الفضل والمعرفة[2]، إلا أن خط المغول ولغتهم لم تصبح لغة الشعوب التي قهروها وسيطروا عليها[3].

أما اهتمام ديوان الإنشاء المملوكي والدولة المملوكية باللغة المغولية فقد كان كبيراً، ولا غرو في ذلك فإن المغول هم العدو الأكبر والأخطر لدولة المماليك، ويبدو أن الحاجة إلى مكاتبة المغول والإطلاع على أحوالهم المختلفة، والكشف عن بواطن سياساتهم، وما يكون من تحركاتهم هو الذي عمّق معرفة المماليك باللغة المغولية واهتمامهم بها، فالعمري رئيس ديوان الإنشاء المملوكي يميز- في موسوعته الكبرى التي صنفها للكتاب في ديوان الإنشاء - ألفاظ اللغة المغولية من التركية، يقول: "كوك طاق ومعناه في اللغة المغولية القصر الأخضر؛ لأن القصر عندهم طاق، والأخضر كوك، وهي خلاف التركية"[4].

ويبدو من خلال نص أورده القلقشندي أن خانات القبيلة الذهبية من المغول الذين حكموا في روسيا الجنوبية وغربي سيبيريا ابتداء من عهد بركة وحتى عهد غياث الدين محمد أوزبك (655-742هـ/ 1257-1341م) كانوا يكتبون اللغة المغولية بالخط العربي[5].

ومهما يكن من أمر الخط الذي كتب به المغول فإن الرسائل كانت أهم ما ترجم في العصر المملوكي من اللغة المغولية إلى العربية، فقد أشار محيي الدين بن

(1) ابن عربشاه، عجائب المقدور في نوائب تيمور:477-479، وحول الإيغور وهم قبائل تركية، انظر: إبرار كريم الله، من هم التتار؟: 121-122، بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي: 554-555
وانظر: S.G. Clauson, Turkish and Mongolian Studies. (London 1962). PP 174 -187.
(2) السباعي، عطا ملك الجويني،215.
(3) أبرار كريم الله، من هم التتار؟:61.
(4) العمري، مسالك الأبصار 57/3.
(5) انظر القلقشندي، صبح الأعشى: 167/1.

عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء المملوكي إلى ورود كتاب من تنامكو ملك مغول القفجاق في سنة681هـ/1282م إلى المنصور قلاوون: "وصلت رسل قفجاق فقهاء، أحدهم الفقيه مجد الدين أطا ورفقته: نور الدين ورفيق آخر، وأحضروا من أيديهم كتاباً بالمُغلي"[1]، وقد اكتفى ابن عبد الظاهر بتلخيص مضمون رسالة تنامكو ولم يذكر لنا الترجمة الكاملة للنص، ولا اسم الترجمان الذي قام بتعريبه، ويبدو أن كثيراً من رسائل المغول إلى ديوان الإنشاء المملوكي كانت تترجم ترجمة مضمونية لم يحرص فيها التراجمة على النقل الدقيق[2].

وقد أوضح العمري في دستوره لديوان الإنشاء المملوكي أن مراسلة مملكة بيت بركة المغولي كانت: "إن كتب بالعربي رَسم ما يكتب إلى صاحب إيران كما تقدم، وإلا فالأغلب أن يكتب إليه بالمغلي، وذلك مما كان يتولاه أيتمش المحمدي، وطاير بُغا الناصري وأرغداق الترجمان، ثم صار يتولاه قوصون الساقي الناصري"[3].

وتشير مصادر العصر المملوكي إلى وجود نص إلياسة أو اليسق المغولي بين أيدي أمراء المماليك، وإلياسة لفظة مغولية تعني القانون أو الشريعة التي وضعها جنكز خان لتنظيم العلاقات بين المغول، ومع أن المماليك قد خضعوا لأحكام الشريعة الإسلامية في الأمور الدينية، إلا أنهم كما يذكر المقريزي: "احتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكز خان والاقتداء بحكم الياسة، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم، والأخذ على يد قويهم، وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما في الياسة، وجعلوا إليه مع ذلك النظر في قضايا الدواوين السلطانية عند الاختلاف في أمور الإقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب، وكانت من أجلّ القواعد وأفضلها حتى تحكم القبط في الأموال وخراج الأراضي...،"[4].

فنص المقريزي السابق يكشف لنا عن وجود إلياسة بأيدي المماليك من جانب ويشير إلى تأثر المماليك بالنظم الإدارية والإقطاعية المغولية من جانب آخر

(1) عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور:46.
(2) انظر ابن أبي الفضائل، النهج السديد والدّر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد:452-453، 550 نشره Biochet في (Patrologia Orientalis, Paris,1919).
(3) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف 62-63.
(4) المقريزي المواعظ والاعتبار:221/2.

ولاسيما أن بعض المؤرخين قد أشار إلى تأثر المماليك بطريقة جنكز خان في الحكم والإدارة[1].

ولـما كانت إلياسة مكتوبة في أصلها باللسان المغولي وبالأبجدية الأويغورية[2]، وكان بين المماليك من يجيدون اللسان والخط المغولي، فإنه يمكن القول: إنهم كانوا يقومون بترجمة نصوص هذا القانون المغولي (إلياسة) إلى التركية أو العربية عند الحاجة إلى ذلك.

- **الفارسية أو الفهلوية:** تُعدُّ الفارسية من أكثر اللغات وأقدمها علاقة باللغة العربية وذلك بحكم مجاورة العرب للفرس، ولكن مع ظهور الإسلام وانتشاره في أرض فارس بدأت الفارسية بالتراجع أمام العربية، وفقدت مركزها الكتابي في إدارة الخراج ومالية الدولة سنة 78هـ/697م في البصرة والكوفة، وفي خراسان سنة 124هـ/741م[3]، ولم تعد الفارسية لغة رسمية منذ ذلك الحين إلى أن تم إحياؤها لغة أدبية على يد السامانيين الذين حكموا في خراسان وما وراء النهر في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وطوال القرن الرابع الهجري، وذلك عندما ضعفت الدولة العباسية[4].

وبدأت حركة ترجمة المؤلفات العربية إلى الفارسية في عهد السامانيين، فترجم البلعمي تاريخ الطبري وتفسيره إلى الفارسية[5]، وشجع نوح بن منصور الساماني الشاعر الدقيقي في القرن الرابع الهجري على نظم الشاهنامه وهي الملحمة الفارسية القومية، ثم أتمها الفردوسي (ت 416 هـ/1025) وقدمها للسلطان محمود الغزنوي[6].

وزاد الاهتمام بالفارسية بظهور السلاجقة في القرنين الخامس والسادس الهجريين، وقد كتب السلاجقة في فارس وثائقهم ومراسلاتهم باللغة الفارسية مما

(1) انظر السيوطي، حسن المحاضرة: 133/2
(2) بارتولد، تركستان: 113-114، 559.
(3) انظر: الجهشياري، الوزراء والكتاب: 38، 67.
(4) السباعي، عطا ملك الجويني وكتابه جهان كشا: 47-48.
(5) انظر براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي:132.
(6) انظر: الفردوسي، الشاهنامة 37،54،67/1

عزز مكانتها وانتشارها[1]، ولذلك فإن اللغة الفارسية قد رسخت في مشرق العالم الإسلامي قبل مجيء المغول بثلاثة قرون في الأقل، واقتلعت العربية من مواقع كثيرة؛ ومن هنا فإن حضور الفارسية في الأراضي التي اجتاحها المغول كان أكبر من حضور العربية[2]، بل إن المغول بفارس والعراق كانوا يكتبون بالمغولية والفارسية، وقد وصف لنا القلقشندي ذلك في القرن التاسع الهجري قائلاً: "ثم انقرضت الخلافة في بغداد في وقعة هولاكو ملك التتار في سنة ست وخمسين وستمائة، واستولت المغل والأعاجم على بغداد، بطل رسم الكتابة المعتبرة، وصار أكثر ما يكتب عن ملوك التتار بالمغلية أو الفارسية؛ والأمر على ذلك إلى زماننا" [3].

أما المترجمات من الفارسية إلى العربية فإنها:

أ. **الرسائل المتبادلة بين المغول والمماليك** ولاسيما أن بعضاً منها كان يرد بالفارسية أحياناً، ويبدو أن هذا النمط من الرسائل المكتوبة عن المغول بالفارسية كان منذ أيام المغول الإلخانيين حكام فارس والعراق وحتى عهد التيموريين في القرن التاسع الهجري، وقد حفظ شرف الدين على يزدي في كتابه "ظفرنامه" بعضاً من هذه المراسلات المكتوبة بالفارسية التي أرسلها تيمورلنك في نهاية القرن الثامن الهجري وبداية القرن التاسع الهجري إلى سلاطين المماليك[4].

ب. **الشاهنامة** وهي ملحمة الفرس الخالدة التي نظمها الفردوسي بالفارسية وقدمها للسلطان محمود الغزنوي في مطلع القرن الخامس الهجري، وقد قام قوام الدين الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني بترجمتها إلى العربية بدمشق سنة 621هـ/ 1224م، وقدمها للسلطان الملك المعظم (ت 624هـ /1226) إلا أن هذه الترجمة العظيمة القدر قد بقيت ناقصة، ذلك أن البُنداري قد حذف بعضاً من فصولها ومدائحها ورسائلها[5]، ويبدو أن نقص هذه الترجمة هو الذي جعل نائب الشام الأمير تنكز يطلب من أحد التراجمة منادمته بهذه

(1) السباعي، عطا ملك الجويني وكتاب جهان كشا: 50.

(2) انظر كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية:257 وانظر E.G Browne Aliteray History of Persia, (Cambridge,1964) Vol.III P.62.

(3) القلقشندي صبح الأعشى94/1.

(4) انظر: حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية: 165-175.

(5) انظر: الفردوسي، الشاهنامة: 1/98-99

الملحمة الخالدة من ناحية، كما أن السلطان الغوري أمر بترجمة الشاهنامة من الفارسية إلى التركية من ناحية أخرى[1].

ج. **مرزبان نامه**، وهو كتاب ألّفه مرزبان بن رستم بن شروين- أمير طبرستان – في أواخر القرن الرابع الهجري، ويذكر بروكلمان: أن أصل هذا الكتاب كان "باللهجة الإيرانية المحلية لطبرستان، ثم نقله سعد الدين الوراويني في مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلى الفارسية الحديثة، ثم ترجمه ابن عربشاه إلى اللغة العربية[2].

د. **إلياسا أو إلياسة** التي نقلها إلى الفارسية عطا ملك الجويني (ت 681هـ/ 1282م) وهو حاكم بغداد زمن هولاكو، وذلك في كتابه "جهان كشا" وعطا ملك الجويني أحد المصادر الرئيسية للعمري رئيس ديوان الإنشاء المملوكي في موسوعته "مسالك الأبصار" التي يظهر من خلال تتبع نصوص إلياسة الواردة فيها أن العمري كان يعتمد على نص مترجم منها في ديوان الإنشاء المملوكي على كتاب عطا ملك "جهان كشا"[3].

ه. **المؤلفات التاريخية والسياسية وغيرها**، لقد حرص المماليك على معرفة تواريخ المغول وأنسابهم ودولهم وأنظمتهم الإدارية العسكرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لذلك فإن أحد الأمراء المماليك التراجمة وهو سيف الدين أوتامش الأشرفي وصف بأنه: "يعرف بيوت المغل وأنسابهم وأصولهم ويستحضر تواريخهم ووقائعهم"[4]، ويبدو أن كُتاب ديوان الإنشاء المملوكي كانوا يشجعون على ترجمة كل ما يتعلق بالمغول وأخبارهم إلى العربية، ولذلك وجدنا أحد كبار كتاب المغول وهو رشيد الدين الهمذاني (ت 718هـ/ 1318م) – الذي خدم في بلاط المغول قرابة خمسين عاماً، وكان محيطاً بالفارسية والعربية والمغولية والعبرية - يأمر بترجمة مصنفاته من الفارسية إلى العربية[5].

- **التركية:** يلاحظ القارئ لمصادر العصر المملوكي أن بعضاً من مؤلفيها يطلقون على الفترة المملوكية اسم الدولة التركية وذلك لغلبة العنصر التركي – الذي يعود

(1) انظر: الغوري، مجالس السلطان الغوري: 1/45-47.

(2) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القسم السادس: (10-11) ص 107.

(3) انظر العمري، مسالك الأبصار:3/40-47، وقارن بما ترجمه السباعي محمد السباعي، عطا ملك الجويني وكتابه جهان كشا: 228-237.

(4) الصفدي، أعيان العصر209/1

(5) انظر، الهمذاني، جامع التواريخ (تاريخ المغول): م2، ج1، ص 171 –172، بارتولد، تُركستان: 120.

كثير منه إلى منطقة القبجاق[1] الواقعة جنوب روسيا – عليها كما مرّ بنا، إلا أن العلاقة بين العرب والأتراك، وحضور الجنس التركي في البلاد العربية بدأ منذ مطلع القرن الثالث الهجري عندما أكثر الخليفة العباسي المعتصم من استجلاب الجنس التركي.

ومع مضي العصر العباسي ازداد النفوذ التركي، وظهر السلاجقة في فارس والعراق والشام على مسرح الأحداث في القرنين الخامس والسادس الهجريين، وتمكنوا من هزيمة البيزنطيين في معركة ملاذ كرد عام 463هـ/ 1071م في بلاد الأناضول[2] مما كان له أكبر الأثر في اللغة التركية، حيث ألّف محمود بن الحسين الكاشغري معجمه الموسوم بـ "ديوان لغات الترك"وقدمه للخليفة العباسي المقتدي بأمر الله الذي حكم من سنة 467-487هـ/ 1074-1094م.

وديوان لغات الترك من المعاجم المشتركة (تركي/عربي)، ويستدل مما ذكره الكاشغري في مقدمته على تقديم الأتراك وتقريبهم لمن يتكلم بلسانهم: "ولا ذريعة لديهم أحسن من التّراطن بلسانهم، لإصغائهم إليه أسماعهم، واستمالة جَنانهم... وضعت كتابي هذا مستعيناً بالله تعالى، موسّماً بديوان لغات الترك ليكون ذِكراً مخلّداً وذُخراً مؤبداً، برسم الحضرة المقدسة النبوية الإمامية الهاشمية العباسية سيدنا ومولانا أبي القاسم عبد الله بن محمد المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين... "[3].

ويظهر أن اللغة التركية قد حققت كسباً كبيراً بتدوين أول معجم فيها مما عمّق جذورها في نفوس متكلميها والكاتبين بها، ولذلك فإننا نجد نشاطاً في حركة تأليف المعاجم المشتركة بين العربية والتركية حتى من كبار النحويين عند العرب أمثال أبي حيان الأندلسي في العصر المملوكي الذي جاء في مقدمة معجمه الموسوم بـ "الإدراك للسان الأتراك": "والغرض في هذا الكتاب ضبط جملة عالية من لسان الترك لغة وتصريفاً ونحواً، وقد ضبطت هذا اللسان حرفاً حرفاً، ورتّبت الكلام في اللغة على

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار: 2/236-241

(2) بوزورث، الأسر الحاكمة في الإسلام: 167-169.

(3) الكاشغري، ديوان لغات الترك:1/2-4

حروف المعجم باللسان التركي فأذكر اللفظة التركية وأتبعها بمرادفها من اللغة العربية...»[1].

ولا يتسع هذا البحث إلى استقصاء المعاجم المشتركة بين العربية والتركية، وإنما أريد التنبيه على معجم القونوي الذي جاء في مقدمته ما نصه: "اعلم وفقك الله أن اللسان التركي القفجاقي الخالص عارٍ من ثمانية حروف وهي: الثاء والحاء والخاء والضاد والظاء والعين والفاء والهاء، فإن سمعت كلمة تتضمن بعض هذه الحروف فاعلم أنها ليست من اللغة التركية الخالصة، وأنها كلمة مستعارة من غيرها، وقد عينّت ما وقع الخلف فيه بين اللغة التركية الخالصة وبين اللغة التركمانية..."[2].

1. وورد في مقدمة معجم جمال الدين أبي محمد عبدالله التركي- المسمى بـ "لغة المشتاق في لغة الترك والقفجاق" – ما نصه: "أما بعدُ فهذا ترجمان اللغة التركية اخترته من الأنوار المضيّة؛ تأليف علاء الدين بيليك القفجاقي، والصحيح من الدُّرة المضيَّة تأليف عماد الدين داود بن علي بن محمد الوراق المصريّ، وزدتُ على ما عندهما أشياء كثيرة..."[3].
2. ويبدو أن لغة القفجاق قد احتلت مكانة هامة بين أسرة اللغات التركية؛ لأن معظم سلاطين المماليك في الدولة التركية البحرية هم من القفجاق أو القبجاق[4]، كما أن هذه اللغة أصبحت لغة رسمية لدولة خانات القبيلة الذهبية من المغول[5].

ويتضح من خلال إشارات مصادر العصر المملوكي إلى السفارات المتبادلة بين المماليك والدول والإمارات ذات اللغة التركية أن عدداً وافراً من الرسائل المكتوبة بالتركية قد وردت على ديوان الإنشاء المملوكي أو صدرت عنه، ففي حديث ابن عبد الظاهر عن رسل مملكة بركة خان العائدين في سنة 662هـ/1263م إلى بلادهم بعد

(1) أبو حيان الأندلسي، الإدراك للسان الأتراك 5-6.

(2) M.The Houtsma, EinTurkisch-Arabishes Glossar, (Leiden,1849)P.2

(3) A.Zajaczkowski, Bulgat Al Mustaq Fi Lugat AL-Turk Wa-L Qifzaq (warszwa,1958) PP1-2

وانظر A.Zajaczkowski, "Note Complementari Sulla Lessicografzia arabo –turca nell epoca dello Stato Mamelucco,PP 149-160.

(4) انظر: شيخ الربوة الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر:264.

(5) انظر بارتولد، تاريخ الترك في أسيا الوسطى: 170؛ وانظر كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية: 256-258.

أن أدوا رسالة إلى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس إشارة إلى أن السلطان المملوكي قد ردّ على رسالتهم، وحمّل رسله إلى بلاط بركة خان رسالة باللغة التركية: "... وقُرئ كتاب السلطان بالتركي على من عنده وفرحوا به، وأعاد الرسل بجوابه، وسير معهم رسله"[1].

ويظهر من خلال الوثائق التي جمعها فريدون بيك ودونها في كتابه الضخم "مجموعة منشئات السلاطين" أن عدداً كبيراً من الرسائل المتبادلة بين المماليك والعثمانيين كان مكتوباً باللغة العربية[2].

وتجد الإشارة إلى أن بعضاً من المؤلفات التاريخية والفقهية والأدبية قد نقلت بأمر من سلاطين المماليك من اللغة العربية إلى اللغة التركية[3].

- **العبرية:** بيّن القلقشندي في حديثه عن الألقاب المصطلح عليها عند صدور المكاتبات من ديوان الإنشاء المملوكي إلى غير المسلمين بقوله: "واعلم أن ملوك الكفر المكاتبين عن هذه المملكة جميعهم نصارى: من الروم، والفرنج، والكرج والحبشة وغيرهم؛ إذ كانوا هم المستولين على أكثر الممالك؛ أما اليهود، فإنهم لم يبق لهم مملكة معروفة، بل هم تحت الذّمة أين كانوا"[4].

وقد تسامحت الدولة المملوكية مع رعاياها من اليهود، وسمحت لهم بالتنقل والسفر والمتاجرة وإقامة مركز علمي بالقدس لقراءة كتابهم وتفسيره[5].

ولمّا كان ديوان الإنشاء المملوكي هو المؤسسة الإدارية المسؤولية عن تنظيم علاقات الدولة مع رعاياها من مختلف الطوائف والملل فإن ديوان الإنشاء أصدر

---

(1) ابن عبد الظاهر: الروض الزهر:217، وأنظره: 154-157؛ وانظر حول الرسائل المتبادلة مع الأتراك ورسوم مكاتباتهم من ديوان الإنشاء المملوكي: العمري، مسالك الأبصار:39/2 وما بعدها؛ العمري، التعريف بالمصطلح الشريف:49-57؛ القلقشندي، صبح الأعشى:14/8-20.

(2) انظر فريدون بيك، مجموعة منشئات السلاطين 116/1، 120، 145-146، 164-165؛ 195.

(3) انظر: السخاوي، الضوء اللامع: 131/10-135؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة:110/15؛ الغوري، مجالس السلطان الغوري: 45/1-57.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى:25/8، وأنظره:78/6.

(5) انظر: علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي:167-168.

وصاياه لرئيس طائفة اليهود، ورئيس السامرة تبياناً لصلاحيات رؤساء هذه الطوائف ومهامهم ومسئولياتهم[1].

وعلاوة على ذلك يظهر أن ديوان الإنشاء كان بحاجة إلى معرفة دقيقة فيما يتعلق بتواريخ اليهود وعقائدهم وأنبيائهم، ولذلك أمرَ رئيس ديوان الإنشاء، والمقنن لمصطلحه وهو ابن فضل الله العمري بإحضار أحد علماء العبرية العارفين بها وطلب منه ترجمة سفري القضاة والملوك[2].

- **اليونانية أو الرومية:** وكانت الكتب الواردة على ديوان الإنشاء المملوكي باليونانية مرسلة من ملوك الروم وأكبرهم صاحب القسطنطينية الذي كان يعبر عنه أحياناً باسم الأشكري أو اليشكري وهو تحريف للاسم لسكريس[3].

ويظهر أن العلاقات الدبلوماسية بين المماليك والبيزنطيين كانت متينة، وترددت الرسل بين الطرفين منذ أيام الظاهر بيبرس وحتى سقوط القسطنطينية على أيدي الأتراك في منتصف القرن التاسع الهجري تقريباً[4].

أما أهم ما عرّب عن اللغة اليونانية إلى العربية فهو المعاهدات وما يتعلق بها من أيمان يحلف عليها المتعاهدان، فقد وردت نسخة يمين من ملك القسطنطينية في سنة 680هـ/1281م وتم تعريبها في الديوان[5].

ومن المعربات عن اليونانية إلى العربية الرسائل التي تضمنت معنى توكيد الصداقة بين البيزنطيين، وما يدخل في إطارها من تأمين للتجارة، ورعاية للأماكن المقدسة، وتبادل الهدايا، وقد حفظ لنا القلقشندي واحدة من هذه الرسائل المعربة

(1) انظر العمري، التعريف بالمصطلح الشريف:202-204.

(2) انظر: العمري، مسالك الأبصار:2/25

(3) انظر: القلقشندي، صبح الأعشى:25/8، 121؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر:88 العمري، التعريف بالمصطلح الشريف:68-69.

(4) انظر أحمد مختار العبادي: قيام الدولة المملوكية الأولى في مصر والشام: 202؛ ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة: 483/3؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة:287/14.

(5) انظر: ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات: 229/7-233.

التي قام بترجمتها من اللغة اليونانيـة إلى العربيـة بطـرك الملكانيـة بحضـور سـيف الدين الترجمان في سنة 814هـ/1411م [1].

- **اللغة الفرنجية:** اصطلح مؤرخو ديوان الإنشاء المملـوكي عـلى وصـف المكاتبـات الواردة من فرنج الساحل الشامي والجنـويين والبنادقـة والقشـتاليين والبيازنـة والفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين بأنها مكتوبة، "باللسان الفرنجـي وقلمـه"[2]، وتكون مثل هذه الكتب مختومة، فـإذا ورد كتـاب منهـا إلى السـلطان المملـوكي "فُك ختمُه"، وترجم بترجمـة الـترجمان بـالأبواب السـلطانية، وكتـب تعريبـه في ورقة مفردة، وألصقت به"[3].

والمعروف أن اللغة السائدة بين الصـليبيين في السـاحل الشـامي بوجـه عـام هي الفرنسية، ولكن مع ذلك استخدمت كل أقلية صليبية لغتها الخاصة بهـا[4]، وأن اللغة السائدة في الجمهوريات الإيطالية، وفي إسبانيا القشتالية، وفي فرنسا الفرنسـية، فهل يعني ذلك أن الكتب كانت ترد إلى ديوان الإنشاء المملوكي بكل هذه اللغات مع أن مصادر ديوان الإنشاء المملوكي تحدثت عن لسان إفرنجي واحد؟.

يبدو أن مصطلح اللسان الفرنجي، مصطلح عـام يطلـق عـلى اللاتينيـة ومـا تفرع عنها من اللغات الأوروبية: الفرنسية والإيطالية والإسبانية[5].

أما أهم ما ترجم عن اللسان الفرنجي فإنه على النحو الآتي:

أ. **التقارير الاستخبارية**، فقد ذكر شافع بن علي صاحب سيرة المنصور قـلاوون أن أحد عيون المماليك بعكا وهو جوان خَنْدَق، كتب إليـه أن أحـد أمـراء المنصـور قلاوون هو كونْدك قـد كتـب إلى مقـدمي الإفـرنج بعكـا بأنـه عـازم عـلى قتـل قلاوون، فعندما وصـلت رسـالة الجاسـوس جـوان إلى قـلاوون:"رسّـم (احتجـز)

(1) انظر القلقشندي، صبح الأعشى: 121/8.
(2) المصدر السابق:123/8.
(3) المصدر السابق 123/8.
(4) انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية:482/1.
(5) انظر: J.Wansbrough, "Venice and Florence In The Mamluk Commerical Privilleges" Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Vol, XXVIII (1965) P.487.
وانظر: أحمد دراج: "الوثائق العربية المحفوظة في دور الأرشيف الأوروبية (مصر الإسلامية)"، بحث منشور ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، 1969م، دار الكتب القاهرة، 1970م: ص 126.

الصاحب فتح الدين بن عبد الظاهر صاحب الديوان على التراجمة، وهم: السابق والاسبتاري كاتب الانبرطور بحيث لم ينفس لهم في الاجتماع بأحد من خلق الله تعالى خيفة أن يشيع هذا الخبر" [1].

ب. **الهدن**، ومثال ذلك الهدنة التي وقعها المنصور قلاوون مع الجنوية، وقد حررت فصول هذه المعاهدة: "في يوم الأحد ثاني جمادى الأولى، سنة تسع وثمانين وستمائة... وقرأ ما فيها من القلم الفرنجي المنقول إلى العربي شمس الدين عبد الله المنصوري، وترجم عليه لتحقيق التعريب، والشهادة بصحته سابق الدين الترجمان، وعزّ الدين أيبك الكبكي الترجمان في التاريخ المذكور"[2].

ج. **الأيمان**، وهي متعلقة بالهدن والموادعات التي تقع بين المماليك والفرنج وعادة ما يقوم التراجمة بترجمتها، ثم يحلف عليها الرسل الموفدون من الفرنج، وتؤخذ خطوطهم عليها بحضور الأساقفة[3].

د. **الرسائل المتعلقة بموضوعات تجارية أو سياسية أو دينية كرسالة**:"دوج البنادقة ميكائيل على يد قاصده نُقولا البندقي في سادس عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سنقر، وسيف الدين سودون، التراجمة بالأبواب الشريفة"[4].

ه. **المعاهدات التجارية الموقعة بين المماليك والبنادقة والجنويين والفلورنسيين**[5].

- **الحبشية**: تدل ملاحظات العمري والمقريزي والقلقشندي وكلهم من ذوي العلاقة بديوان الإنشاء المملوكي على معرفة دقيقة بهذه اللغة ولهجاتها المختلفة فالعمري يذكر عن الأحباش:"مع كونهم جنساً واحداً ينطقون بألسنة شتى تزيد على خمسين لساناً، وقلمُ قراءتهم واحد وهو الحبشيـ يكتب من اليمين إلى الشمال، عدته ستة عشر حرفاً، وكل حرف سبعة فروع، الجملة من ذلك مائة واثنان وثمانون حرفاً خارجاً عن حروف أخر مستقلة بذاتها لا تفتقر إلى حرف

(1) شافع بن علي، الفضل المأثور: ورقة 59ظ – 60و.
(2) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور: 168.
(3) انظر: المصدر السابق: 168.
(4) القلقشندي، صبح الأعشى:123/8.
(5) انظر: Amari, I diplomi Arabi del R Archivio Fiorention, PP.185-225
وانظر سمير الدروبي: "من جهود المستشرقين في دراسة الأدب الإداري عند العرب ونشره" مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 50، السنة 1996م: ص 74.

من الحروف المعدودة المتقدم ذكرها، مضبوط بحركات نحوية متصلة به لا منفصلة عنه" [1].

وعلى الرغم من هذه المعرفة بألسنة الحبش المتعددة وقلمهم الواحد إلا أن القلقشندي لم يوضح لنا اللسان الذي كتب به الأحباش للمماليك، يقول:"الكتب الواردة عن ملوك الحبشة، والعادة فيها أن ترِد في قطع باللسان"[2].

ولكن يظهر أن الأحباش كانوا يرسلون رسائلهم إلى المماليك باللغة الحبشية التي حفظ لنا ابن عبد الظاهر بعضاً منها بعد ترجمتها من الحبشية إلى العربية[3]، كما أشار ابن إياس في حوادث سنة 889هـ/1484م إلى وفاة "يحيي بن شاد بك المعروف بقاصد الحبشة، أحد أجناد الحلقة، وكان ريساً حشماً عارفاً بلغة الحبش[4]، مما يدل على وجود قاصد(سفير) عند المماليك لديه الخبرة التامة بلغة الأحباش، يضاف إلى ذلك ملاحظة المقريزي عن مسلمي الزيلع الذين تكلموا بالعربية والحبشية[5]، من جانب، وملاحظة الرحالة سورينو عن لغة طائفة الرهبان الأحباش المقيمين بالقدس الشريف في العصر المملوكي من جانب آخر[6].

- **لغة التكرور:** فعلى الرغم من العلاقات الثقافية والدينية والاقتصادية الوطيدة بين المماليك والتكرور[7] إلا أن المصادر لم تذكر معلومات موضحة عن لغة التكرور عامة أو عن لغة مراسلاتهم مع المماليك بشكل خاص، إلا أن هناك إشارات إلى وجود ترجمان للغة التكرور في الدولة المملوكية [8].

وختاماً فإن حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكي قد أدت دوراً إيجابياً كبيراً، حيث ساهمت هذه الحركة في وقف زحف اللغات الأعجمية على

(1) العمري، مسالك الأبصار: 25/4؛ وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى:305/5؛ المقريزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام:14 (طبعة أوروبا).

(2) القلقشندي، صبح الأعشى:119/8.

(3) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور:170-173.

(4) ابن إياس، بدائع الزهور: 206/3.

(5) المقريزي، الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام: 9-11.

(6) انظر: Suriano, Treatise on the Holy Land,P.90.

(7) انظر: العمري، التعريف بالمصطلح الشريف: 35-37؛ القلقشندي، صبح الأعشى: 111-115/8.

(8) انظر: المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك:112-113، وانظر: Levtzion, "mamluk Egypt and Takrur (west Africa)" P. 184.

اللغة العربية، التي فقدت مكانتها لغة علمية وإدارية في مشرق العالم الإسلامي حتى العراق نفسه الذي يُعد من أمنع حصون العربية تلاشت هذه اللغة عنه تماماً، وذلك ما عبّر عنه ابن خلدون بقوله:"وفسدت اللغة العربية على الإطلاق، ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق وخرسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم... وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق لها أثر ولا عين حتى إن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي، وكذا تدريسه في المجالس" [1].

وقد بقي كثير من سلاطين المماليك وأمرائهم مخلصين للغتهم التركية مقدمين لمن يعرفها ويتكلم بها[2]، بل إن بعضاً من سلاطينهم: "كان فصيحاً باللغة التركية وباللغة العربية لا بأس به" [3].

وفوق ذلك فإن الهجرة الجماعية لطوائف المغول والأكراد والأتراك والجراكسة لأرض الدولة المملوكية كانت خطراً على العربية، مما حدا بكثير من اللغويين إلى التباري في تأليف المعاجم الأعجمية[4].

وفي ضوء ما تقدم فإن الباحث يدرك أهمية حركة الترجمة والتعريب، ولولا ذلك لتغلبت لغة الأتراك على العربية، وتحولت لغة الإدارة والحكم إلى اللغة التركية.

وقد ساهمت حركة الترجمة في ديوان الإنشاء المملوكي في نقل كثيرٍ من مصطلحات الكتابة وأساليبها ومصطلحاتها العربية إلى دواوين الإنشاء المغولية والتركية[5] والفارسية[6].

(1) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون:380.

(2) انظر ابن إياس، بدائع الزهور:374/4، 88/5-89.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة:458/15.

(4) انظر ابن منظور، لسان العرب (المقدمة).

(5) انظر: فريدون بيك، مجموعة منشئات السلاطين: 190/1-214، 238-244، 327: وانظر: سامي، قاموس تركي: 24/1، 38، 72، 84، 94، 111، 121، 136-137، 140، 157، 166، 391، 392، 395، 415، 446، 662، 444، 678، 708، 710، 724، 457، 778: 830/2، 878، 910، 928-929، 946، 997، 998، 1005، 1024، 1028، 1041، 1136، 1139، 1124، 1240، 1241، 1276، 1280، 1298، 1324، 1333، 1341، 1356، 1358، 1362، 1262، 1368، 1373، 1389، 1394، 1402، 1404، 1407، 1415، 1416، 1428، 1431، 1548.

(6) انظر حسن أنوري، اصطلاحات ديواني:32،32، 33، 56-57، 92-93، 131، 135، 141-181..

تأثير الدولة السلجوقية على تحول الامبراطورية البيزنطية

لقد كان نصر ألب أرسلان بجيشه الذي لم يتجاوز خمسة عشر ألف محارب على جيش الإمبراطور دومانوس الذي بلغ مائتي ألف، حدثاً كبيراً، ونقطة تحول في التاريخ الإسلامي لأنها سهلت على أضعاف نفوذ الروم في معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهي المناطق المهمة التي كانت من ركائز وأعمدة الإمبراطورية البيزنطية، وهذا ساعد تدريجياً للقضاء على الدولة البيزنطية على يد العثمانيين.

لقد كان ألب أرسلان رجلاً صالحاً أخذ بأسباب النصر المعنوية والمادية، فكان يقرب العلماء ويأخذ بنصحهم وما أروع نصيحة العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي، في معركة ملاذكرد عندما قال للسلطان ألب أرسلان: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين.

فلما كان تلك الساعة صلى بهم، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا فأمنوا، فقال لهم من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههُنا سلطان يأمر ولا ينهى، وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنط وقال: إن قتلت فهذا كفني[1] الله أكبر على مثل هؤلاء ينزل نصر الله.

وقتل هذا السلطان على يد أحد الثائرين واسمه يوسف الخوارزمي وذلك يوم العاشر من ربيع الأول عام 465هـ الموافق 1072م ودفن في مدينة مرو بجوار قبر أبيه فخلفه أبنه ملكشاه[2].

أولاً: شيء من أخلاق السلطان ألب أرسلان:

(كان رحيم القلب، رفيقاً بالفقراء وكثير الدعاء بدوام ما أنعم الله عليه، اجتاز يوماً بمرو على فقراء الخرائسين، فبكى، وسأل الله تعالى أن يغنيه من فضله

(1) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، حوادث ووفيات 461،470، ص2.
(2) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص21.

وكان يكثر الصدقة، فيتصدق في رمضان بخمسة عشر ـ ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء في جميع ممالكه، عليهم الإدرارات والصلات، ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنة دفعتين رفقاً بهم)[1].

كتب إليه بعض السعاة في شأن وزيره نظام الملك وذكروا ماله في ممالكه فاستدعاه فقال: خذ إن كان هذا صحيحاً فهذب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كان كذبوا فأغفر له زلته، الحرص على حفظ مال الرعايا، بلغ أن غلاماً من غلمانه أخذ إزاراً لبعض أصحابه فصلبه فارتدع سائر المماليك خوفاً من سطوته[2].

وكان كثيراً ما يُقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولمّا اشتهر بين الملوك حُسن سيرته، ومحافظته على عهوده، أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النهر إلى أقاصي الشام[3].

ثانياً: ملكشاه وفشله في توحيد الخلافة والسلطنة:

تولى السلطنة بعد ألب أرسلان ابنه ملكشاه وعارضه عمه قاورد بن جفري حاكم سلاجقة كرمان وطالب بالسلطنة ووقع الصدام بينهما قرب همذان حيث انهزم قارود وقتل وبذلك سيطر ملكشاه على دولة سلاجقة كرمان عين عليها سلطان شاه بن ألب أرسلان سنة 465هـ/1073م.

واتسعت الدولة السلجوقية في عهد السلطان ملكشاه لتبلغ أقصى ـ امتداد لها من أفغانستان شرقاً إلى آسيا الصغرى غرباً وبلاد الشام جنوباً، وذلك بعد أن سقطت دمشق على يد قائده أتسز سنة 468هـ/1075م، وأقيمت الدعوة للخليفة العباسي.

وأسند ملكشاه المناطق التي سيطر عليها في بلاد الشام، لأخيه تاج الدولة تتمش سنة 470هـ/1077م، وذلك من أجل متابعة الفتح، فأسس هذا الأخير دولة

(1) الكامل لابن الأثير (252/6).
(2) انظر: البداية والنهاية (114/12).
(3) الكامل لابن الأثير (253/6).

سلاجقة الشام كما عين ملكشاه أحد أقاربه ويدعى سليمان بن قتلمش بن إسرائيل والياً على آسيا الصغرى التي كانت تتبع بلاد الروم، لمتابعة الفتح سنة 470هـ/1077م، فأسس هذا أيضاً دولة سلاجقة الروم[1] وقد استمرت هذه الدولة 224 سنة، ليتعاقب على حكمها أربعة عشر من سليلة أبي الفوارس قتلمش بن إسرائيل، وكان أولهم سليمان بن قتلمش الذي يعتبر مؤسس هذه الدولة[2] وقد تمكن من فتح انطاكية سنة 477هـ/1084م، كما تمكن أبنه داود من السيطرة على قونية سنة 480هـ/1087م ليتخذها عاصمة له، وكانت قونية من أغنى وأجمل المدن البيزنطية في آسيا الصغرى؛ وقد حولها السلاجقة من مدينة بيزنطية مسيحية إلى مدينة سلجوقية إسلامية، وقد سقطت هذه الدولة على يد المغول سنة 700هـ/1300م[3] وأصبحت فيما بعد من أملاك الدولة العثمانية.

لقد كان سلاجقة الروم حريصين على تتريك آسيا الصغرى ونشر الإسلام فيها على المذهب السنّي وكانوا سبباً في نقل الحضارة الإسلامية إلى تلك الأقاليم، واسقطوا الخط الدفاعي الذي كان يحمي المسيحية من أوروبا ضد الإسلام في الشرق[4].

ورغم هذه السلطنة القوية زمن ملكشاه، لم يفلح قائده أتسز في توحيد بلاد الشام ومصر، بعد أن شكل السلاجقة تهديداً فعلياً للدولة العبيدية (الفاطمية) داخل مصر.

وعندما أراد أتسز غزو مصر، حلت به الهزيمة على يد قوة من العرب، قبل مواجهة الجيش الكبير الذي أعده الوزير بدر الجمالي في رجب 469هـ/1076م، وقد أدى فشل أتسز إلى مزيد من التشرذم، والتمزق السياسي والصراع الدامي، لينتهي الأمر بمقتله سنة 471هـ/1078م[5].

كذلك لم يفلح ملكشاه في جعل الخلافة العباسية تتحول إلى أسرته السلجوقية، عندما زوج ابنته إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله سنة 480هـ/1087م، فرزقت منه بولد، كما زوج أبنته الأخرى إلى المستظهر العباسي، ولم

(1) انظر: السلاطين في المشرق العربي، ص28.
(2) المصدر السابق، ص29.
(3) انظر: السلاطين في المشرق العربي، ص29.
(4) المصدر السابق نفسه، ص29.
(5) انظر: مرآة الزمان، سبط ابن الجوزي، ص182.

يتمكن من حصر الخلافة والسلطنة في شخص حفيده[1].

وفاته:

توفي السلطان ملكشاه وانتهى دور القوة والمجد (447-485هـ/1055-1092م) الذي عرفته الدولة السلجوقية في عهد السلاطين الثلاثة، طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه، لتبدأ مرحلة الضعف والصراع ولقد ظهر في زمن ألب أرسلان وملكشاه الوزير نظام الملك الذي يهمنا معرفة سيرته ودروه في قوة الدولة السلجوقية.

ثالثاً: نظام الملك:

قال عنه الذهبي: (الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو علي الحسن بن علي ابن إسحاق الطوسي، عاقل، سائس، خبير، سعيد، متدين، محتشم، عامر المجلس بالقرّاء والفقهاء.

أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب في العلم، وأدرّ على الطلبة الصلات، وأملى الحديث، وبعد صيته)[2].

تنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه، فدبر ممالكه على أتم ما ينبغي، وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبني الوقوف، وهاجرت الكبار إلى جانبه[3].

وأشار على ملكشاه بتعيين القواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة وظهرت آثار تلك السياسة فيما بعد ومن هؤلاء القواد الذين وقع عليهم الاختيار آق سنقر جد نور الدين محمود، الذي ولي على حلب وديار بكر والجزيرة قال عنه ابن كثير: (من أحسن الملوك سيرة وأجودهم سريرة)[4] وقام ولده عمادالدين زنكي ببداية الجهاد ضد الصليبيين، ثم قام من بعده نور الدين محمود، هذه الأسرة هي التي

(1) انظر: السلاطين في المشرق العربي، ص30.
(2) سير أعلام النبلاء (94/19).
(3) المصدر السابق (95/19).
(4) البداية والنهاية (157/12).

وضعت الأساس لانتصارات صلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ضد الصليبيين، وافتتحت عهد التوحيد والوحدة في العالم الإسلامي[1].

وكذلك كان آق سنقر البرسقي من قواد السلطان محمود السلجوقي، وكان أميراً للموصل، واشتغل بجهاد الصليبيين، وفي سنة 520هـ قتله الباطنيون، وهو يصلي في الجامع الكبير في الموصل، قال عنه ابن الأثير: "وكان مملوكاً تركياً خيراً، يحب أهل العلم والصالحين ويرى العدل ويفعله، وكان خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويصلي من الليل متهجداً"[2].

ويحدثنا المؤرخ ابوشامة من آثار السلاجقة لاسيما في زمن نظام الملك: (فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة النظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها)[3].

ضبطه لأمور الدولة:

لما تولى ملكشاه أمور الدولة انفلت أمر العسكر وبسطوا أيديهم في أموال النَّاس، وقالوا ما يمنع السلطان أن يعطينا الأموال إلا نظام الملك، وتعرض الناس لأذى شديد، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان، فبين له ما في هذا الفعل من الضعف، وسقوط الهيبة، والوهن، ودمار البلاد، وذهاب السياسة، فقال له: أفعل في هذا ماتراه مصلحة! فقال له نظام الملك: ما يمكنني أن افعل إلا بأمرك فقال السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد؛ وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ماكان، وخلع عليه، ولقبه ألقاباً من جملتها: أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهرت من كفايته، وشجاعته، وحسن سيرته ما أثلج صدور الناس، فمن ذلك أن امرأة ضعيفة استغاثت به، فوقف يكلمها وتكلمه، فدفعها بعض حجّابه، فأنكر ذلك عليه وقال: إنما استخدمتك لأمثال هذه، فإن الأمراء والاعيان لاحاجة لهم إليك، ثم صرفه عن حجابته[4].

(1) انظر: أيعيد التاريخ نفسه، ص68.
(2) الكامل (633/10) نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه، ص68.
(3) الروضتين في أخبار الدولتين (31/1) نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه.
(4) انظر: الكامل لابن الأثير (256/2).

حبه للعلم واحترامه للعلماء وتواضعه:

كان يحب العلم وخصوصاً الحديث، شغوفاً به وكان يقول: إني أعلم بأني لست أهلاً للرواية ولكني أحب أن أربط في قطار[1] نقلة حديث رسول الله ﷺ[2]، فسمع من القشيري، أبي مسلم بن مهر بزد، وأبي حامد الأزهري[3].

وكان حريصاً على أن تؤدي المدارس التي بناها رسالتها المنوطة بها فعندما أرسل إليه أبو الحسن محمد بن علي الواسطي الفقيه الشافعي أبيات من الشعر يستحثه على المساعة للقضاء على الفتن التي حدثت بين الحنابلة والأشاعرة قام نظام الملك وقضى على الفتنة ومما قاله ابو الحسن الواسطي من الشعر:

يا نظــام الملك قد حــلّ	ببغـــداد النظـــــام
وابنك القاطـــن فيهـــا	مستهـــان مستضـــام
وبهـــا أودى له قتلـــى	غـــلام، وغـــــلام
والذي منهـــم تبقـــي	سالمـــاً فيه سهـــام
يا قـــوام الدين لـــم	يبقى ببغـــدا مقـــام
عظُـــم الخطبُ وللحرب	اتصـــــال ودوام
فمتى لم تحسم الـــداء	أياديـــك الحســـام
ويكف القـــوم فـــي	بغـــداد قتل وانتقـــام
فعلى مـــدرسة فيهـــا	ومـــن فيها الســـلام
واعتصـــام بحَريـــم	لك من بعـــدُ حـــرام[4]

لقد كان مجلسه عامراً بالفقهاء والعلماء، حيث يقضي معهم جُلّ نهاره، فقيل له: (إن هؤلاء شغلوك عن كثير من المصالح، فقال: هؤلاء جمال الدنيا والآخرة، ولو أجلستهم على رأسي لما استكثرت ذلك، وكان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري وأبو المعالي الجويني قام لهم وأجلسهما معه في المقعد، فإن دخل أبو علي الفارندي قام وأجلسه مكانه، وجلس بين يديه، فعوتب في ذلك فقال: إنهما إذا دخلا عليّ قال:

(1) قطار: قافلة.

(2) انظر: البداية والنهاية (150/12).

(3) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (95/19).

(4) انظر: الكامل (276/6).

أنت وأنت، يطروني ويعظموني، ويقولوا فيّ مالا فيّ، فأزداد بهما ما هو مركوز في نفس البشر، وإذا دخل عليّ أبوعلي الفارندي ذكرني عيوبي وظلمي، فأنكسر فأرجع عن كثير مما أنا فيه...)[1].

قال عنه ابن الأثير: (وأما أخباره، فإنه كان عالماً، ديناً، جواداً، عادلاً، حليماً، كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقرّاء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح...)[2].

كان من حفظة القرآن، ختمه وله إحدى عشرة، واشتغل بمذهب الشافعي، وكان لا يجلس إلا على وضوء، وما توضأ إلا تنفّل[3]، وإذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه، فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة وكان، إذا غفل المؤذن ودخل الوقت فأمره بالأذان، وهذا قمة حال المنقطعين للعبادة في حفظ الأوقات، ولزوم الصلوات[4]، وكانت له صلة بالله عظيمة وقال ذات مرة: رأيت ليلة في المنام إبليس فقلت له: ويحك خلقك الله وأمرك بالسجود له مشافهة فأبيت، وأنا لم يأمرني بالسجود له مشافهة وأنا أسجد له في كل يوم مرات، وأنشأ يقول:

من لم يكن للوصال أهلاً

فكلّ إحسانه ذنوب[5]

وكان يتمنى أن يكون له مسجد يعبد الله فيه، ومكفول الرزق قال في هذا المعنى: كنت أتمنى أن يكون لي قرية خالصة، ومسجد أتفرد فيه لعبادة ربي، ثم تمنيت بعد ذلك أن يكون لي رغيف كل يوم، ومسجد أعبد الله فيه[6].

ومن تواضعه انه كان ليلة يأكل الطعام، وبجانبه أخوه أبو القاسم، وبالجانب الآخر عميد خُراسان، والى جانب العميد إنسان فقير، مقطوع اليد، فنظر

(1) البداية والنهاية (150/12).
(2) الكامل (337/6).
(3) انظر: سير أعلام النبلاء (96/19).
(4) انظر: الكامل (337/6).
(5) البداية والنهاية (150/12).
(6) انظر: الكامل (338/6).

نظام الملك فرأى العميد يتجنب الأكـل مـع المقطـوع، فـأمره بالانتقـال إلى الجانـب الآخر، وقرّب المقطوع إليه فأكل معه.

وكانت عادته أن يحضر الفقراء طعامه ويقربهم إليه، ويدنيهم[1].

ومن شعره:

بعد الثمانين ليس قُوة

قد ذهبت شهوة الصًّبوة

كأنني والعصا بكّفي

موسى ولكن بلا نُبُوَّة[2]

وينسب إليه أيضاً:

تقوس بعد طول العُمر ظهري

وداستني الليالي أيَّ دَوْسِ

فأمسي والعصا تمشي أمامي

كأن قوامها وتر بقوسِ

وكان يتأثر بسماع الشعر فعندما دخـل عليـه أبـوعلي القومَسَـاني في مرضـةٍ مرضها، يعوده فأنشأ يقول:

إذا مرضنا نوَينا كل صالحةٍ

فإن شفينا فمنا الزيغ والزَّلَلُ

(1) نفس المصدر السابق.

(2) تاريخ الإسلام حوادث ووفيات 481-490/ ص147.

نرجو الإله إذا خفنا ونسخطه

إذا أمنا فما يزكو لنا عمل

فبكى نظام الملك وقال: هو كما يقول[1].

وفاته:

في عام 485هـ من يوم الخميس، في العاشر من شهر رمضان وحان وقت الإفطار، صلىّ نظام الملك المغرب، وجلس على السِّماط، وعنده خلق كثير من الفقهاء، والقرّاء، والصوفية، وأصحاب الحوائج، فجعل يذكر شرف المكان الذي نزلوه من أراضي نهاوند، وأخبار الوقعة التي كانت بين الفرس والمسلمين، في زمان أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب ﷺ، ومن استشهد هناك من الأعيان، ويقول: طوبى لمن لحق بهم.

فلما فرغ من إفطاره، خرج من مكانه قاصداً مَضْرِب حَرَمه فبدر إليه حدث ديلميّ، كأنه مُستميح، أو مستغيث، فعلق به، وضربه، وحمل إلى مضرب الحرم.

فيقال: إنه أول مقتول قتلته الإسماعيلية (الباطنية)، فأنبث الخبر في الجيش، وصاحت الأصوات، وجاء السلطان ملكشاه حين بلغه الخبر، مظهراً الحزن، والنحيب والبكاء وجلس عند نظام الملك ساعة، وهو يجُود بنفسه، حتى مات، فعاش سعيداً، ومات شهيداً فقيداً حميداً[2].

وكان قاتله قد تعثر بأطناب الخيمة، فلحقه مماليك نظام الملك وقتلوه.

وقال بعض خدامه: كان آخر كلام نظام الملك أن قال: لا تقتلوا قاتلي، فإني قد عفوت عنه وتشهد ومات[3].

(1) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (328/4).
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (322،323/4).
(3) نفس المصدر السابق (323/4).

ولما بلغ أهل بغداد موت نظام الملك حزنوا عليه، وجلـس الـوزير والرؤسـاء للعزاء ثلاثة أيام ورثاه الشعراء بقصائد، منهم مقاتل بن عطية حيث قال:

كان الوزير نظامُ الملكِ لؤلؤة

يتيمة صاغها الرحمن من شرفٍ

عزَّت فلم تعرفِ الأيامُ قيمتها

فرَّدها غيره منه إلى الصـــدف[1]

قال عنه ابن عقيل: بهر العقول سـيرة النظـام جـوداً وكرمـاً وعـدلاً، وإحيـاءً لمعالم الدين، كانت أيامه دولة أهل العالم، ثم ختم له بالقتل وهـو مـارٌّ إلى الحـج في رمضان فمات ملكاً في الدنيا، ملكاً في الآخرة، رحمه الله[2].

(1) البداية والنهاية، (151/12).
(2) نظر: سير أعلام النبلاء، (96/19).

المبحث الأول

نهاية الدولة السلجوقية

كان للسلطان ملكشاه عند وفاته أربعة أبناء هم بركيارق ومحمد وسنجر ومحمود، وكان محمود، والذي عرف فيما بعد بناصر الدين محمود، طفلاً فبايعوه على تولي السلطة لأن أمه تركان خاتون، كانت ذات شأن كبير أيام ملكشاه، وقد استمر حكمه حوالي العامين من 485هـ/1092م وإلى عام 487هـ/1094م، حيث توفي هو وأمه، ثم جاء من بعده ركن الدين أبو المظفر بركيارق بن ملكشاه، واستمر حكمه حتى عام 498هـ/1105م، ثم تلاه ركن الدين مكلشاه الثاني وفي نفس العام تولى السلطة غياث الدين أبو شجاع محمد، واستمر حكمه حتى عام 511هـ/1128م وكان آخر حكام الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر والتي كانت لها السيطرة على خراسان وإيران والعراق، وقد انقرضت دولتهم عام 522هـ/1128م وذلك على يد شاهنات خوارزم[1]، وبسقوط الدولة السلجوقية العظمى فيما وراء النهر انفرط عقد السلاجقة وتمزقت وحدتهم، وضعفت قوتهم، حتى أصبح السلاجقة شيعاً وأحزاباً ومعسكرات متباينة، تتصارع فيما بينها، حول الظفر بالعرش، وانقسمت على ضوء ذلك الدولة السلجوقية العظمى الى عدة دول وإمارات صغيرة، ولم تكن هذه الدولة والإمارات الصغيرة تخضع لحكم سلطان واحد كما كان الحال في عهد كل من السلطان طغرلبك الأول والسلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه وأسلافهم، بل كان كل جزء من أجزاء الدولة السلجوقية مستقلاً تحت قيادة منفصلة، لا يوجد بينها أي تعاون يذكر[2].

ونتيجة لذلك خرجت الدولة الخوارزمية فيما وراء النهر وهي تلك الدولة التي وقفت ردحاً من الزمن أمام الهجمات المغولية وقد قامت معها إمارات سلجوقية في شمال العراق والشام عرفت بالأتابكيات، وأثناء ذلك برزت سلطنة سلاجقة الروم، وهي السلطنة التي قاومت الحملات الصليبية، واستطاعت أن تحصرها في الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى، أما سلطنة سلاجقة الروم فقد دمرتها الغارات المغولية المتلاحقة.

(1) انظر: تاريخ دولة آل سلجوق لمحمد الاصبهاني، ص81-154.

(2) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص23.

لقد تضافرت عوامل عديدة في سقوط السلطنة السلجوقية التي مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية.

ومن هذه العوامل:

1. الصراع داخل البيت السلجوقي بين الأخوة والأعمام والأبناء والأحفاد.
2. تدخل النساء في شؤون الحكم.
3. إذكاء نار الفتنة بين الحكام السلاجقة من قبل بعض الأمراء والوزراء والأتابك.
4. ضعف الخلفاء العباسيين الذين تميزوا بالضعف أمام القوة العسكرية السلجوقية، فلم يتورعوا عن الاعتراف بشرعية كل من يجلس على عرش السلطنة السلجوقية والخطبة لكل منتصر قوي[1].
5. عجز الدولة السلجوقية عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق تحت راية الخلافة العباسية.
6. الانقسام الداخلي بين السلاجقة والذي وصل إلى حد المواجهة العسكرية المستمرة، وهذا ما أنهك قوة السلاجقة حتى انهارت سلطنتهم في العراق.
7. المكر الباطني الخبيث بالدولة السلجوقية وتمثل ذلك في حملة التصفيات والمحاولات المستمرة لاغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقاداتهم.
8. الغزو الصليبي القادم من وراء البحار وصراع الدولة السلجوقية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوروبا وغير ذلك من الأسباب والعوامل إلا أن السلاجقة كانت لهم أعمال جليلة من أهمها:

أ. كان لهم دور في تأخير زوال الخلافة العباسية، حوالي قرنين من الزمان، حيث أوشكت قبل مجيئهم على الانقراض في ظل سيطرة البويهين الشيعة الروافض.

ب. منعت الدولة السلجوقية الدولة العبيدية في مصر من تحقيق اغراضها الهادفة الى توحيد المشرق العربي الاسلامي تحت الراية الباطنية العبيدية الرافضية.

ج. كانت الجهود التي بذلتها الدولة السلجوقية تمهيداً لتوحيد المشرق الاسلامي والذي تم على يد صلاح الدين الأيوبي وتحت راية الخلافة العباسية السنيّة[2].

(1) انظر: السلاطين في المشرق العربي، ص50.

(2) انظر: السلاطين في المشرق العربي، ص51.

د. قام السلاجقة بدور ملموس في النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علمياً وإدارياً ونشروا الأمن والاستقرار فيها.

ه. وقفوا في وجه التحركات الصليبية من جانب الإمبراطورية البيزنطية، وحاولوا صد الخطر المغولي إلى حد كبير.

و. رفعوا من شأن المذهب السني وعلمائه في تلك المناطق[1].

هذه نبذة موجزة عن السلاجقة السنيين ودورهم في نصرة الإسلام، وإن من الظلم والزور والبهتان أن نطلق على أولئك الشجعان كلمة الشراذم كما فعل الأستاذ نجيب زبيب في الموسوعة العامة في لتاريخ المغرب والأندلس[2].

قيام الدولة العثمانية وفتوحاتها

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيزخان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر في عام 617هـ الموافق 1220م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فأستقر في مدينة اخلاط[3] ثم بعد وفاته في عام 628هـ الموافق 1230م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل، والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول، وكان معه حوالي مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس[4] وحين كان ارطغرل والد عثمان فاراً بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها أربعمائة عائلة، من ويلات الهجمة المغولية، فإذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين مسلمين ونصارى وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطي، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة أخوانه في الدين والعقيدة، فكان ذلك التقدم سبباً في نصر المسلمين على النصارى[5] وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش الإسلامي السلجوقي هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته، فأقطعهم أرضاً في الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم[6]، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب

(1) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص24.

(2) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، (10/3).

(3) أخلاط مدينة في شرق تركيا الحالية قريبة من بحيرة وآن في ارمينيا.

(4) انظر: قيام الدولة العثمانية، ص26.

(5) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين، زياد أبو غنيمة، ص36.

(6) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمري، ص353.

الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفاً قوياً ومشاركاً في الجهاد ضد الروم، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم في العقيدة والدين، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، حتى إذا توفي سنة 699هـ-1299م [1] خلفه من بعده في الحكم ابنه عثمان الذي سار على سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم[2].

أولاً: عثمان مؤسس الدولة العثمانية

في عام 656هـ/1258م ولد لارطغرل ابنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية(3) وهي السنة التي غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت الأحداث عظيمة، والمصائب جسيمة، يقول ابن كثير: "ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الحانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم[4].

لقد كان الخطب عظيم والحدث جلل، والأمة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها ولذلك سلط عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخربوا الديار، في تلك الظروف الصعبة والوهن المستشري في مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية، وهنا معنى لطيف ألا وهو بداية الأمة في التمكين هي أقصى نقطة من الضعف والانحطاط تلك هي بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكين، إنها حكمة الله وإرادته ومشيئته النافذة.

(1) تاريخ سلاطين آل عثمان تحقيق بسام الجابي للقرماني، ص10.
(2) انظر: تاريخ الدولة العلية ص115 محمد فريد.
(3) انظر: السلطان محمد الفاتح، ص12، عبد السلام عبد العزيز، ص12.
(4) البداية والنهاية (192،193/13).

قال تعالى:{إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبنائهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين} (سورة القصص:3).

وقال سبحانه وتعالى: {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض} (القصص، آية: 5،6).

ولاشك أن الله تعالى قادر على أن يمكن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها، بل في طرفة عين قال تعالى: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون..} (النحل: 40).

فلا يستعجل أهل الحق موعود الله عز وجل لهم بالنصر والتمكين، فلابد من مراعاة السنن الشرعية والسنن الكونية، ولابد من الصبر على دين الله عز وجل: {ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض} (سورة محمد: 4).

والله إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة.

وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان الذي ولد في عام سقوط الخلافة العباسية في بغداد.

أولاً: أهم الصفات القيادية في عثمان الأول:

عندما نتأمل في سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصلة في شخصيته كقائد عسكري، ورجل سياسي، ومن أهم هذه الصفات:

1. **الشجاعة:** عندما تنادى أمراء النصارى في بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله البيزنطيون في عام 700هـ/1301م لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية واستجابت النصارى لهذا النداء وتحالفوا للقضاء على الدولة الناشئة تقدم عثمان بجنوده وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية وظهرت منه بسالة وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين[1].

(1) انظر: جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، ص197.

2. **الحكمة:** بعد ما تولى رئاسة قومه رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين صاحب دولة سلاجقة الروم، وسمح له سك العملة باسمه، مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحته[1].
3. **الإخلاص:** عندما لمس سكان الأراضي القريبة من إمارة عثمان أخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سداً منيعاً أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين[2].
4. **الصبر:** وظهرت هذه الصفة في شخصيته عندما شرع في فتح الحصون والبلدان، ففتح في سنة 707هـ حصن كته، وحصن لفكه، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار، وفي سنة 712هـ فتح حصن كبوه وحصن يكيجه طرا قلوا، وحصن تكرر بيكارى وغيرها وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسة في عام 717هـ/1317م، وذلك بعد حصار شديد دام عدة سنوات، ولم يكن فتح بروسة من الأمور السهلة بل كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته، حيث حدثت بينه وبين قائد حاميتها اقرينوس صراع شديد استمر عدة سنوات حتى استسلم وسلم المدينة لعثمان، قال تعالى:{يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون} (سورة آل عمران: 200).
5. **الجاذبية الإيمانية:** وتظهر هذه الصفة عندما احتك به اقرينوس قائد بروسه واعتنق الإسلام أعطاه السلطان عثمان لقب (بك) وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه الذي سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم[3]، بل أن كثيراً من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة (غزياروم) أي غزاة الروم، وهي جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي، وقد أعطتها هذه المرابطة خبرات في جهاد الروم عمقت فيها انتماءها للإسلام والتزامها بكل ما جاء به الإسلام من نظام، وجماعة (الإخيان) (أي الأخوان) وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة وكان

(1) انظر: قيام الدولة العثمانية ص25.
(2) انظر: قيام الدولة العثمانية ص26.
(3) المصدر السابق نفسه، ص28.

معظم أعضاء هذه الجماعة من كبار التجار الذي سخروا أموالهم للخدمات الإسلامية مثل: إقامة المساجد والتكايا و"الخانات" الفنادق، وكانت لهم في الدولة مكانة عالية، ومن هذه الجماعة علماء ممتازون عملوا في نشر الثقافة الإسلامية وحببوا الناس في التمسك بالدين، وجماعة (حاجيات روم) أي حجاج أرض الروم، وكانت جماعة على فقه بالإسلام، ومعرفة دقيقة لتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عموماً والمجاهدين خصوصاً وغير ذلك من الجماعات[1].

6. **عدله:** تروي معظم المراجع التركية التي أرّخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدولة العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين في عام 684هـ/1285م وأن عثمان حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي، فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان: كيف تحكم لصالحي وأنا على غير دينك، فأجابه عثمان: بل كيف لا أحكم لصالحك، والله الذي نعبده، يقول لنا: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل} (سورة النساء) وكان هذا العدل الكريم سبباً في اهتداء الرجل وقومه الى الإسلام[2].

إن عثمان الأول استخدم العدل مع رعيته وفي البلاد التي فتحها، فلم يعامل القوم المغلوبين بالظلم أو الجور أو التعسف أو التجبر، أو الطغيان، أو البطش وإنما عاملهم بهذا الدستور الرباني: {أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً۞ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً} (سورة الكهف: آية: 87،88)، والعمل بهذا الدستور الرباني يدل على إيمان وتقوى وفطنة وذكاء وعلى عدل وبر ورحمة.

7. **الوفاء:** كان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود، فعندما اشترط أمير قلعة اولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني، أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده[3]، قال تعالى {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤلا} (سورة الإسراء:آية).

(1) انظر: التراجع الحضاري في العالم الإسلامي د. علي عبد الحليم، ص331،332.
(2) انظر: جوانب مضيئة ص32.
(3) المصدر السابق نفسه، ص33.

8. **التجرد لله في فتوحاته:** فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك، بل كان فرصة تبليغ دعوة الله ونشر دينه ولذلك وصفه المؤرخ احمد رفيق في موسوعته (التاريخ العام الكبير) بأنه (كان عثمان متديناً للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس وكان مالكاً لفكر سياسي واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حباً في السلطة وإنما حباً في نشر الإسلام) [1].

ويقول مصر اوغلو: "لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف"[2].

هذه بعض صفات عثمان الأول والتي كانت ثمرات طبيعية لإيمانه بالله تعالى والاستعداد لليوم الآخر، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر والعصيان وحبه العميق للجهاد في سبيل الله والدعوة إليه ولذلك كان عثمان في فتوحاته يطلب من أمراء الروم في منطقة آسيا الصغرى أن يختاروا أحد ثلاثة أمور هي الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب، وبذلك أسلم بعضهم، وانضم إليه البعض الآخر وقبلوا دفع الجزية، أما ما عداهم فقد شن عليهم جهاداً لا هوادة فيه فانتصر عليهم، وتمكن من ضم مناطق كبيرة لدولته.

لقد كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده عثمان، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة إلى الله، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى وكان حريصاً على الأعمال

(1) انظر: جوانب مضيئة ص33.
(2) المصدر السابق نفسه، ص33.

الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معادياً لأهل الكفران.

ثانياً: الدستور الذي سار عليه العثمانيون:

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، جهاداً ودعوة في سبيل الله وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد يقول عثمان في وصيته: (يا بني: إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين مؤئلاً.

يا بني: أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة.

يا بني: إنك تعلم أن غايتنا هي أرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضات الله جل جلاله.

يا بني: لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل)[1].

وفي كتاب (التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية) تجد رواية أخرى للوصية: (اعلم يا بني، أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها)[2].

وفي كتاب مأساة بني عثمان نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول: (يا بني، أنني أنتقل إلى جوار ربي، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية، مجاهداً في سبيل الله، لنشر دين الإسلام.

(1) العثمانيون في التاريخ والحضارة، د.محمد حرب، ص16.

(2) انظر: جوانب مضيئة، ص21.

يا بني، أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم، وأكثر مـن تبجـيلهم، وانـزل عـلى مشورتهم، فإنهم لا يأمرون إلا بخير.

يا بني، إياك أن تفعل أمراً لا يـرضى الله عـز وجـل، وإذا صـعب عليـك أمـر فاسأل علماء الشريعة، فأنهم سيدلونك على الخير.

واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريـق الله، وأن مقصـدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا)[1].

وفي التاريخ العثماني المصور، عبارات أخرى من وصية عثمان تقول: (وصيتي لأبنائي وأصدقائي، أديموا علوا الـدين الإسـلامي الجليـل بإدامـة الجهـاد في سـبيل الله، أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد، أخدموا الإسلام دائماً؛ لان الله عز وجل قد وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلـدان، اذهبـوا بكلمـة التوحيـد إلى أقصى- البلدان بجهادكم في سبيل الله ومن انحرف من سلالتي عن الحق والعـدل حـرم مـن شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر.

يا بني: ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبته للموت وقد اقترب أجلي بأمر الله جـل جلالـه أسـلمك هـذه الدولـة واسـتودعك المـولى عـز وجـل، اعـدل في جميـع شؤونك....)[2].

لقد كانـت هـذه الوصـية منهجـاً سـار عليـه العثمانيـون، فـاهتموا بـالعلم وبالمؤسسـات العلميـة وبـالجيش، وبالمؤسسـات العسـكرية، وبـالعلماء واحـترامهم، وبالجهاد الذي أوصل فتوحاً إلى أقصى مكان وصلت إليه رايته جيش مسلم وبالإمارة وبالحضارة)[3].

(1)انظر: جوانب مضيئة، ص3.
(2) انظر: السلاطين العثمانيون، ص33.
(3) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص26.

ونستطيع أن نستخرج الدعائم والقواعد والأسس التي قامت الدولة العثمانية من خلال تلك الوصية:

1) (يا بني إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين):

إنها دعوة إلى الالتزام بشرع الله في كل صغيرة وكبيرة، وبحيث يكون حكم الله وأمره مهيمناً على كل شيء قال تعالى: {إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون} (سورة يوسف: آية40).

يعني: (ما الحكم الحق في الربوبية والعقائد والمعاملات إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة)[1] لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى قال سبحانه: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله} (سورة النساء: آية 105) فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من إنزاله[2].

إن عثمان يوصي أبنه كحاكم من بعده لدولة إسلامية أن يتقيد بحكم الله في أعماله، لأنه يعلم أن إقامة حكم الله من خلال الحاكم المسلم عهد وميثاق ذكره الله تعالى: {واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به، إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور} (سورة المائدة: 7)، فهذا تذكير من الله تعالى لعباده المؤمنين بنعمته عليهم في الشرع الذي شرعه لهم في هذا الدين العظيم، المرسل به الرسول الكريم، وأخذ للعهد والميثاق عليهم في متابعته ونصرته وإبلاغه والقيام به، وهذا مقتضى البيعة التي كان الصحابة يبايعون عليها رسول الله ﷺ، على السمع والطاعة في المنشط والمكره، كما أن الإخلال بعهد الحاكمية جاهلية قال تعالى: {أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون} (سورة المائدة: 50)، ففي الآية الكريمة إنكار وتوبيخ وتعجب من حال من يتولى عن حكم الله وهو يبغي حكم غيره والآية تعبير لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التي هي هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحي[3].

(1) تفسير المنار (309/12).

(2) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (433/1).

(3) تفسير أبي السعود (71/2).

إن تحقيق الحاكمية، تمكين للعبودية، وقيام بالغاية التي من أجلها خلق الإنسان والجان، قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} (سورة الذاريات: 56)، أي ليطيعوه وحده لا شريك له[1]، وإن المفهوم الواسع الرحيب للعبادة ليشمل علائق وأعمالاً كثيرة، منها ما يمكن أن يقيمه الأفراد ومنها ما لا يمكن تحقيقه على الوجه الأكمل إلا في ظل دولة الإسلام وهذه المعاني الرفيعة كانت واضحة في ذهن المؤسس الأول للدولة العثمانية ولذلك وصى الأمير أورخان بهذه العبارة المنهجية المسددة (يا بني إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين) وهذا التوجيه من عثمان لابنه كفرد وكرئيس لدولة وفي طياته معنى كون العبادة لها أصلان:

أحدهما: أن لا يعبد إلا الله، والثاني: أن يعبد بما أمر وشرع[2]، فإنه مما لاشك فيه كانت الدولة العثمانية حريصة على حماية هذين الأصلين بمحاربة الشرك في داخلها وعملت على تقليص نفوذه خارجها وكانت حريصة على حماية الشرع ضد من يعاود الاعتداء عليه بابتداع أو تحريف أو تغيير أو تبديل، وكل ذلك من حرص أميرها والعلماء الذين من حوله على تحقيق العبودية لله على الوجه المرضي، وعلى حماية الدين من دخائل وانتحالات المضلين، وبهذا تكون دولة بني عثمان أخذت الصبغة الشرعية، (لقد كانت نشأتها إسلامية، خالصة، مشبوبة بإيمان عميق، متوجهة إلى أهداف عقائدية)[3].

2) إذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين مؤئلاً:

إن الله تعالى قد شرع نظام الشورى لحكم بالغة، ومقاصد عظيمة، ولما فيها من المصالح الكبيرة، والفوائد الجليلة التي تعود على الأمة والدولة والمجتمع بالخير والبركة ولذلك أمر عثمان الأول أبنه أن يجعل من العلماء مجلس شورى له في معضلات الأمور وفي هذا الإرشاد امتثال لأمر الله واقتداء برسول الله ﷺ.

- قال تعالى: {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين}(سورة آل عمران: آية:159).

(1) تفسير ابن كثير (239/4).
(2) مجموع الفتاوي (173/10).
(3) المسألة الشرقية، محمود ثابت الشاذلي، ص54.

قال الأستاذ سيد قطب -رحمه الله-: (وبهذا النص الجازم {وشاورهم في الأمر} يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم - حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذي يتولاه، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكاً في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه)(1).

- وقال تعالى: {والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون} (سورة الشورى:آية: 38).

يقول الأستاذ عبد القادر عودة -رحمه الله- (الشورى من دعائم الإيمان وصفة من الصفات المميزة للمسلمين، سوى الله بينها وبين الصلاة والإنفاق في قوله: {والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون}، فجعل للاستجابة لله نتائج بين لنا أبرزها، وأظهرها، وهي إقامة الصلاة والشورى والإنفاق، وإذا كانت الشورى من الإيمان فإنه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى، ولا يحسن إسلامهم إذا لم يقيموا الشورى إقامة صحيحة، ومادامت الشورى صفة لازمة للمسلم لا يكمل إيمانه إلا بتوفرها، فهي إذن فريضة إسلامية واجبة على الحاكمين والمحكومين، فعلى الحاكم أن يستشير في كل أمور الحكم والإدارة والسياسة، والتشريع وكل ما يتعلق بمصلحة الأفراد أو المصلحة العامة، وعلى المحكومين أن يشيروا على الحاكم بما يرونه في هذه المسائل كلها، سواء استشارهم الحاكم أو لم يستشرهم(2).

والأحاديث القولية والسنة الفعلية الدّالة على وجوب الشورى كثيرة ونكتفي بما ذكرنا خوفاً من الإطالة.

وفي رواية أن عثمان أمر ابنه بأن ينزل على رأي العلماء في قوله: (وأنزل على مشورتهم فإنهم لا يأمرون إلا بخير...)(3) وكأن عثمان - رحمه الله - يرى أن الشورى ملزمة للحاكم وقد ذهب إلى هذا الرأي مجموعة من العلماء المعاصرين منهم العلامة أبو الأعلى المودودي - رحمه الله -: (وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحاكمها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم، وإمضاء نظام

(1) في ظلال القرآن الكريم (501/4).
(2) الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص193.
(3) انظر: جوانب مضيئة، ص21.

الحكم بالشورى، يقول تعالى: {وأمرهم شورى بينهم}، {وشاورهم في الأمر}[1].

(إن قاعدة: {وأمرهم شورى بينهم} تتطلب بـذاتها خمسـة أمـور: خامسـها التسليم بما يجمع عليه أهل الشورى أو أكثريتهم، أمـا أن يسـتمع ولي الأمـر إلى آراء جميع أهل الشورى ثم يختار هو بنفسه بحرية تامة، فإن الشـورى في هـذه الحالـة تفقد معناها وقيمتها، فالله لم يقل: (تؤخذ آراؤهم ومشورتهم في أمرهم) وإنما قـال: {وأمرهم شورى بينهم} يعني أن تسير الأمور بتشاور فيما بينهم، وتطبيق هذا القول الإلهي لا يتم بأخذ الرأي فقط، وإنما من الضروري لتنفيذه وتطبيقه أن تجري الأمور وفق ما يتقرر بالإجماع أو الأكثرية...)[2].

وهكذا نرى الأمير عثمان يسبق كثير مـن العلـماء والمفكـرين المعـاصرين في ذهابه إلى أن الشورى ملزمة ويأمر بأنه بالنزول عند رأي العلماء ولكونهم لايـأمرون إلا بخير.

لقد سـاهمت الشـورى في بنـاء الدولـة العثمانيـة وتماسـك رعايـاه وعـززت السلطان السياسي والجهادي والدعوي للدولة وكانـت الآراء تتقلـب وفقـا لجـدارتها، وبمقدار انسجامها مع عقيدة الأمة ودسـتور الدولـة، لقـد كـان الحكـام العثمانيـون يريدون لحكمهم أن يستمر ولنظام دولتهم أن يسـتقر ولـذلك حرصـوا عـلى الإلمـام بحقيقة الأوضاع ببلادهم وجعلوا من الشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ولقد تطورت الشورى في الدولة العثمانية بل أصبح لكل إقليم حاكم يطلـق عليه باشا وله مجلس الديوان يتشـاورون في شـؤون الحكـم والرعيـة، ولقـد شـكلت مجالس وعين نواب وممثلون لكل جماعة وأتيحت الفرصـة للاختيـار وتتطـور الأمـر حتى وصل في عهـد السـلطان محمـد الفـاتح إلى تشـكيل مجلـس استشـاري لأمـور الدولة.

إن أشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتهـا كانـت في زمن الدولة العثمانية عرضة للاجتهاد والبحث والاختيار، أمـا أصـل الشـورى في إدارة شؤون الدولة فكان بالنسبة لهم من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجـوز تجاهلـه أو

(1) الخلافة والملك، ص41-42.

(2) الحكومة الإسلامية، ص94.

إهماله وإن كان تاريخ الدولة العثمانية لا يخلو من ظهور بعض السلاطين المتسلطين.

3) يا بني أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم:

كان عثمان على صلة متينة مع كبار العلماء والفقهاء وكبار الصالحين في عهده وكثيراً ما يجلس الساعات الطوال بين أيديهم ويتلقى مواعظهم ويستفيد من علمهم ويشاورهم في أمور الدولة وكان يتردد على المولى الشيخ (إده بالي) القرماني المولد وقد زوجه ابنته بسبب رؤيا: (كان في أحد الأيام يبيت عنده، فرأى في المنام قمراً خرج من حضن الشيخ ودخل حضنه، وعند ذلك نبتت شجرة عظيمة سدت أغصانها الآفاق، وتحتها جبال عظيمة تتفجر منها الأنهار، والناس ينتفعون بتلك الأشجار لأنفسهم ودوابهم وبساتينهم، فقص هذه الرؤيا على الشيخ فقال: لك البشرى، بما نلت مرتبة السلطنة، وينتفع بك وبأولادك المسلمون، وإني زوجت لك ابنتي هذه... [(1)].

لقد حاول بعض الكتاب أن يجعل من تلك الرؤيا أسطورة لا حقيقة لها مع أن هذه الرؤيا ذكرت في كتاب مهم اسمه الشقائق النعمانية في تاريخ الدولة العثمانية، وهذا الكتاب أفاد وأجاد في ذكر علماء وفقهاء الدولة لفترات زمنية ممتدة.

إن هذه الرؤيا لا تخالف العقل ولا النقل، لأن عثمان الأول رحمه الله كان رجلاً تقياً ورعاً ومن ثمار التقوى الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم: قال تعالى: {ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة....} (يونس: 62-64).

والبشري في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين، في غير مكان من كتابه وعن النبي ﷺ: "الرؤيا الصالحة من الله..."[(2)] وعنه عليه الصلاة والسلام: "لم يبق من

---

(1) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، تأليف طاش كبر زاده، ص7 نقلاً عن تاريخ الدولة العثمانية، د.علي حسون، ص25.

(2) البخاري، كتاب الرؤيا، باب رؤيا الصالحين (88/8) رقم 6986.

النبوة إلا المبشرات قالوا: وما المبشرات؟ قال: "الرؤيـا الصـالحة"[1] وعـن أبي ذر قـال: قلت لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس "فقال تلـك عاجـل بشرـى المؤمن"[2].

إن عثمان الأول - رحمه الله - وضع الله له محبة في قلوب المسلمين لجهـاده وتقواه وصلاحه.

إن وصية عثمان لابنه باحترام العلماء أصبحت منهجاً سار عليه حكام الدولة العثمانية وهذا يدل على التـزام العثمانيـين بشرـع الله تعـالى، لأن الشرـيعة أعطـت اعتباراً للعلماء وبنته على أمرين:

- أن طاعتهم طاعة لله – عز وجل ولرسوله ﷺ، فالتزام أمرهم واجب.
- أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها بل هي تبعٌ لطاعة الله ورسوله ﷺ.

والأدلة على هذه المنزلة وهذا الاعتبار للعلماء في الشريعة كثيرة منها:

الدليل الأول: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنـوا أطيعـوا الله وأطيعـوا الرسـول وأولي الأمر منكم} (سورة النساء، الآية: 59).

وقد اختلف المفسرون في أولي الأمر منكم على أقوال فقيـل: هـم السـلاطين وذوو القدرة.

وقيل: هم أهل العلم.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - "يعني أهل الفقـه والـدين، وأهـل طاعـة الله الذين يعلمون الناس معاني دينهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عـن المنكـر، فأوجب الله سبحانه طاعتهم على عباده"[3].

(1) البخاري، كتاب الرؤيا، باب المبشرات (89/8) رقم 6990.
(2) مسلم، كتاب الرؤيا، باب (2034/4).
(3) تفسير الطبري (149/5).

(والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبعٌ لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء ولما كان قيام الإسلام بطائفتين، العلماء والأمراء، وكان الناس لهم تبعاً، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما[1].

والدليل الثاني: أن الله - سبحانه - أوجب الرجوع إليهم وسؤالهم عما أشكل: قال تعالى: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} (سورة الأنبياء، الآية: 7).

(وعموم هذه الآية، فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه، العلم بالكتاب المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث في ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة...)[2].

إن الآيات والأحاديث التي تبين دور العلماء كثيرة ونكتفي بما ذكرنا.

لقد كان العلماء في مسير الدولة العثمانية مرجع للسلاطين عند الفتن والملاحم والمحن وكانت لهم مقدرة عظيمة على حشد الناس تحت لواء الجهاد في سبيل الله تعالى، وإقامة شرعه على الرعية وكانوا لا يسمحون للسلطان أن يتجاوز أحكام الشرع وإلا ربما هيجوا عليه الناس وعزلوه، وكانت أحكام العلماء والفقهاء تستنبط من:

1) القرآن الكريم:

قال تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله} (سورة النساء: 105).

(1) إعلام الموقعين (10/1) بتحقيق عبد الرؤوف سعد.
(2) تفسير السعدي (206/4).

فهو المصدر الأول الذي يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التي تتعلق بشؤون الحياة البشرية، كما يتضمن مبادئ أساسية وأحكاماً قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم.

2) السنة المطهرة:

هي المصدر الثاني الذي يستمد منه العلماء الأحكام ومن خلالها يعرفون الصيغ التنفيذية والتطبيقية لأحكام القرآن ممثلة في قيادة الرسول ﷺ للأمة ومن خلال السنة يمكن التعرف على نوعية المجتمع المثالي الذي ينشده الإسلام.

3) إجماع الأمة:

وخاصة الصحابة، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدين قال تعالى: {ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً} (النساء: 115).

4) مذهب العلماء والمجتهدين:

قال تعالى: {وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم} (سورة النساء،آية: 83).

والآية دليل على الأخذ بالاجتهاد إذا عُدم النص والإجماع[1]، ولأن العلماء في أمة محمد ﷺ كالأنبياء في بني إسرائيل، فهم المؤتمون على نقل العلم، والمفوضون في استنباط الأحكام المتجددة في عمومات الشريعة، لا لعصمة اختصوا بها - فليس في الإسلام كهنوت - ولكن لأهليتهم في أن يُسموا - "أهل الذكر" والله تعالى يقول: {فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون} (سورة النحل، آية: 43).

(1) انظر: تفسير القرطبي (292/5).

لقد كان علماء الدولة العثمانية على فهم عميق لروح الشريعة وقواعدها ولهم المقدرة على معالجة ما يستجد من قضايا في ضوء هذا الفهم، وكانت لهم القدرة على فهم ضبط المناط في الأحكام وقياس الفروع على الأصول فيها.

ولقد كان المذهب الحنفي له القدح المعلى عند علماء الدولة وإن كانوا لا يستغنون عن بقية المذاهب السنية التي كانت لها احترامها عند السلاطين العثمانيين.

لقد حرص علماء الدولة العثمانية على أن يكون نظامها السياسي على عقيدة التوحيد، وتطبيق شريعة الله، وتقوم على الشورى، وأن يقوم نظامها الاقتصادي على التعامل بالذهب والفضة، وعدم التعامل بالربا، وعدم الاستغلال والاحتكار، وعدم الاتجار بما حرم الله، وأن يقوم نظامها السلوكي والأخلاقي الاجتماعي على أساس عقيدة الإسلام، وأن يقوم نظامها التعليمي والإعلامي على قاعدة من العلوم الشرعية، وأن تقوم علاقتها الدولية على أساس عقيدة الإسلام التي وضعها الله سبحانه وتعالى - حيث قال: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون} (آية: 8،9 سورة الممتحنة).

لقد كان العلماء والفقهاء في الدولة العثمانية يشرفون على تطبيق شرع الله، وإقامة الحدود، وتحريم ما حرم الله، ولا تستحل إلا ما حرم الله[1].

لقد كان معظم سلاطين الدولة يحترمون العلماء ويجلونهم.

4) (اعلم يا بني، أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها)[2]

لقد فهم عثمان الأول - رحمه الله - أن دين الإسلام، دين دعوة مستمرة، لا تتوقف حتى تتوقف الحياة البشرية من على وجه الأرض وأن من أهداف الدولة

(1) انظر: الدولة العثمانية، د.جمال عبد الهادي، ص4.

(2) انظر: جوانب مضيئة، ص21.

الإسلامية دفع عجلة الدعوة إلى الأمام ليصل نور الإسـلام إلى كـل إنسـان، إن الدولـة العثمانية كانت ترى من مسؤولياتها القيام بوظيفة الدعوة ونشرها في أرجـاء الأرض وربط السياسة الخارجية عـلى الأسـس الدعويـة العقديـة، قبـل بنائهـا عـلى الأسـس المصلحية النفعية، وذلك كما كان يفعل رسول الله ﷺ، كان يقـوم بتبليـغ الـدعوة إلى الآفاق امتثالاً لقوله تعالى: {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربـك، وإن لم تفعـل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القـوم الكـافرين} (سـورة المائدة، 67).

وقد امتثل عليه الصلاة والسـلام للأمـر وأرسـل إلى ملـوك الأرض، فكتـب إلى ملوك الروم، فقيل له: إنهم لا يقرءون كتابـاً إلا إذا كـان مختومـاً، فاتخـذ خاتمـاً مـن فضة وختم به الكتب إلى الملوك، وبعث كتباً ورسلاً إلى ملوك فارس والروم، والحبشة ومصر والبلقاء واليمامة في يوم واحد، ثم بعث إلى حكـام عـمان والبحـرين والـيمن وغيرهم[1].

ولذلك اقتدى عثمان - رحمـه الله - بـالنبي ﷺ في دعوتـه وسـار أبنـاءه مـن بعده على هذا المنهج وظهرت في الدولـة جماعـة الـدعوة وكـان الحكـام والسـلاطين يقفون معها ويدعمونها مادياً ومعنوياً، ولقـد سـلك العثمانيـون دولـة وشـعباً سـبلاً متعددة من أجل إدخال النصارى في الإسلام ومن هذه الطرق:

- الاحتفال بمن يعلن اعتناقه للإسلام وإمداده بكل ما يعينه على الحياة والابتهـال به في المساجد.
- حرص العثمانيون على التمسك بالـدين، والتواضـع في أداء الشـعائر مـما جعـل بعض المسيحيين يدخلون في الإسلام.
- معاملة الرقيق من المسيحيين باللين حيث كـانوا يعتقـونهم إذا ثبـت إخلاصـهم حتى ولو ظلوا على دينهم ويتولون رعـايتهم وبخاصـة كبـار السـن مـنهم بعـد العتق فضلاً عن حسن معاملة من يسلم منهم أو يظل على دينه مما كان دافعاً لكثير منهم على اعتناق الإسلام[2].

(1) انظر: زاد المعاد (1/119-124).

(2)انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د.زكريا بيومي، ص51، 52، 53.

- أقبل كثير من العثمانيين على الزواج من مسيحيات حرمت الكنيسة دخولهن فيها مما حدا ببعضهن إلى إتباع أزواجهن.
- قام من دخل في الإسلام من النصارى بدعوة أقاربهم وذويهم لما رأو من سماحة الإسلام وانسجامه مع الفطرة، ومخاطبته للعقل، وأحياءه للقلب.
- قامت الدولة العثمانية بنقل قبائل إسلامية تابعة لها إلى قرى مسيحية ونقلت أعداد من النصارى إلى تجمعات إسلامية مما ساعد على انتشار الإسلام تدريجياً.
- قام السلطان مراد بإتباع سياسة الأفراح عن الأسرى إذا هم اعتنقوا الإسلام وأسهم ذلك الأسلوب في زيادة عدد المسلمين.
- ومما ساعد على انتشار الإسلام في البلقان تعسف الإقطاعيين المحليين في فرض الضرائب الباهظة أن كبار رجال الدين من الإقطاعيين قد باعوا أسرار الكنيسة ووظائفها من جهة وسعوا في توثيق علاقاتهم بالنظام العثماني بل بعضهم دخل في الإسلام.
- توسع سلاطين العثمانيين في المنح والعطايا والتقدير لزعماء النصارى الذي أقبلوا على الإسلام وأظهر كثيرون منهم الإخلاص للدولة العثمانية[1].

لقد أهتم العثمانيون بأمر الدعوة إلى الله على مستوى الخارجي وإدخال الناس في دين الإسلام ولم يتركوا أمر الإصلاح الداخلي في الدولة وإحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد بين عثمان الأول -رحمه الله- أن حماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنق الحاكم المسلم وهذه الأمور تدخل تحت عبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحدود، والدعوة إلى مكارم الأخلاق وتعليم الأمة أمر دينها، ويكون ذلك بإشراف الحاكم المسلم، فيترتب على تلك الأمور فوائد ومصالح عامة للأمة والأفراد، والحكام والمحكومين ومن أهم هذه الفوائد:

- إقامة المِلّة والشريعة وحفظ العقيدة والدين لتكون كلمة الله هي العليا.

قال تعالى: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيراً} (سورة الحج: آية 40).

(1)انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين.

إن الإنسان لابد له من أمر ونهي ودعوة، فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أمر بالشر[1].

- رفع العقوبات العامة: قال تعالى: {وما أصبكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم} (سورة الشورى: آية 30)، وقال أيضاً في الجواب عن سبب مصابهم يوم أحد: {قل هو من عند أنفسكم} (سورة آل عمران: آية 165)، فالكفر والمعاصي بأنواعها سبب للمصائب والمهالك قال تعالى: {فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً مما أنجينا منهم...} (سورة هود: آية 116)، وقال: {وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون} (سورة هود: آية 117)، "وهذه إشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم، فإن الأمة التي يقع فيها الظلم والفساد فيجدان من ينهض لدفعهما هي أمم ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير"[2].
- استنزال الرحمة من الله تعالى؛ لأن الطاعة والمعروف سبب للنعمة قال تعالى: {وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدكم...} (سورة إبراهيم: آية7) والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوع من العبودية لله،
- تحقيق وصف الخيرية في هذه الأمة:

قال تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}.

- التجافي عن صفات المنافقين:

{والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله...} (سورة التوبة: أية 7).

(1) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد السبت، ص72.
(2) في ظلال القرآن (1933/4).

5) (يا بني أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود)[1]:

إن أمة الإسلام تحتاج لكي تقوم بمهمتها في هداية الناس للخير إلى أن تكون صالحة في نفسها، مصلحة لغيرها، فهي الشهيدة على الأمم لأنها أمة الوسط.

قال سبحانه: {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً} (سورة البقرة: آية 143).

وهناك حقوق متبادلة بين الراعي والرعية، والحاكم والمحكوم، ومن وصية عثمان -رحمه الله- لابنه يبين له حق الرعية على الحاكم ولقد حرص العثمانيون كحكام على تنفيذ حقوق الرعية ومن أهم هذه الحقوق التي قاموا بها:

- ✓ العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية.
- ✓ بذل الأسباب المؤدية إلى وحدة الأمة.
- ✓ العمل على حماية الأمة من أعداء الخارج.
- ✓ أن يعمل الولاة على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين.
- ✓ إعداد الأمة إعداداً جهادياً.
- ✓ حفظ ما وضعت الشريعة لأجله.
- ✓ تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء وصرفها في مصارفها الشرعية،
- ✓ تحري الأمانة في اختيار أرباب المناصب.
- ✓ إعطاء حقوق الرعية وما يستحقونه في بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.
- ✓ الإشراف المباشر على سير الأمور بين الرعية في كل النواحي الإدارية التي تتعلق بما يصلح أحوالهم[2].

ومن واجبات الرعية تجاه الحكام:

1. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم} (سورة النساء: آية 59).

(1) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص16.

(2) انظر: الحاكم والمحكوم في خطاب الوحي (315/2 إلى 323).

وكان المجتمع العثماني شديد السـمع والطاعـة لحكامـه مـا دامـوا ملتـزمين بالشريعة؛ لأنهم كانوا على علم بأن طاعة الحكام مقيـدة دائمـاً بطاعـة الله ورسـوله، كما قال ﷺ: "لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف"[1].

2. **النصرة:**

كان المجتمع العثماني دائماً يلتف حول حكامه الشرعيين ويلبي دعوة الجهاد ويبذل الغالي والرخيص ويرى ذلك عبادة لله تعـالى قـال تعـالى: {وتعـاونوا عـلى الـبر والتقوى} (سورة المائدة: آية 2).

وكان من مفاهيم المجتمع العثماني السائدة عندهم؛ مـن نصرـة الحـاكم ألا يهان، ومن معاضدته أن يحترم، وأن يكرّم، فقوامتـه عـلى الأمـة وقيادتـه لهـا لإعـلاء كلمة الله، تسـتوجب تبجيلـه وإجلالـه وإكرامـه تبجـيلاً وإجـلالاً وإكرامـاً لشرـع الله سبحانه الذي ينافح ويدافع عنه، يقول رسول الله ﷺ: "إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكـرام ذي السـلطان المقسط"[2].

3. **النصح:**

إن المجتمع العثماني كان يناصح ولاة أمره ويرى ذلك من صميم الدين لقول رسول الله ﷺ: "الدين النصيحة -ثلاثاً- قال الصحابة ك لمن يا رسول الله؟ قال: لله -عز وجل- ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"[3].

4. **التقويم:**

لقد استقر في مفهوم المجتمع العثماني أن بقـاء الأمـة عـلى الاسـتقامة رهـن استقامة ولاتهـا، ولـذلك نجـد في التـاريخ العـثماني صـور مشرـفة في تقـويم الحكـام وإرشادهم ونصحهم، فهذا المولى علاء الـدين عـلي بـن أحمـد الجـمالي المتـوفى سـنة 932هـ فقد كـان عالمـاً عـاملاً يمضيـ وقتـه في الـتلاوة والعبـادة والـدرس والفتـوى،

(1) مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين (1480/3) رقم 1852.
(2) أبو داود، كتاب الأدب، باب تنزيل الناس منازلهم رقم الحديث 4822.
(3) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، (74/1) رقم 55.

محافظاً على الصلوات الخمس مع الجماعة، وكان كريم النفس، طيب الأخلاق، عظيم المهابة، صدّاعاً بالحق، عفيف اللسان لا يذكر أحد بسوء ولعلاء الدين احتساب عظيم مع السلطان سليم خان المتوفى عام 926هـ ومن ذلك: أن السلطان سليم أمر بقتل مائة وخمسين من موظفيه، فلما سمع المولى علاء الدين بالأمر ذهب إلى الديوان، ولم تكن عادته الحضور إلى السلطان إلا لأمر عظيم، فلم يشعر الوزراء وأهل الديوان إلا بدخول الشيخ المفتي عليهم، فوثبوا يستقبلونه حتى أقعدوه في صدر المجلس وقالوا له: أي شيء دعا المولى إلى المجيء إلى الديوان العالي؟ قال: أريد أن أدخل على السلطان ولي معه كلام، فاستأذنوا له على السلطان، فأذن له وحده فدخل عليه وجلس، وقال: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وقد سمعت بأنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلاً من أرباب الديوان لا يجوز قتلهم شرعاً، فغضب السلطان وكان صاحب حدة، وقال له: لا تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك، فقال الشيخ: بل أعترض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتي، ومهما عشت فإنك ميت ومعروض على الله، وواقف بين يديه للحساب، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فإن أمامك جهنم وعليك عقاب عظيم، ولا يعصمك ملكك ولا ينجيك سلطانك، فما كان من السلطان إلا الإذعان والتسليم أمام نداء الحق من هذا المحتسب، وخضع للحق، وعفا عنهم جميعاً، ثم إن المحتسب لم يكتف بذلك بل طالبه أن يعيد الجميع إلى وظائفهم ففعل، رحم الله المولى علاء الدين الذي كان عظيماً باحتسابه جريئاً في الحق لا يخشى فيه لومة لائم ولقد تأثر السلطان سليم بهذا العالم وأرسل إليه بعد ذلك وطلب منه أن يكون قاضي العسكر وقال له جمعت لك بين الطرفين لأني تحققت أنك تتكلم بالحق، فكتب إليه وصل اليّ كتابك سلمك الله تعالى وأبقاك وأمرتني بالقضاء وأني أمتثل أمرك إلا أن لي مع الله تعالى عهداً أن لا تصدر عني لفظة حكمت فأحبه السلطان محبة عظيمة[1].

وهكذا سار العثمانيون على المنهج الذي وضعه لهم المؤسس الأول.

(1) انظر: شذرات الذهب (185/8).

6) (ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك)[1]:

وهذه المعاني يعيشها من فهم القرآن الكريم وتأثر به، وتأمل في سير الأنبياء والمرسلين والمصلحين، لأنه يعلم أن التوفيق مـن الله تعـالى ولـيس بالجنـد ولا بالمـال وهكذا كـان موقـف يوسـف عليـه السـلام قـال تعـالى: {رب قـد آتيتنـي مـن الملـك وعلمتني من تأويل الأحاديث فـاطر السـموات والأرض أنـت ولي في الـدنيا والآخـرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين} (سورة يوسف:آية 110)، وهكذا ينـاجي يوسـف عليه السلام ربه؛ فيقول أصبحت ممكناً في الأرض تشد إلي الرحال، وتنصـاع لكلمتـي الرجال، ورزقتني الفهم وصواب تأويل الرؤى، وتفسير الأحاديث ويرجـع الفضـل إلى صاحب المن والفضـل يقـول ابـن القـيم: "جمعـت هـذه الـدعوة الإقـرار بالتوحيـد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبـد، وأن ذلـك بيـد الله لا بيـد العبـد، والاعـتراف بالمعـاد وطلب مرافقة السعداء"[2].

وهذا ذو القرنين عندما تمّ بنـاء سـدّه العظـيم وكـان يملـك الجنـود والمـال ويتحكم في الشعوب بالعدل قال: {هذا رحمة من ربي} (سورة الكهف: آية97)، إنهـا عبارة جميلة مباركة تشير إلى عدة معاني:

1. قال سيد قطب: (ونظر ذو القرنين إلى العمل العظيم الذي قـام بـه؛ فلـم يأخـذه البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشـكره، ورد إليـه العمل الصالح الذي وفقه إليه....)[3].

إن من أعظم صور الذكر أن يتذكر العبد فضل الله عليه، فيستشعر أن فضل الله عليه عظيم؛ فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

وهكـذا كانـت وصـية عـثمان لابنـه يحـذره فيـه مـن الشـيطان ومسـالكه ومداخله ويدعوه إلى الاحتراز من كيده.

(1) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص16.
(2) الفوائد لابن القيم، ص21.
(3) الظلال (2293/4).

7) (وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضات الله جل جلاله)[1]

إن عثمان الأول -رحمه الله تعالى- كان يرى أن نشر دين الله في كل الآفاق من وسائله الجهاد في سبيل الله تعالى، وأن الغاية العليا للجهاد في سبيل الله هي إعلاء كلمة الله لتحقيق عبادته وحدة لا شريك له كما قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ۞ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون۞ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} (سورة الذاريات: آية 56،58).

ومفهوم العبادة شامل لنشاط الإسلام كله ويفسر ذلك قوله تعالى: {قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له۞ وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين} (سورة الأنعام).

ومن أجل هذه الغاية انطلق عثمان الأول بجنوده وشعبه مجاهداً في سبيل الله ولسان حاله يقول ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، لقد كانت وسيلة العثمانيين من أجل إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض الجهاد في سبيل الله.

وعندما حاولت دول النصارى أن تعمل على منع توسع الدولة العثمانية وباشروا في شن هجومهم عليها كانت وسيلة الجهاد كالصخرة العظيمة التي تتحطم عليه محاولتهم المتكررة وأمام قادة العثمانيين قول الله تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ۞ واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشد من القتل} (سورة البقرة: آية 190-192).

ولقد عمل العثمانيون بهذه النصيحة والوصية، فعملوا على إزالة كل العوائق التي تمنع الناس من سماع دعوة الله تعالى التي جاءت لتعطي الناس أكمل تصور للوجود والحياة وبأرقى نظام لتطويرها.

ولقد جاهدت الدولة العثمانية في سبيل الله تعالى وفتح الله على يديها دول وشعوب لازال الإسلام باقياً فيها حتى الآن مثل دول البلقان وعملت على حماية

(1) العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص16.

شعوب المسلمين من هجمات النصارى الغاشمة، فكانت سبباً في بقاء الشمال الأفريقي على إسلامه ودينه وعقيدته، وكانت عاملاً مهماً في حماية الأراضي المقدسة من البرتغاليين ومن دخل تحت لوائهم من النصارى إلى غير ذلك من الأعمال الجليلة التي سنفصلها في بحثنا هذا بإذن الله تعالى.

8) (من انحرف عن سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول ﷺ الأعظم يوم المحشر) [1]:

إن عثمان -رحمه الله تعالى - يتبرأ من ممن ينحرف عن الحق والعدل من ذريته ويدعوا من جاء بعده بالتمسك بالحق وإقامة العدل.

إن العدل هو الدعامة الرئيسية في إقامة المجتمع الإسلامي والحكم الرباني؛ فلا وجود للإسلام في مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل ولذلك اهتم الإسلام بتقرير هذه القاعدة وتأسيسها وتدعيمها؛ فأكثر الحديث عنها في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية ومن هذه النصوص:

- قال تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} (سورة النحل: آية9) وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه.
- قال تعالى: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل،} (سورة النساء: آية 58).
- وقال تعالى: {يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين أن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً} (سورة النساء: آية 135).

ثم إن ترك العدل يعد ظلماً، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم وذم أهله وتوعدهم بالعذاب الشديد يوم القيامة والهلاك في الدنيا[2]، قال تعالى: {ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون} (سورة إبراهيم: آية 42).

ومن خلال هذه التوجيهات الربانية حرص عثمان على إقامة العدل بين الناس وعمل أن يكون هذا المبدأ واقعاً تعيشه الأمة العثمانية من بعده حيث وكان يتحرك بجيوشه ويوظف كل إمكاناته من أجل نشر التوحيد وتعريف الناس

(1) السلاطين العثمانيون، ص33.

(2) انظر: النظام السياسي في الإسلام، د.محمد أبو فارس، ص49.

بخالقهم، ولقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان وكان دستوره في التعامل مع الناس قول الله تعالى: {أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ۞ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسراً....}(سورة الكهف: آية 87،88).

ولذلك حرص في وصيته على أن يحكم من بعده بالحق والعدل وفي رواية يقول لابنه في الوصية: (اعدل في جميع شؤونك...)[1].

9) (يا بني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وبالإسلام نموت) [2]

إن هذه الفقرة من الوصية تبين طبيعة تكوين الدولة العثمانية عن غيرها من الدول، فالغاية التي قامت من أجلها إنما هي الدفاع عن الإسلام ورفع رايته في مشارق آسيا الصغرى والقضاء على الدولة البيزنطية التي كانت تهدد المسلمين في ديارهم ومن ثم أطلق على زعيم هذه الدولة الناشئة لقب الغازي، أي المجاهد في سبيل الله، وكان يتلقى هذا اللقب في حفل مشهود بتسليمه راية الجهاد من عالم كبير[3] وأن الغازي عثمان -رحمه الله- دعا المسلمين من الترك وغيرهم لينضموا تحت راية الجهاد في سبيل الله فاستجاب له الكثير من المؤمنين الصابرين تحدوهم جميعاً رغبة شديدة في الانتصار لدين الله بالقضاء على الدولة البيزنطية[4].

هذه الوصية الخالدة هي التي سار عليها الحكام العثمانيون في زمن قوتهم ومجدهم وعزتهم وتمكينهم.

ترك عثمان الأول الدولة العثمانية وكانت مساحتها تبلغ 16،000 كيلومتر مربع واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذ على بحر مرمرة واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في ذلك الزمان وهي: ازنيق وبورصة[5].

(1) انظر: السلاطين العثمانيون، ص33.
(2) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص16.
(3) انظر: المسألة الشرقية، ص39.
(4) انظر: تركيا والسياسة العربية، ص13.
(5) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص15.

[2014]

الفصل الرابع

تأثير الدولة السلجوقية على تحول الإمبراطورية البيزنطية

[4]

دار البداية ناشرون وموزعون

تاريخ الدولة البيزنطية 324-1453م

الإمبراطورية البيزنطية: بداية التاريخ البيزنطي

التسمية والنشأة:

أعاد الإمبراطور قنسطنطين في العام 330م أعمار مدينة بيزنطة على شاطئ البوسفور لتظهر إلى الوجود باسم القسطنطينية، ولتظل حتى عام 1453م عاصمة لما عرف تاريخيا بالإمبراطورية البيزنطية Byzantine Empire، وتجدر الإشارة إلى أن ذلك المصطلح Byzantine من ابتكار المدرسة الفرنسية في القرن السابع عشر للميلاد، فقد كان شعب تلك الإمبراطورية يطلق علي نفسه اسما آخر يفضله ويتمسك به وهو Rhomaioi أي سكان الإمبراطورية الرومانية، وهم بذلك يعترفون بأن ما بحوزتهم من أراض، وكثير من تقاليدهم السياسة كانت ميراثا رومانيا على الرغم من تحول لغتهم رسميا إلى اليونانية وعقيدتهم إلي المسيحية، كما أن الإمبراطور البيزنطي كان يعتبر نفسه حاكما رومانيا وخليفة لقياصرة روما، وربما كان ذلك سببا في أن تعرف الإمبراطورية البيزنطية من قبل كثير من المؤرخين المحدثين باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية، أو الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، كونها امتداد لتاريخ الإمبراطورية الرومانية القديمة، وتمييزا لها عنها بعد أن سقطت في الغرب على أيدي الغزاة الجرمان، وأيضا تمييزا لها عن الإمبراطورية الرومانية الغربية التي تم إحياؤها على يد شارلمان في بداية القرن التاسع الميلادي.

ولقد كانت الصفة الرومانية تلك هي ما ساد عند العرب قبل الإسلام وبعده، فاستخدموا لفظة الروم للدلالة على البيزنطيين أرضا وشعبا، وأشار إليهم القرآن الكريم بهذا اللفظ أيضا في سورة حملت اسم الروم كذلك: "غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون"، واستخدم الكثير من كتاب المسلمين مصطلح الروم في كتاباتهم للإشارة إلي البيزنطيين وبلادهم.

ويرى البعض من المؤرخين تسمية الإمبراطورية البيزنطية بالإمبراطورية بالإغريقية أو الهلينستية على اعتبار أنها كانت امتدادا للحضارة الهلينية التي دخلت مرحلتها الثانية عندما مدّ الاسكندر الأكبر حدود العالم الإغريقي شرقاً لتبدأ مرحلة جديدة بتأسيس قنسطنطين عاصمته الجديدة بيزنطة.

ولا ريب أنه يمكـن تفسـير الاخـتلاف الناشـب بـين المـؤرخين حـول تسـمية الإمبراطورية البيزنطية بعديد من المسميات في ضوء العناصر الداخلة في تكوين تلك الإمبراطورية، والتي شملت مبادئ الرومان ومفاهيمهم السياسية، إلى جانـب وقـوع عاصمتها في قلب منطقة تحمل ميراثا إغريقيا كان له مؤثراته الواضحة، بالإضافة إلى الديانة المسيحية التي اعترف بها قنسطنطين، لقد قادت تلك العناصر مجتمعة إلي ما يمكن أن يعرف بالإمبراطورية البيزنطية، ففي الوقـت الـذي تمسـك فيـه البيزنطيـون بنعت أنفسـهم بالرومـان فـأنهم لم يكونـوا كـذلك فعـلا، ففـيما بـين القـرنين الرابـع والسابع تغيرت الثقافات والمفاهيم لديهم مما يمكننا القول معهـا بـأن الإمبراطوريـة الرومانية الشرقية تحولت إلى عالم جديد وظهور ما يمكـن تسـميته بيزنطـة العصـور الوسطى Medieval Byzantine.

والواقع أن مصطلح الإمبراطورية البيزنطية يشير إلي الإمبراطوريـة الرومانيـة الشرقية منذ نهاية الحقبة الرومانية في المنطقة الواقعة شرق البحر المتوسط وإقلـيم البلقان فيما بين القرنين السادس والخامس عشر، ويعني هذا منذ الوقت الـذي بـدأ السياسيون الرومان في الشرق يتقبلون الفروق الثقافية بين إغريقي الشرق ولاتينيـي الغرب ضمن إطار الإمبراطورية وحتى سقوطها عـلى يـد السـلطان العـثماني محمـد الثاني الفاتح.

ومهما يكن من أمر، فإن الاختلاف بين المـؤرخين أيضـا بـدا كبـيرا في موضـع آخر، وهو بداية ظهـور الإمبراطوريـة البيزنطيـة، فـإن محاولـة تحديـد سـنة بعينهـا كبداية لتاريخ تلك الإمبراطورية ليست بالأمر السهل، إن ظهور بيزنطة كإمبراطوريـة ذات شأن استغرق زمنا طويلا أخذت فيه ملامحها الشرقية تتبدى تـدريجيا، وتصـبغ خلاله بالصبغة البيزنطية، ذلك التحول التدريجي أدى إلى حد ما إلى تعـدد وجهـات النظر والاختلاف بين المؤرخين حول بداية تلك الإمبراطوريـة، ورأى الـبعض مـنهم في حادثات بعينها ما يمكن اعتباره نهاية للإمبراطورية الرومانيـة، وبدايـة للإمبراطوريـة البيزنطية ولكل مبرراتـه، ومـن الجـدير بالـذكر أن هنـاك مـن رفـض القـول ببدايـة لإمبراطورية بيزنطية وفقاً لاعتقاده أن التاريخ عملية متصلة يسيطر فيها الماضي على كل من الحاضر والمستقبل منهم جيبـون والعلامـة بيـوري الـذي يـذهب إلى القـول نتيجة ذلك باستمرار الإمبراطورية الرومانية مـن القـرن الأول حتـى القـرن الخـامس عشر، ويستند في ذلك إلى تتـابع الأبـاطرة دون انقطـاع منـذ أوغسـطس أوكتـافيوس

حتى قنسطنطين الحادي عشر- باليولوجس آخر الأباطرة الرومان، فالإمبراطورية الرومانية عنده لم تنته إلا في عام 1453م على الرغم من اعترافه بعظمة عهد قنسطنطين، واعتبار ذلك العهد فاتحة مرحلة جديدة أو عصر- جديد في كثير من النواحي، لقد كان بيوري يرى أن في التاريخ من المراحل البارزة يؤدي ما تراكم فيها من اتجاهات وآثار إلى تغيير محسوس فيتحول إلى مرحلة جديدة، ورأى أن إحدى تلك المراحل البارزة ظهرت في حياة الإمبراطورية الرومانية أوائل القرن الرابع أي إبان عهد قنسطنطين، ويصح أن يطلق عليها التاريخ البيزنطي، والواقع أنه استخدام لفظة بيزنطي أو يوناني لإطلاقها على الإمبراطورية الرومانية في مراحلها التاريخية المتأخرة.

ومهما يكن من أمر، فإن الآراء تعددت ليس حول رفض بداية التاريخ البيزنطي كما يرى بيوري وإنما حول متى بدأ ذلك التاريخ.

يرى ستيفن رنسيمان أن عام 330م وهو العام الذي احتفل فيه بافتتاح العاصمة الجديدة بيزنطة والتي أطلق عليها اسم روما الجديدة خير تاريخ نتخذ منه بداية للتاريخ البيزنطي.

إن تلك المدينة فرضت اسمها على عصر دام أكثر من ألف ومائتين وثلاثة وعشرين عاما من تاريخ الإنسانية، ويذهب فيشر نفس المذهب ذلك أن تأسيس القسطنطينية كان بداية تاريخية لعهد أخذ فيه العالم الإغريقي والعالم الروماني يبتعد في أثنائه كل منهما عن الآخر رويدا رويدا حتى أمست وحدة الإمبراطورية لا تعدوا أن تكون مسألة نظرية عسيرة التحقيق وأملا بعيد المنال.

ويرى البعض أن سنة 395م هي بداية ظهور دولة جديدة في الشرق وذلك عندما قام الإمبراطور ثيودوسيوس الأول بتقسيم الإمبراطورية في ذلك التاريخ بين ولديه هونوريوس في الغرب وأركاديوس في الشرق، وهذا يعني استقلال كل من الغرب والشرق عن بعضهما البعض، وأن كلا منهما قادر على أن يؤسس لنفسه دولة قائمة بذاتها، ويعني ذلك بعبارة أخرى في نظر أولئك البعض بداية دولة جديدة في الشرق، بيد أنه تجدر الإشارة إلي أن ما حدث من تقسيم عام 395م كان تقسيما لإدارة الحكم في الإمبراطورية الرومانية، ولم يكن انقساما لها، فقد كان كل من الحاكمين يعترف بنفس القوانين ومبادئ الحكومة والتقاليد الرومانية، حيث جرت

العادة على أن تصدر القوانين والمراسيم باسم الإمبراطورين، وأن ما يصدره أحـدهما من مراسيم يسري مفعولها في سائر الإمبراطورية، وإذا مات أحدهما أو خـلا العـرش من إمبراطور فللآخر الحق في أن يعين خلفا له.

إن ما حدث في عام 395م لا يـنم عـن تحـول ذا قيمـة ولا يعـدو أكـثر مـن تنظيم لإدارة شئون الإمبراطورية، لقد كان ثيودوسيوس نفسه أكثر حرصا على وحدة الإمبراطورية، وربما دفعه ذلك إلى تقسيمها إداريا مثلما فعل الإمبراطور دقلـديانوس من قبل، وإن كانت الأحداث قد باعدت بين القسمين فإن ذلك شأن آخر.

وقـد رأى الـبعض فـيما حـدث عـام 476م مـن عـزل الإمبراطـور رومولـوس أوجستولوس آخر أباطرة الغرب عـن العـرش نهايـة للإمبراطوريـة الرومانيـة وبدايـة للإمبراطورية البيزنطية، فالانفصال الذي كان ظاهريا صار حقيقة واقعة، حيـث قـام القائد الجرماني أودواكر بعد عزلـه الإمبراطـور الغـربي بإرسـال شـارات الإمبراطوريـة الرومانية الغربية من روما إلى الإمبراطـور زينـون في القسـطنطينية، وهـو مـا يعنـي اعترافا بانتقال حقوق الحاكم الغربي إلى حاكم الشرق، وبقول آخر- حسـب أصـحاب ذلك الرأي - نهاية الإمبراطوريـة الرومانيـة الغربيـة وبدايـة الإمبراطوريـة الرومانيـة الشرـقية، غـير أن فكـرة وحـدة الإمبراطوريـة - والتـي تعنـي أنـه لـيس هنـاك إلا إمبراطورية واحدة وإنه إذا تـولى الحكـم إمبراطـوران أو أكـثر فـإنهم إنمـا يحكمـون إمبراطورية واحدة - ظلت قائمة، ولم يشعر أحد في الغرب أن الإمبراطورية قد انتهت بها الحياة عند سنة 476م، أو أن إيطاليا خارج نطاق الإمبراطورية بعد هذا التـاريخ، لذا فإنه من الخطأ اعتبار أن الإمبراطورية الرومانية الغربية سقطت في سنة 476 بل أنه في العام التالي قام أدواكر بارسال ممثل لـه إلي القسـطنطينية لإخبـار الإمبراطـور زينون أن الغرب لم يعد في حاجـة إلى وجـود إمبراطـور، وأن الإمبراطـور الرومـاني في الشرق كاف لبسط حمايته عل الشرق والغرب معا، غـير أن الإمبراطـور زينـون حـث زعيم القوط الشرقيون ثيودريك إلى غزو ايطاليا والحفاظ عـلى العـرش هنـاك حتـى مجيئه، وبالفعل أمكن لثيودريك القيام بقتل أدواكر عام 493م، وإن كـان ثيودريـك قد أسس مملكة قوطية في إيطاليا، إلا أنه لم يعتبر نفسه إمبراطورا أو حاكما مستقلا، بل ممثلا للإمبراطور الروماني المقيم في القسطنطينية، وإن ما قام بـه جسـتنيان مـن حروب في الغرب لإعادة ما استولى عليه الجرمان من مناطق إنمـا كـان يخفـي وراءه فكرة وجود إمبراطورية واحدة وظلت هذه الفكرة قائمة حتى عام 800م.

كان العام 800م نقطة تحول في العلاقات بين طرفي الإمبراطورية شرقيها وغربيها، ففي الخامس والعشرين من ديسمبر 799 قام البابا ليو الثالث بتتويج ملك الفرنجة شارلمان إمبراطورا الأمر الذي يثير التساؤل حول فكرة وحدة الإمبراطورية وهل انتهت تلك الفكرة وذهبت إلى غير رجعة؟ الحقيقة أن ذلك الأمر لم يدر بخلد كل من البابا أو شارلمان أو أحد من مستشاريهما، والأقرب إلى الصواب أنهما كانا يريدان العودة بروما القديمة إلى سابق عهدها وليس فصل الشرق عن الغرب، ويبدو ذلك في اعترافهم بأنهم لم يتمردوا على الحاكم الجالس على عرش القسطنطينية، وإن عملهم ليس أكثر من استخدام للحق الشرعي القديم بملء هذا الكرسي الذي خلا بعد عزل ايرين لابنها قنسطنطين واعتلائها العرش بدلا منه، وبذا يمكن اعتبار شارلمان خليفة للإمبراطور المعزول وأبيه وكل الأباطرة الذين اعتلوا عرش القسطنطينية وليس خلفا لرومولوس أوغسطولوس المعزول في الغرب عام 476م، وفي ضوء هذا التبرير فإن ماجرى من أحداث التتويج هو ضمن إطار الرومانية القائمة والتي كانت روما ما تزال جزءا أساسيا منها، وبمعنى آخر فإن كل ما تم هو انتخاب امبراطور جديد في ذات الإمبراطورية القائمة وليس انفصالا بالغرب عن الشرق فالانفصال ليس كل مطمع البابوية.

ومهما يكن من الآراء والنظريات التي تعرضت لموضوع بداية التاريخ البيزنطي أو ظهور الدولة البيزنطية وكونها اجتهادات سعى أصحابها إلى وضع حدود تاريخية لها، فإن الثابت أن التغيرات الهائلة لا تحدث بين يوم وليلة وإنما تمت نتيجة عملية تطور بطئ مستمر، ويمكن القول أن الإمبراطورية الرومانية ولدت من رحم أزمة القرن الثالث، والتي جاءت نتيجة تراكم مشاكل طفت إلى السطح في ذلك القرن، وتمثلت في الفساد الذي عم جميع نواحي الحياة في الإمبراطورية القديمة، الأمر الذي استلزم معه حدوث تغيرات وإصلاحات كانت بمثابة فترة انتقالية أدى تراكم التغيرات فيها الى بداية عصر جديد في تاريخ الإنسانية، ولا ريب أن أهم تلك التغيرات هو إنشاء مدينة القسطنطينية والتي بظهورها عام 330م كعاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية بدأت حقبة تاريخية جديدة في العصر الوسيط.

ولا يفهم من ذلك تحديد ما لتاريخ بدأت فيه الإمبراطورية البيزنطية فالأمر سيبقى موضع اختلاف، ولكن يبقى القول بأن محاولة تحديد سنة أو تاريخ معين بلا شك هي مسألة اعتبارية يقصد بها فهم التاريخ.

عصر دقلديانوس (284-305م)

- ولد دقلديانوس بالقرب من مدينة سالونا في إقليم دالماشيا عام 245م.
- تولى عرش الإمبراطورية بعد وفاة الإمبراطور نومريانوس (283-284م).
- أول ما قام به دقلديانوس هو تعيين مكسميان زميلا له في الحكم، ومنحه لقب قيصر في بداية الأمر ثم أضفى عليه لقب أوغسطس فيما بعد.
- من الإصلاحات التي قام بها دقلديانوس:

1. أعاد النظر في نظم الإمبراطورية وألغى ما اعتبره فاسدا، وأبقى على ما رآه غير ذلك.
2. استحدث بعض التنظيمات التي رأى أنه يستطيع بها حل مشاكل الإمبراطورية.
3. استهدفت إصلاحات دقلديانوس تقوية سلطة الإمبراطور، وإقامة جهاز إداري دقيق يمكنه من السيطرة على شؤون الإمبراطورية.
4. فصل بين السلطة العسكرية والمدنية.
5. قسم الإمبراطورية إلى قسمين شرقي وغربي، حكم كل منهما حاكم يحمل لقب أوغسطس، وتولى دقلديانوس القسم الشرقي بينما تولى مكسيميان القسم الغربي.
6. تم تقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام إدارية عرفت باسم Prefecture، وكان هذا النظام الرباعي يقضي بأنه عندما يعتزل الأوغسطس الحكم يخلفه القيصر الذي يرقى إلى أوغسطس، ويعين لمساعدته قيصرا جديدا وهكذا تباعا.

- في عام 305م اعتزل دقلديانوس الحكم وعمره تسعة وخمسين عاما، وفي الوقت نفسه اعتزل مكسيميان الحكم وفقا لاتفاق مسبق مع دقلديانوس.

عصر قسطنطين الكبير (306-337م)

أعقب نزول دقلديانوس عن منصب الإمبراطورية قيام حرب أهلية استمرت سبع عشرة سنة، وبرزت خلالها شخصية قسطنطين الذي استطاع أن يتغلب على خصومه ومنافسيه واحدا بعد آخر حتى تمّ توحيد الإمبراطورية الرومانية مرة أخرى

سنة 323م، وعندئذ أخذ هذا الإمبراطور عـلى عاتقـه مهمـة إتمـام الإصـلاحات التـي بدأها دقلديانوس.

والواقـع أن الإمبراطـور قسـطنطين يتمتـع بأهميـة خاصـة في التـاريخ نظـرا للأعمال الهامة التي قام بها، والتي كان لها أثر واضح في تغيير وجه التاريخ، وتحقيق الانتقال من العالم القديم إلى عالم العصور الوسطى، وذلـك أن هـذا الإمبراطـور قـام بخطوتين على جانب كبـير مـن الأهميـة: الأولى اعترافـه رسـميا بالديانـة المسـيحية، والثانية نقله عاصمة الإمبراطورية مـن رومـا القديمـة في إيطاليـا إلى رومـا الجديـدة القسطنطينية.

وقد اقتفى قسطنطين في إصلاحاته الإدارية أثر السياسة التي وضـع أساسـها دقلديانوس، فقام بإتمام الأعمال التي بدأها هذا الإمبراطور بشـكل أبعـد أثـرا، حتـى أننا نجد من الصعب في كثير من الأحيـان الفصـل بـين أعـمال هـذين الإمبراطـورين، وهنا نلاحظ أن الإصلاحات الإدارية التي قام بها دقلديانوس وقسطنطين قامت عـلى أساس التفرقة بين السلطتين الحربية والمدنية، وظهرت هذه التفرقة واضحة في حكم الولايات، إذ أصبح حاكم الولاية مسئولا عن شئونها الإدارية المدنية فحسب، في حـين اخـتص القائـد بـالإشراف عـلى النـواحي الحربيـة في ولايـة أو أكـثر مـن ولايـات الإمبراطورية.

على أن أهم تغيير أدخله قسطنطين كان إدخاله مبدأ الحكم الوراثي، فأصبح المنصب الإمبراطوري وراثيا في أسرته التي اعتمدت على تأييد الجيش وعلى الدعامـة الدينية الجديدة من جهة أخرى، أما من الناحية العسكرية فقـد اتجهـت تنظـيمات قسطنطين نحو إنقاص عدد أفراد الفرق العسكرية، كما استمر في سياسة فتح البـاب أمام الجرمان للانخراط في سلك الجيش الروماني كجند نظاميين.

خلفاء قسطنطين (337-378م):

توفي قسطنطين في عـام 337م، وخلفـه في الحكـم أبنـاؤه الثلاثـة مجتمعـين وهم: قسطنطين، وقسطنطينوس، وقنستانز، وكان الأخوة الثلاثة ميـالين بطـبعهم إلى الشقاق والخلاف، ولكن هذا الخلاف ما لبث أن انتهى عنـدما تـوفي قسـطنطين عـام

340م، وقنستانز في عام 350م، فانفرد قسطنطينوس بالحكم بعـد مـا هـزم منافسـه ماجنينتيوس في عام 351م، واستمر في الحكم حتى وفاته عام 361م.

جوليان (361-363م):

اكتسب جوليان شهرته التاريخيـة بارتـداده إلى الوثنيـة، وقـد كـان معروفـا بهذه الميول بسبب نشأته، وبعد أن أصبح إمبراطورا أعلن عن ذلك صراحـة، وأصـدر مرسوما يقضي بفتح المعابد الوثنية، ولا شك أن مثـل هـذا العمـل قـد أنعـش آمـال الوثنيين بعد ما عادت لهم الحقوق الدينية والسياسية.

جوفبان (363-364م):

بعد وفاة جوليان عام 363م انتخب الجيش قائدا مسـيحيا يـدعى جوفبـان الذي وقع معاهدة مهينة مع الفرس تقضي بهدنة لمدة ثلاثين عاما نظـير تنازلـه عـن أربـع ولايـات، كـما تنـازل أيضـا عـن سـيادة الإمبراطوريـة في أرمينيـا، ولكـن هـذا الإمبراطور ما لبث أن مات في العام التالي 363م.

فالنز (363-378م):

كان فانز يعتنق المسيحية على المذهب الأريوسي، فكرهـه النـاس واعتـبروه مهرطقا، ولذلك اتسم حكمه بالفتن المتواصلة، وكانت نهايته على يد القوط الغربيين الذين الحقوا بجيش الامبراطور هزيمة قاسية في معركة أدرنة عام 378م، وقتل فـالنز في هـذه المعركـة، وبموتـه تظهـر أسرة جديـدة عـلى عـرش الامبراطوريـة وهـي أسرة ثيودوسيوس.

أسرة ثيودوسيوس (379-518م):

ثيودوسيوس (379-395):

- في عهده هدأت ثائرة القوط وذلك بفضل حسـن معاملتـه لهـم، واسـتطاع أن يجعل منهم اتباعا للامبراطورية سواء في الجانب المدني أو العسكري.

- أعاد للمسيحية كيانها وأنزل بالوثنيين والهراطقة قرارات الحرمان حن حقوق المواطنة، ففي عام 381م عقد مجمع ديني بالقسطنطينية عرف باسم مجمع القسطنطينية فرض فيه الوحدة الدينية بالقوة على العالم المسيحي.
- كان ناجحا في سياسته الخارجية فقد تمكن في عام 387م من عقد معاهدة جديدة مشرفة مع الفرس أعاد بها نصف أرمينية إلى حظيرة الامبراطورية.
- في عام 392م استطاع أن يضم الغرب بأكمله إلى الشرق تحت إدارته وذلك بعد وفاة فالنتيان.
- عند وفاته عام 395م ترك الامبراطورية لولديه، فكان الشرق من نصيب ابنه أركاديوس، والغرب لابنه هونوريوس، وبموته انفصل الشرق عن الغرب إلى الأبد بعد أن ترك امبراطورية بيزنطيةأرثوذكسية.

اركاديوس (395-408م):

- في عهده تجدد أخطار القوط الذين هددوا الجزء الجنوبي من شبه جزيرة البلقان في مرحلة، وهددت أسوار القسطنطينية في مرحلة أخرى، واستطاع القوط أن يفرضوا شروطهم على الامبراطورية التي قبلت الأمر الواقع وقبلت تعيين بعضهم في الوظائف الهامة في الدولة.
- في عهده أيضا بدأت العناصر الجرمانية تتسلل إلى الجيش على شكل أفراد، ولكنها كانت تحت القيادة البيزنطية على العكس من الغرب، ويلاحظ أن ذلك بالنسبة للشرق كان من العوامل الهامة التي حافظت على وحدة الجانب الشرقي.

ثيودوسيوس الثاني (408-450م):

- في عهده تمت عملية المزج بين الثقافة الكلاسيكية والديانة المسيحية، ولعل ذلك مرجعه في بعض الجوانب إلى زوجته يودوكيا التي كان والدها استاذا لعلم البلاغة في أثينا حيث ترعرت يودوكيا وتشربت بالثقافة اليونانية هذا فضلا عن تحمسه الشديد للمسيحية.

- في عهده تم إعادة تنظيم الدراسة في جامعة القسطنطينية التـي وضـع أساسـها قسطنطين الأول،حيث تم تدريس قواعد اللغة واللاغة اليونانية واللاتينية فضلا عن الفلسفة والقانون.
- ومـن الأعـمال الهامـة في عهـده هـو جمـع التشريعات القانونيـة الخاصـة بالامبراطورية منذ عهد قسطنطين الأول، ويعد هذا عمل عظيم بالنسبة للدولة ونظامها، حيث أصبح هناك قانون ثابت ومدون يسهل الرجـوع إليـه، وتعـرف هذه المجموعة باسم مجموعة قوانين ثيودوسيوس.

مرقيان (450-457م):

- في عهده تفاقمت المشكلة الدينية وزاد الخلاف بين القسطنطينية وروما، هـذا فضلا عن المشاكل التي خلفتها هجرات البرابرة، وفي خضم هذه الأحداث يظهر أحـد القـادة الرومـان مـن الآلان هـو أسـبار ليصـبح صـاحب الكلمـة الأولى في العاصمة البيزنطية، وذلك بفضل دفاعه عنها ضد العناصر البربرية.

أسرة جو ستنيان (527-565م)

- حكمت أسرة جو ستنيان من عام 518-610م.
- واجه جو ستنيان في عـام 532م أي بعـد توليـه بخمـس سـنوات ثـورة داخليـة كادت تقضي على عرشه وهذه الثورة عرفت بإسم: ثورة نيقـا،أي النصر ـ باللغـة اليونانية.
- أطلق على الإمبراطور جو ستنيان لقب الإمبراطور الساهر.
- زوجة الامبراطور جو ستنيان التي كان لها دور في الثورة هي <ثيودورا>.
- من الإصلاحات التي قامت بها الامبراطورية للحد من نفـوذ الملاك الكبـار أنهـا تدخلت في حق الارث أحياناً أو أجبرت بعض كبـار المـلاك عـلى وقـف أملاكهـم على الامبراطورية كما لجأت الى مصادرة بعض الاملاك لعدم ثبوت ملكيتها، امـا عن أملاك الكنائس والأديرة فسـلكت سـبيلا آخـر للمصـادرة وهـو إتهـام ديـر بأكمله بالزندقة وتحويل أملاكه الى خزانة الدولة.

- أما من الناحية الإدارية فقد رأى جو ستنيان أن أفضل الطرق لإصلاح أحوال الدولة هي تقوية الحكومة المركزية واختيار افضل الرجال للقيام بشؤون الحكم.
- اعتمد جو ستنيان في بداية عهده على بعض الشخصيات في شؤون الحكم والادارة ومن هؤلاء:- يوحنا القوبادوقي وزير للخزانة، وتريبونيان وزير للقضاء.
- قام الامبراطور جو ستنيان بإدماج بعض الولايات مع بعضها فقلل عدد الموظفين وزاد من رواتبهم حتى يشجعهم على العمل، كما وضع السلطة العسكرية والادارية في يد واحدة وأنعم على الحكام الجدد بالألقاب تشجيعا لهم.
- في عهده تم وضع قوانين للأحوال الشخصية ثم في عام 533م صدر المصنف الهائل المسمى "الموجز" الذي ظل المرجع الأول في جميع المسائل القانونية ولم يتوقف نشاط جو ستنيان التشريعي عند هذا الحد فمنذ عام534م وحتى نهاية حكمه ظهرت سلسلة مطولة من القوانين التكميلية أطلق عليها اسم القوانين المستجدة.
- الملك الفارسي الذي اراد ان يضمن العرش لابنه الاصغر "كسرى انو شروان" لجا الى الامبراطور جو ستنيان لكي يتبنى ابنه ويضمن عرشه هو (الملك قو باذ).
- عندما اعتلى جو ستنيان العرش كان القسم الغربي من الامبراطورية قد اصبح تحت سيطرة الجرمان فقد كان القوط الشرقيون يحكمون في ايطاليا والقوط الغربيون في اسبانيا وبين هؤلاء حكم الفرنجة في غالة "فرنسا" اما الساحل الافريقي فقد كان تحت حكم الو ندال، وفي الجزر البريطانية كان الأنجلو سكسون.
- القائد البيزنطي الذي أعاد الساحل الافريقي لحكم الامبراطورية البيزنطية هو:- "بليزا يوس".
- خلف الامبراطور جو ستنيان كلا من:-

(جوستين الثاني 565-578م)،(طيبي يوس578-582م.

(موريس583-602م)،(فوقاس602-610م).

- الأسرة الهر قلية (610-717م).
- حكمت الاسرة الهرقلية من 610-717م.
- كان الساحل الشمالي الافريقي هو الجـزء الوحيـد مـن الامبراطوريـة البيزنطيـة الذي لم يلحقه الاذى في عهد الامبراطور فو قاس سواء من الناحيـة الداخليـة أو الخارجية فقد كان يتولى امره حاكما صالحا كبير السن هـو هرقـل وقـد توالـت الاتهامات من جميع اهالي واحزاب العاصمة البيزنطية "القسطنطينية" تحـرض هرقل عـلى القضـاء عـلى فـو قـاس وتخلـيص الامبراطوريـة مـن ظلـم العـابثين بمقدراتهم واخيرا استجاب هرقل لرغباتهم واعد اسطولا لهـذا الغـرض ووضـعه تحت قيادة ابنه الذي يدعى هرقل أيضا الذي استطاع الانتصار على الامبراطـور فو قاس ونودي بهرقل امبراطورا على الدولة البيزنطيـة في:-الخـامس عشرـ مـن شهر اكتوبر عام 610م.
- كان على هرقل الابن بمجـرد ان تـولى العـرش ان يواجـه المشـاكل التـي تحـيط بالإمبراطورية فقد كانت الدولة تحتاج الى الاصلاح الـداخلي فضـلا عـن الخطـر الفارسي الذي يواجها من الشرق واخطار السلاف والافار من الغرب.
- الملك الفارسي الذي عـاصر هرقـل هـو كسرـى الثـاني وقـد جـرت بـين الـدولتين الفارسية والبيزنطية حروب كانت بين الطرفين وفي عام 627م وضع كسرى الثاني كل ما لديه من قوات تحت قيادة رازات وأمره بالقتال حتـى النصرـ أو المـوت وبالقرب من مدينة نينوه في العراق انقض هرقل على الجيش الفارسي وانزل به هزيمة ساحقة سقطت على اثرها مدينة دووست جورت وبعد سقوطها تراجـع كسرى الى المدائن عاصمة الفرس ولكنه اضـطر الى الفـرار منهـا عنـدما اقتربـت منها القوات البيزنطية وبعـد ايـام حلـت النهايـة بكسرـى إذ قـبض عليـه ابنـه شرويه ومات بعدها بأيام.
- ارسل الملك الفارسي شرويه رسالة استعطاف الى هرقل وناداه يا والـدي واعتـذر عن افعال سلفه واستقبل هرقل الرسالة بالترحاب وانتهـى الامـر بعقـد الصـلح الذي وضع شروطه هرقل ومنهـا: جـلاء القـوات الفارسـية عـن جميـع الاراضي البيزنطية في مصر والشام وآسـيا الصـغرى واطـلاق صراح جميـع الاسرى ودفـع غرامة حربية وتضمن الصلح شرطا عن بيت المقدس يقضي بـرد جميـع اسـلابها وخاصة الصليب المقدس وارتضى شرويه بهذه الشروط وانتهـت سـتة وعشرـون

عاماً من الحروب الفارسية البيزنطية بصلح اعاد للإمبراطورية عظمتها وعاد هرقل إلى عاصمته باحتفال بهيج.

- بطريق القسطنطينية الذي كان له جهودا كبيرة في صد هجوم الفرس والا فار هو: سير جيوس الاول.
- أسس السلاف لأنفسهم مملكة خاصة بهم تحت زعامة سامو كما ثارت القبائل البلغارية وسلموا أمر قيادتهم إلى زعيم منهم يدعى كو فرات وقد ساند البيزنطيون كو فرات في صراعه ضد الآفار وعقد هرقل معه تحالفا ومنحه لقب بطريق وما لبث كوفرات أن اعتنق المسيحية فانضوى تحت لواء الكنيسة البيزنطية.

علاقة هرقل بالمسلمين:

- في العام السادس من الهجرة أرسل النبي-صلى الله عليه وسلم-الكتب والرسل الى الملوك والامراء داخل الجزيرة العربية وخارجها يدعوهم إلى الإسلام ومن بين هذه الكتب الكتاب الذي أرسله الرسول إلى هرقل ملك الروم وكان رسول الرسول صلى الله عليه وسلم هو دحية بن خليفة الكلبي وقد تليت الرسالة على هرقل فلم يغضب ورد على الرسالة ردا حسنا.
- في عهد النبي صلى الله عليه وسلم جرت بين الروم والمسلمين عدة معارك منها(غزوة مؤتة في العام 8هـ)، (غزوة تبوك عام 9هـ)، (في العام 11هـ أعد النبي جيشا لقتال الروم بقيادة أسامة بن زيد حارثة ولكن المنية عاجلته قبل أن يتحرك الجيش وعندما تولى أبو بكر الصديق الخلافة انفذ جيش اسامة الى حرب الروم وعاد الجيش بعد 40 يوما منتصرا.

الأسرة المقدونية (867- 1057م)

- بازيل الأول (867- 886م) مؤسس الأسرة المقدونية.
- حكم الإمبرطور ليو السادس الملقب بالحكيم الإمبراطورية البيزنطية ما يزيد عن ربع قرن من الزمان (886- 912م).

- **الباسيليكا:** تشكل أكبر مجموعة للقوانين في الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى، وقد عهد باعدادها إلى مجموعة من المحامين برئاسة سيمباتيوس، وأصبحت منذ ذلك الحين المرجع في دراسة القانون.
- تشير تشريعات ليو السادس إلى مسألة تاريخية هامة بلغت ذروتها في تلك المرحلة، فقد وضعت السلطة المطلقة في الدولة في أيدي الحاكم والبروقراطية الإمبراطورية.
- يشكل عصر الأسرة المقدونية (867- 1057م) مرحلة جديدة في التطور الإداري والبيروقراطي في الإمبراطورية البيزنطية.
- معركة بلجاروفيجون عام 896م: جرت بين الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور ليو السادس، والمملكة البلغارية في عهد الملك سيمون، واستطاع البلغار تحقيق انتصار حاسم، وأرغمت بيزنطة على أن تدفع جزية سنوية لدولة البلغار.
- ليو الطرابلسي: في أواخر القرن الثالث الهجري ظهر في شرق البحر المتوسط أعظم بحار مسلم سمعت به كتب التاريخ، وهو أمير البحر الذي فاضت المراجع والكتب الغربية في وصف معاركه البحرية على ثغور الدولة البيزنطية، في أغفلت المصادر الإسلامية حياة هذه الشخصية.
- يعدّ سيف الدولة الحمداني من أشهر أمراء الدولة الحمدانية، واشتهر بمحاربته للدولة البيزنطية.
- استقبل الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (300- 350هـ) سفارة بيزنطية في قرطبة عام 336هـ للعمل على موادعته على حدّ قولالمؤرخ المقري.
- ساد السلام بين بيزنطة والروس عندما زارت الإمبراطورة أولجا أرملة إيجور والوصية على العرش الروسي القسطنطينية عام 957م.

[2014]

الفصل الخامس

تاريخ العصور الوسطى الأوروبية

[5]

دار البداية ناشرون وموزعون

تاريخ العصور الوسطى الأوروبية

الإمبراطورية الرومانية

الواقع أن المدخل الطبيعي لدراسة العصور الوسطى الأوروبية يتمثل في الإمبراطورية الرومانية من حيث نشأتها وتطورها ومراحل الضعف التي مرت بها إلى أن انهارت على أيدي العناصر الجرمانية عام 476م، ويلاحظ أن العصور الوسطى الأوروبية قامت على أساس ثلاثة عناصر وهي:-

1. التراث الكلاسيكي اليوناني والروماني.
2. المسيحية.
3. العناصر الجرمانية.

بدأت الإمبراطورية الرومانية بعد أن أنتصر أوكتافيوس على أنطونيو وكليوباترا في معركة أكتيوم عام 31ق،م وقد تلقب أوكتافيوس بلقب أغسطس وصار إمبراطوراً وقد أمتد عهد إزدهار الإمبراطورية من عام 27ق،م إلى 180م،وقد بدأ الضعف يدب في جسد الإمبراطورية الرمانية في القرن الثالث الميلادي عندما أنعدم النظام وتحكم الجيش في تعيين الأباطرة ومنذ تولي الإمبراطور دكيوس بدأت هناك سلسلة من الأباطرة العسكريين إلى أن وصل إلى السلطة الإمبراطور دقلديانوس 305/284م وأهم أعماله هي:

- إخضاع الثورات المضادة للإمبراطورية الرومانية.
- مواجهة إغارات عناصر البرابرة الجرمان.
- قام بمهاجمة الفرس وأسترد بلاد ما بين النهرين.
- قام بتقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام إدارية كبرى في صورة غاليا-إيطاليا-إليريا-إقليم الشرق.
- قام بنقل العاصمة إلى مدينة نيقوميديا في شمال غربي آسيا الصغرى.
- أتجه إلى إصلاح النظام الضرائبي.

تولى من بعده قسطنطين الذي تغلب على خصومة ووحد الإمبراطورية عام 323م ويمكن أيجاز أهم أعمال كالأتي:-

1. الأعتراف بالمسيحية أحدى الديانات الموجودة في الإمبراطورية وأوقف الاضطهاد الذي قام به دقلديانوس ضدها.
2. قام بتأسيس عاصمة جديدة في صورة القسطنطينية أو روما الجديدة وأفتتحها بالفعل في مايو 330م وسوف تصبح عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ولن تسقط إلا مرتين الأولى 1204م على أيدي الصليبيين خلال الحملة الصليبية الرابعة، والثانية عام 1453م على يدي محمد الفاتح العثماني.
3. قام بجعل المنصب الإمبراطوري منصباً وراثياً في أسرته.

استمرت الإمبراطورية الرومانية قائمة إلى أن سقطت عام 476م على أيدي الجرمان وأختلف المؤرخون في تفسير سبب سقوطها ويمكن أجمال أهم الآراء على النحو الآتي:-

أولاً: هناك من يري أن الجرمان هم الذين كانوا وراء سقوطها وأنهم أجهدوها إلى أن دخل أدواكر روما في العام المذكور وأسقط حكم الإمبراطور رومولوس اوجوستيلوس، حتى أن البعض من المؤرخين يعتبرون عام 476م يصلح أن يكون بداية العصور الوسطى الأوروبية.

ثانياً: هناك من رأى أن المسيحية تعد مسئوله عن سقوط الإمبراطورية الرومانية إذ أن دعوتها للزهد والتقشف كانت من القوة بحيث لم تقدم للمعاصرين دافعا قوياً للعمل والإنتاج.

ثالثاً: رأى فريق آخر من المؤرخين أن ضعف الأباطرة كان له تأثيره فلم يعد هناك أباطرة أقوياء مثل أوغسطس ودقلديانوس وغيرهما بل مجرد أباطرة ضعاف لا يستطيعون مواجهة الأخطار الخارجية.

رابعاً: هناك رأي على جانب كبير من القيمة ردده المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي صاحب كتاب دراسة التاريخ والذي تنسب له نظرية التحدي والاستجابة، فقد رأى أن الإمبراطورية الرومانية سقطت من الداخل قبل أن تسقط من الخارج

فالنظام السياسي والإقتصادي والإداري أنهار ولذلك كان السقوط وقرر أن أدواكر ليس له حق الادعاء بأنه صاحب شرف إسقاط روما.

يلاحظ أن ذلك المؤرخ قد تأثر بالمفكر البارز أبن خلدون صاحب المقدمة الشهيرة والذي قرر أن للدول أعماراً تبدأ قوية ثم تكبر وتهرم وتموت كذلك قرر أن أهل البدو أقدر على هزيمة أهل الحضر.

يلاحظ أن سقوط إمبراطورية الرومانية مثل أهمية كبرى لدارسي تاريخ العصور الوسطى لدرجة أن المؤرخ البريطاني الكبير إدوارد جيبون خصص كتاباً من ثلاثة أجزاء عنوانه:-

تاريخ إضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية

لا نغفل الإقرار بأن الإمبراطور الأخير رومولوس أوجوستيلوس لا يتحمل بمفرده مسئولية سقوط الإمبراطورية لأن عملية السقوط إستغرقت زمناً طويلاً من قبل عهده،

ملحوظة:- عن العرض السابق أنظر الأتي:

- أسحق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، من الارك إلى جستنيان دراسة في حوليات العصور المظلمة.
- سيد الناصري، الإمبراطورية الرومانية.
- سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى.
- نورمان كانتور، التاريخ الوسيط.

الجرمان والإمبراطورية الرومانية

العناصر الجرمانية منها ما قدم من وسط آسيا في صورة قبائل وقد قامت بغزو القارة الأوروبية وهم في الأصل رعاة وكانت السهول الموجودة شمالي بحر قزوين مغرية لهم ليهاجموا القارة الأوروبية ومن تلك العناصر الهون وغيرهم.

أما الجرمان، فأن موطنهم الأصلي عند بحر البلطيق ويلاحظ أن مصادرنا التاريخية عنهم تتمثل في ما ألفه قيصر وكذلك تاكيتوس ونعرف من خلالها أن الجرمان أشتهروا بالقوة والشجاعة والكرم وقد أنقسموا إلى ثلاث طبقات وهي النبلاء والأحرار والعبيد وكان النبلاء يمثلون الطبقة المحاربة التي حظيت بنوع خاص من التشريف أما العبيد فعملوا بالزراعة.

بدأ الجرمان يتسللون إلى مناطق الإمبراطورية الرومانية بصورة سلمية وفيما بعد تزايدت أعدادهم وقلت موارد الغذاء لديهم وحدث الصدام بينهم وبين الإمبراطورية عندما عبروا نهر الدانوب وذلك عام 376م وتمكنوا من هزيمة الجيش الإمبراطوري وعلى رأسه الإمبراطور فالينز.

عندما جاء بعده الإمبراطور ثيودوسيوس أتجه إلى مهادنتهم وعقد معهم معاهدة صاروا بمقتضاها معاهدين للإمبراطور.

بصفة عامة يمكن القول بأن أهم توزيعات الجرمان على النحو التالي:-

- القوط الشرقيون .... إيطاليا.
- القوط الغربيون .... أسبانيا.
- الوندال...............................شمالي أفريقيا.
- الفرنج...فرنسا.
- الأنجلوسكسون.............................إنجلترا.

من المهم ملاحظة أن سقوط القسم الغربي من الإمبراطورية لم يكن يعني النهاية، ففي القسم الشرقي وجدت الإمبراطورية البيزنطية وقامت خلال عهد الإمبراطور جستنيان عام 565/527م بحملات عديدة من أجل أسترداد القسم الغربي من السيادة الجرمانية وبعد أن حقق إنتصارات متعددة فشل مشروعه وعاد الجرمان إلى مناطقهم السابقة وتأكد لنا أن ذلك الإمبراطور حاول أعادة عقارب الساعة إلى الوراء وقد أنفق الأموال الطائلة وفتك بالكثيرين في ساحات المعارك جرياً وراء سراب خادع لم يكن من الممكن أن يتحقق وأتضح لنا أن العناصر الجرمانية صنعت جذوراً لها في الأرض الرومانية لم يكن من الممكن لذلك الإمبراطور أن يقضي عليها.

ملحوظة: عن الجرمان بالتفصيل أنظر:

- ديفز، أوروبا في العصور الوسطى.
- محمد مرسي الشيخ، أوروبا في العصور الوسطى.
- محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوروبا العصور الوسطى، الوندال.

شارلمان ودولة الفرنجة

بعد قيام دولة الفرنجة دخلت في مرحلة من الحرب الأهلية استمرت قرابة قرن ونصف من الزمان وظهر الضعف الشديد في البيت الميروفنجي وكان من بين أفراد ذلك البيت الحاكم شارل مارتل الذي واجه حملات المسلمين الذين عبروا جبال البرانس بقيادة عبد الرحمن الغافقي وقد تمكن من إلحاق الهزيمة بهم في معركة تور أو بواتييه التي عرفت في المصادر العربية بأسم بلاط الشهداء عام 732م وقد نال لقب المطرقة من جانب البابا حيث ظهر كما قرر أ. د. سعيد عاشور في نظر الغرب على أنه بطل المسيحية في مواجهة الإسلام.

وصل في حكم غالة أو فرنسا عام 752م بين القصير وبالتالي انتهت الأسرة الميروفنجية ووصلت إلى السلطة الأسرة الكارولنجية وعندما توفي بين القصير ترك أبنين هما شارلمان وكارلمان وتوفي الأخير وقام شارلمان بتوحيد دولة الفرنجة في قبضته.

ويمكن أجمال أهم أحداث عصر شارلمان على النحو التالي:

- **الصدام مع السكسون:** قام شارلمان ب18 حملة ضدهم وفي البداية كان هدفه حماية حدود دولته منهم وفيما بعد أتجه إلى تنصيرهم، ومما صعب المهمة أمامه أن بلادهم احتوت على الغابات والأحراش كما أن الطرق لم تكن ممهدة لتحرك جيوشه وقد حدث أن أعتنق السكسون المسيحية ثم ارتدوا عنها فقام شارلمان بعمل مذبحه ضدهم عرفت بمذبحه فردان عام 782م أعدم فيها 4500 شخص وبذلك تمكن من إخضاعهم.

- **الصدام مع المسلمين:** في عام 778م قام بأولى حملاته العسكرية الكبيرة ضد المسلمين في أسبانيا وقد حاصرت قواته سرقسطه دون جدوى وأثناء عودته مع جيشه عبر جبال البرانس قامت عناصر الباسك بمهاجمة مؤخرة جيشه حيث فتكوا بها وكان من بينها فارس يدعى رولان وكان ذلك سبب في ظهور أنشودة رولان التي ألفها شخص مجهول وتظهر رولان كفارس صليبي في مواجهه المسلمين.
- **حروبه مع اللومبارديين في إيطاليا:** أصطدم معهم من أجل تأمين حدود دولته وكذلك للتوسع وليعمل على حماية البابا منهم الأمر الذي كان له أثرة على تتويجه من بعد.
- **تتويج شارلمان إمبراطوراً ونتائجه:**

يلاحظ أن الغرب الأوروبي منذ سقوط الإمبراطورية عام 476م ظل بدون إمبراطور حتى عام 800م وفي العام الأخير قام البابا ليو الثالث بتتويج شارلمان إمبراطورا أما دوافع البابا لذلك فيمكن أجمالها كالأتي:

- أراد البابا اكتساب قوة سياسية وعسكرية كبيرة يحتمي بها ضد أعداءة سواء من اللومبارديين أو غيرهم.
- هدف البابا أن يضرب بيزنطة ويجهل لها منافساً قوياً في الغرب لكي يسعى الطرفان إلى مخاطبة ود البابا على نحو يدعم نفوذه على حسابهما وبالتالي يمارس لعبة وازن القوى السياسية.
- على أية حال، في ليلة عيد الميلاد من عام 800م في كنيسة القديس بطرس في روما عندما انتهت الصلاة قام البابا بوضع تاج على رأس شارلمان وقد نتج عن تتويج شارلمان إمبراطوراً عدة نتائج:

1. تألق نجم شارلمان بشكل كبير فلم يعد مجرد حاكم من حكام الغرب الأوروبي بل صار إمبراطوراً.
2. تم شغل الفراغ السياسي الذي وجد في الغرب الأوروبي خلال المرحلة من 476 إلى 800م وكان لذلك أهمية كبيرة حتى أن بعض المؤرخين اعتقدوا أن بداية العصور الوسطى الأوروبية يمكن أن تكون في عام 800م.

3. كان التتويج لطمه قويه على وجه بيزنطة فطوال المرحلة السابقة كان الإمبراطور البيزنطي يرى انه الإمبراطور الوحيد والآن وجد إمبراطور على القسم الغربي.
4. وجدت كنيسة روما حليفاً قوياً في صورة شارلمان ومن الآن فصاعداً نلاحظ أن البابوية تتحالف مع الأقوى.
5. ظهر الأمر على أن البابوية منحت شارلمان اللقب الإمبراطوري وفيما بعد عندما حدث الصراع بين البابوية والإمبراطورية أستغل أنصار الأولى تلك الحادثة من أجل أظهار قوتها على الإمبراطورية.

النهضة الكارولنجية:

خلال عهد شارلمان حدثت نهضة حيث أهتم بالزراعة والصناعة والتجارة بمقاييس العصور الوسطى بطبيعة الحال، كذلك أهتم بالناحية العلمية وقد ظهر في عصره عدد من العلماء مثل بطرس البيزي وبولس الشماس وإينهارد، والواقع أن النهضة المذكورة جزء من عدة نهضات شهدتها العصور الوسطى الأوروبية مثل نهضة جستنيان ونهضة القرن الثاني عشر الميلادي والأخيرة أهم النهضات نظراً لاعتمادها على ترجمة العلوم العربية.

- علاقة شارلمان بالدولة العباسية:

رأى بعض المؤرخين الغربيين المحدثين أن شارلمان تحالف مع الخليفة العباسي هارون الرشيد من أجل أن يحارب شارلمان الأمويين في الأندلس أعداء العباسيين وفي المقابل يقوم هارون الرشيد بمحاربة بيزنطة الخصم اللدود للدولة الكارولنجية.

- في الواقع أن ذلك القول غير دقيق لعدة اعتبارات:

1. لا يوجد نص عربي واضح يشير إلى التحالف بين الجانبين.
2. النصوص الفرنجية سواء لدى أينهارد أو الحوليات الملكية لا يرد فيها صراحة مثل ذلك التحالف.

3. أن السفارات المتبادلة بين الطرفين كان الهدف منها فتح أسواق جديدة للصناعة العباسية المتقدمة حيث أرسل هارون الرشيد بعض الهدايا لشارلمان لدعم صلاته بالدولة الكارولنجية من خلال التجارة.
4. لم يكن الخليفة العباسي يحتاج إلى إذن من شارلمان لكي يحارب بيزنطة إذ أن واجبه كخليفة للمسلمين يحتم عليه محاربه الكفار دفاعاً عن حدود دولة الإسلام.
5. لا ننسى أن هارون الرشيد حقيقته ضائعة وكثيراً ما نسجت حوله روايات غير صحيحة فهو من المظلومين في التاريخ.

النظام الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى

بعد أن مات شارلمان مؤسس الإمبراطورية الكارولنجية عام 814م تفككت إمبراطوريته كذلك واجهت هجمات المسلمين والفايكنج ولم تعد هناك سلطة مركزية توفر الحماية للناس وبالتالي بحث كل شخص عن من يوفر له الحماية ومن ثم ظهر إلى الوجود النظام الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى.

ذلك النظام أحتوى على السيد الإقطاعي والأفصال والأول كانت لديه مساحة كبيرة من الأرض ولم يكن يستطيع أن يحميها بمفرده ولذلك جمع عدداً من الفرسان ووزع عليهم الأرض في مقابل حمايتها وأن يقفوا بجواره إذا ما دخل في الحرب مع أي سيد إقطاعي أخر وكان إرتباط الفصل بالسيد الإقطاعي من خلال مراسيم خاصة،حيث يجثو الفصل على ركبتيه ويمسك بيده حفنة من تراب الأرض ويقسم يمين الولاء للسيد الإقطاعي على أن يكون أحد فرسانه التابعيين له.

ويلاحظ وجود العديد من الإلتزامات الملقاه على كاهل الفصل تجاه سيده فإلى جانب انضمامه إلى قوات السيد الإقطاعي كان هناك حق الضيافة فإذا مر سيدة بمنزله كان عليه أن يقدم له واجب الضيافة، وإذا تزوجت إبنة السيد الإقطاعي كان على الفصل أن يقدم لسيدة مبلغاً من المال بهذة المناسبة وغيرها من الالتزامات.

أحتوى النظام الإقطاعي على تركيبة هرمية محددة الطبقات فهناك الذين يحاربون وهم الفرسان، والذين يتعبدون وهم رجال الكنيسة، والذين يزرعون وهم الأقنان أو عبيد الأرض، وقد كان الفرسان يأتون على قمة النظام الإقطاعي في عصر ازدهرت فيه أفكار الفروسية.

أمتلك السيد الإقطاعي قلعة حصينة عمل من خلالها على إدارة الإقطاع وفي البداية تم تشييد القلاع من الأخشاب إلا أنها من خلال النار والأمطار أصابها الضرر ولذلك أتجه الأوروبيون إلى أقامة القلاع من الحجارة، ويلاحظ أن تلك القلعة كانت رمزاً لقوة السيد الإقطاعي والوسيلة الفعالة من أجل حماية الإقطاع ومثلت نقطه للدفاع والهجوم.

ويلاحظ أن العصر الذهبي لتشييد القلاع في أوروبا العصور الوسطى لم يكن على الأرض الأوروبية بل على أرض بلاد الشام عندما التقى الغرب بالشرق في عصر الحروب الصليبية حيث شيد الصليبيون عشرات القلاع مثل حصن الأكراد والمرقب والكرك والشوبك وغيرها.

الطبقة الثانية في النظام الإقطاعي تمثلت في رجال الكنيسة وكانت مصلحتهم مرتبطة بالسادة الإقطاعيين ولذلك لم يحرصوا على تغيير النظام الإجتماعي القائم وأحتوت تلك الطبقة على العديد من العناصر مثل الرهبان والقساوسة والأساقفة ورؤساء الأساقفة وقد تمتعت تلك الطبقة بمكانه أجتماعية كبيرة ولا ننسى أن العصور الوسطى عرفت بعصور الإيمان نظراً لتعاظم شأن الظاهرة الدينية فيها.

أما طبقة الأقنان فقد جاءت في أسفل الهرم الطبقي وكانت أحوالهم سيئة للغاية ويمكن إجمالها على النحو التالي:-

- يعيش القن قناً ويموت قناً وبالتالي ليس لديه أي أمل في الترقي الإجتماعي بأي حال من الأحوال ويظل في الضيعة التي يعمل بها طوال عمره ولا يرى أضواء العاصمة طوال حياته حتى لو كانت على بعد عدة كيلومترات من تلك الضيعة وإذا فكر في الفرار كان عقابه شديداً قد يصل إلى الموت.
- إذا تزوج القن وتوهم أنه صاحب حقوق أدمية قام السيد الإقطاعي باغتصاب زوجته ولا شك أن ذلك يشعر المؤرخ المنصف بمدى الانحطاط

الأخلاقي الذي وصل إلية ذلك المجتمع تجاة تلك الطبقة التي مثلت السواد الأعظم من السكان وقامت بتوفير الغذاء للجميع وكانت بلا حقوق وبالتالي لم تختلف حياتهم عن حياة الماشية في الحقول.

- أنتشر الفقر والجهل والمرض لدى تلك الطبقة البائسة في المجتمع الأوروبي الوسيط ويلاحظ إرتفاع نسبة الوفيات في صفوفهم، وقد صورت المؤرخة البريطانية إلين باور في كتابها نماذج بشرية من العصور الوسطى قصة بودري الفلاح الذي عاش حياة بائسة وكان من شريحة الأقنان، ظل النظام الإقطاعي قائماً بما أحتواه من ظلم صارخ لحق بالأقنان إلى أن حدث إنفجار الحروب الصليبية في أخريات القرن الحادي عشر الميلادي حيث سمحت البابوية للأقنان لأول مرة بمغادرة الأراضي التي يعملوا بها ولذلك فر الآلاف منهم إلى الشرق تخلصاً من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي عاشوا فيها ولذلك يقال أن الأقنان ظلوا أسرى النظام الإقطاعي إلى أن كانت الدعوة للحروب الصليبية، ويلاحظ أن الحروب الصليبية كانت نتاجاً للنظام الإقطاعي ومن المفارقات التاريخية أنها أدت أيضاً إلى القضاء على ذلك النظام.

تنظر الدراسات التاريخية الحديثة إلى الفتح النورماني لإنجلترا في أعقاب معركة هاستنجز عام 1066م على أنه أكثر من مجرد معركة حربية فهو في حقيقته غرو فرنسي حضاري لإنجلترا وقد أدى ذلك الفتح إلى إنهاء عزلة إنجلترا عن القارة الأوروبية وقد أدخل النظام الإقطاعي الفرنسي إلى إنجلترا، كما أن رجال الدين الذين قدموا في ركاب المحاربين تأثروا بالحركة الإصلاحية التي قادها البابا جريجوري السابع.

ولا نغفل أن الفتح النورماني أوصل إلى إنجلترا طراز فني جديد هو الطراز الرومانسكي الذي عرف بأسم النورماني وقد حل محل الطراز الأنجلو ساكسوني أما التأثير اللغوي وهو على جانب كبير من الأهمية فنلاحظه من خلال أن الفرنسية سارت لغة بلاط ملوك إنجلترا النورمان وأخذت تنتشر بالتدريج بين ثنايا لغة البلاد ذات الطابع السكسوني حتى ظهرت في أواخر القرن 14م ما عرف باللغة الإنجليزية، أما الناحية الاجتماعية فيلاحظ أنه مع التزاوج بين الطرفين أنتقلت العادات والتقاليد،أما على المستوى السياسي فنلاحظ أن ذلك الفتح أدى إلى ظهور أقوى دولة منظمه شهدتها أوروبا في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي.

- **وليم الفاتح:**

كان حكمه لإنجلترا حكماً استبدادياً مطلقاً ويمكن تقسيم أعماله على النحو التالي:

1. أخضع الثورات التي قامت ضده في شمالي إنجلترا كما قرر العلامة أ. د.سعيد عاشور وذلك في عام 1070م وقد صادر أراضي الأمراء السكسون المتمردين عليه ووزعها على أتباعه النورمان في صورة منح صغيرة مع ملاحظة عدم أتساع أملاك أي أمير وتركزها في منطقة واحدة.
2. قام بأجراء إحصاء شامل لكافة سكان وعقارات وممتلكات الأهالي فيما عرف بالدومسداي بوك وقد مكنه ذلك من توفير قاعدة معلومات بإمكانيات العصور الوسطى بطبيعة الحال، وهو يذكرنا بإحصاء شامل للسكان قامت به مملكه بيت المقدس الصليبية قبيل معركة حطين الحاسمة 1187م عندما أدرك الصليبيون تزايد خطر صلاح الدين الأيوبي وكذلك يذكرنا كتاب الدوميسداي بوك بكتاب وصف مصر الذي ألفه علماء الحملة الفرنسية وكل ذلك يؤكد أهمية سلاح المعلومات في حركة التاريخ.
3. قام وليم الفاتح بتحويل مجلس الملك الذي كان موجوداً قبل الفتح النورماني وكان استشارياً فجعله وليام الفاتح قضائياً.
4. فيما يتصل بعلاقته مع البابوية نجده قد رفض أن يقسم يمين الولاء والتبعية والبابا جريجوري السابع وأن يحكم إنجلترا كإقطاع من البابوية على أساس أنه حصل على حكم إنجلترا بحق السيف من خلال انتصاره في معركة هاستنجز عام 1066م.

- **وليم الثاني 1087-1100م وهنري الأول 1100-1135م:-**

الأول تطرف في معاملة الكنيسة والثاني أحسن المعاملة معها ويلاحظ أن هنري الأول كان إدارياً ممتازاً وحاكماً قوياً كما قرر أ. د. سعيد عاشور وفيما بعد حدثت حرب أهلية خلال المرحلة من 1135-1154م.

- **هنري الثاني 1154-1189م:-**

يمكن أيجاز أهم أعماله على النحو التالي:

1. عمل على إخضاع الأمراء ومنعهم من شحن حصونهم بالمقاتلين دون أذن ملـكي منه كما حطم الكثير من الحصون الإقطاعية.
2. توسع في نظام المحلفين وصار العدد 12 محلفاً.
3. قام بتعيين صديقه توماس بكت رئيساً لأساقفة كانتربري غير أنه عارضه ووصـل الأمر إلى حد أن قتل أحد أتباع الملك توماس بكت فحدثت ثورة في الرأي العـام وأضطر الملك إلى أن يعلن أنه لا يتحمل مسؤولية قتله ووعد بـاحترام الكنيسـة ورجالها.
4. قام هنري الثاني بتزويج ثلاث بنات له مـن ثلاثـة ملـوك في سكسـونيا وقشـتاله وصقلية ليستفيد مـن ذلـك الـزواج السـياسي في دعـم نفـوذ إنجلـترا في القـارة الأوروبية ويتخلص من عقدة العزلة.
5. قبل وفاته بعـامين تمكـن صلاح الـدين الأيـوبي في 4 يوليـو 1187م مـن هزيمـة الصليبيين في معركة حطين ودخل بيت المقـدس فاتحـاً في 2 أكتـوبر مـن نفـس العام فقامت الحملة الصليبية الثالثة وقام هنري الثاني بفـرض ضريبـة جديـدة تسمى عشور صلاح الدين ولذلك يقال أن صلاح الدين الأيوبي ساعد على تطور النظام الضريبي في إنجلترا ولم يتمكن هنري الثاني من المشاركة في أحـداث تلـك الحملة نظراً لوفاته وسوف يشارك بدلاً منه أبنه ريتشارد الأول.

- **ريتشارد الأول قلب الأسد 1189-1199م:-**

ملك إنجليزي شهير حكم عشر سنوات أمضى أغلبها خارج إنجلترا وقد أتسم بالعنف والدموية والاندفاع والتهور وقد بدا عهده بمذبحه لليهود ثم خرج للاشـتراك في الصليبية الثالثة دعماً لنفوذ إنجلترا شرقي البحـر المتوسـط ولينـافس فرنسـا التـي توصف بأنها أم الحروب الصليبية في العصـور الوسـطى، وتمكـن مـن الاسـتيلاء عـلى جزيرة قبرص ثم نجح في الاستيلاء على عكا وانتزاعهـا مـن قبضـه المسـلمين ثـم قـام بمذبحه لحامية المدينة قتل خلالها 2500 من رجالهـا في مذبحـة مروعـة، ثـم ألحـق الهزيمة بصلاح الدين الأيوبي في معركة أرسوف عام 1191م ولكنها أبداً لم تكن معركة حاسمه فالمعركة الحاسمة لها شروط تتمثل في الفتك بالجيش المعادي ويصبح رجاله

بين قتيل وأثير وجريح وتؤدي التي تغيير توزيعات القوى السياسية على الأرض وهو أمر لم يحدث بالنسبة لتلك المعركة ولو كانت أرسوف حاسمة لتمكن ريتشارد من بعدها من استرداد القدس وهو ما لم يحدث والخلاصة أن حطين كانت حاسمة وأرسوف لم تكن كذلك.

على أية حال؛ غادر ريتشارد بلاد الشام بعد عقد صلح الرملة في 2 سبتمبر عام 1192م مع صلاح الدين الأيوبي وفيما بعد؛ تعرض ريتشارد للأثر على يد دوق النمسا ثم تم إطلاق سراحه وعاد إلى إنجلترا ليواصل الحرب ضد فرنسا وقتل بسهم خطأ من جانب أحد أتباعه عام 1199م.

- **الملك يوحنا والعهد الأعظم**

تولى حكم إنجلترا بعد ريتشارد الأول (1189-1199)م، أخوه يوحنا الذي حكم خلال المدة من (1199-1219)م وأهم عبارة نوردها عن ذلك الملك أنه "أحتل مكانه بارزة في التاريخ بفضل أخطائه الكبرى"، كما قرر العلامة أ. د. سعيد عاشور.

اختلافه مع البابوية:

حدث في عام 1205م أن صار منصب رئيس أساقفة كانتربري شاغراً فقام رجال الدين في إنجلترا باختيار رئيس أساقفة جديد دون علم الملك حتى لا يسمحوا له بالتدخل في شؤونهم وأرسلوه إلى البابا في روما،ثم قام الملك يوحنا باختيار شخص أخر ليتولى ذلك المنصب وأرسله هو الأخر إلى البابا أيضاً، فما كان من البابا إلا أن أعرض عن الاثنين وأختار شخصاً أخر وهو ستيفن لانجتون، ورفضه يوحنا مما جعل البابا يفرض ضده الحرمان الكنسي عام 1208م بالإضافة إلى قسوته وقتله أحد رجال الدين، وظل الأمر معلقا بين البابا وملك إنجلترا مدة خمس سنوات إلى أن أضطر الأخير في النهاية إلى الإذعان وقبل تعيين ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربري، ويلاحظ أن ذلك جاء في وقت تزايد فيه خطر خصمه الفرنسي فليب أغسطس،كذلك أتجه إلى أن يرد إلى الكنيسة الأراضي التي كان صادرها كما أنه تعهد بدفع مبلغ سنوي لها دليلاً على التبعية.

ومن ناحية أخري تمكن فليب أغسطس من إلحاق الهزيمة بملك انجلترا عـام 1214م وقد فرض ضريبة جديدة على الأمراء لمساعدته في مواصلة الحرب ضد ملـك فرنسا الأمر الذي أدى إلى زيادة سخطهم عليه، فأجتمع الأمراء وتقدموا بمطالبهم له فأخذ يماطل فيها فاحتلوا لندن واضطروه إلى الموافقة على العهـد الأعظـم وذلـك في 15 يونيو 1215م،

ما هي أهم الملاحظات في شأن العهد الأعظم:-

1. أقر العهد الأعظم بحقوق الكنيسة خاصة في انتخاب القساوسة.
2. حرم على الملك جمع إتاوات دون موافقة ما عـرف بـالمجلس الكبير،وذلـك مـع وجود استثناءات مثل أسر الملـك، أو تدشـين أكـبر أبنائـه فارسـاً، أو زواج كـبرى بناته،
3. سمح العهد الأعظم للتجار بأن يدخلوا البلاد ويباشروا نشاطهم دون مضـايقات أو إزعاج.
4. أقر بأنه في حالة مصادرة الدولة أملاك بعض الأشخاص؛ يتم تعويضهم التعويض الملائم.
5. أكد العهد الأعظم أنه لا يتم الاكتفاء بالشبهات والأقاويل من أجل إلحاق تهمه بشخص ما؛ بل لا بد من وجود أدلة دامغة من خلال عدد من الشهود.
6. أهم مادتين في العهد الأعظم مادة رقم (39) التي أقـرت بأنـه لا يجـوز القـبض على أي شخص حر أو سجنه أو سلب ممتلكاته إلا بعد محاكمتـه وفـق أحكـام القانون المعمول بها.

أما المادة (40) فهي مادة على جانـب كبـير مـن الأهميـة،حيث أقـرت بـأن الملـك خاضـع للقـانون، وأن القـانون فـوق الملـك،وإذا حـاول الخـروج عليـه وجـب استعمال القوة من أجل إخضاعه.

ويلاحظ أنه على الرغم من أن النبلاء لم يملكوا القوة الفعلية لإلزام الملك إلا أن الفكرة كانت عنصراً مهماً في الدستور الإنجليـزي وكانـت تعنـي أن ملكيـة ملـوك إنجلترا مقيدة من خلال عدد من الضوابط التي تحكمها.

على أية حال، من الملاحظ أن كلاً من الملك والأمراء لم يلتزموا بما ورد في العهد الأعظم وقاموا بمهاجمة الأراضي الملكية وعندئذ أشتكى الملك للبابا الذي فرض الحرمان الكنسي على أولئك الأمراء ومن بعد ذلك توفي الملك يوحنا نتيجة لإفراطه في الطعام والشراب كما قرر أ. د. سعيد عاشور.

ملحوظة:-

من العرض السابق يتضح لنا أن ذلك الملك لم يملك الخبرة السياسية الكافية وتفوق علية منافسة الفرنسي فليب أغسطس، وقدم تنازلات من خلال ضغوط البابوية والأمراء وإذا قورن بوالده الملك هنري الثاني يتضح الفارق الشاسع، وإذا وجدت ميزة لعصره فإنها تتمثل في ظهور العهد الأعظم الذي يحاول المؤرخون الإنجليز المبالغة في شأنه على الرغم أنه كان مجرد وثيقة أقطاعية لتنظيم العلاقة بين الملك والأمراء الإقطاعيين، وبالفعل تصدق على ذلك الملك عبارة هي "انه احتل مكانة بارزة في التاريخ بفضل أخطائه الكبرى".

- **هنري الثالث (1216-1272)م:-**

خلف هنري الثالث في حكم إنجلترا وكان في التاسعة من عمره ولذلك تولى حكم إنجلترا عدد من النبلاء وقد وصل إلى السلطة الفعلية عام 1227م،وبتوليته عادت إنجلترا إلى مرحلة فساد تمثل في تولية المناصب الدينية بالعناصر الإيطالية وذلك بإيعاز من البابوية كما قامت البابوية بجباية الأموال الطائلة لتمويل الحروب الصليبية مما أدى إلى زيادة سخط الإنجليز.

يذكر عن عهد هنري الثالث أنه خلال حكمة عقد البرلمان الشهير عام 1265م الذي تمثل فيه نواب عن المدن لأول مرة وقد توفي هنري الثالث عام 1272م في وقت كان فيه أبنه إدوارد متغيبا في حملة صليبية في بلاد الشام.

- **إدوارد الأول (1272-1307)م:-**

أهم أعماله:

أولا: عمل على إخضاع ويلز وصار ولى عهد إنجلترا يطلق عليه ملك ويلز وذلك منذ عام 1301م.

ثانياً: أصدر تشريعاً يحد من ازدياد أراضي الكنيسة عن طريق الهدايا والمنح وصارت تحت الإدارة الملكية.

ثالثا: بدأ في إضطهاد اليهود وقام بطردهم من البلاد عام 1290م،ويلاحظ هنا أن اليهود عوملوا معاملة سيئة بصفة عامة في أوروبا العصور الوسطى بينما كانت معاملتهم ممتازة في العالم الإسلامي فقد وصلوا في العصر الفاطمي الى منصب الوزارة،وفي العصر الأيوبي كان موسى بن ميمون الطبيب الخاص لصلاح الدين الأيوبي.

- **إدوارد الثاني (1307-1327)م:**

كان سيء السيرة وثارت ضده اسكتلندا وهزم من جانب أهلها وقد استمر في حياة الفساد إلى أن وقعت فوضى ضاربه انتهت بأن قام البرلمان بعزله وإعدامه سراً عام 1327م كما قرر أ. د. سعيد عاشور.

- **إدوارد الثالث (1327-1377)م:**

أهم أحداث عصره تتمثل في:

بداية حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا وهي حرب انتهت عام 1453م، من ناحية أخرى حدث في عهده الفناء الكبير الذي أجتاح أوروبا في منتصف القرن 14 الميلادي وقد أدى إلى الفتك بأعداد كبيرة من السكان وقلت الأقوات وارتفعت الأسعار،ويلاحظ أن ذلك الوباء كان ظاهرة عالمية امتدت من الصين إلى غرب أسيا والقسم الشمالي من أفريقيا ووصل إلى أوروبا.

ولا نغفل أنـه في عهـد إدوارد الثالـث ظهـرت حركـه جـون وكلـف (1324-1384)م وكان أحد المصلحين الدينيين ونادى بحق الدولة في مصادرة أملاك الفاسدين من رجال الدين.

- **ريتشارد الثاني (1377-1399)م:-**

في عهده حدثت الثورة العظمى عـام 1381م وقـام بهـا الفلاحـون والصـناع نظراً لسـوء الأوضـاع الاقتصـادية،ويلاحظ أن البرلمـان ألقـى القـبض ريتشـارد الثـاني وأعدمه سراً عام 1399م.

- **هنري الرابع (1399-1413)م:-**

في عهده أزداد نفوذ حركة جون وكلف وانتشرت أفكارة خاصة في الطبقـات الفقيرة.

- **هنري الخامس (1413-1422)م:-**

أستمر في قمع أنصار جون وكلف وتـزعم المعارضـة ضـده جـون أولدكاسـل وتم إلقاء القبض عليه إلا أنه تمكن من الفرار.

فرنسا في عهد أسرة آل كابيه

لا شك في أن الحقيقة التاريخيـة الكـبرى في تـاريخ فرنسـا في القـرن العـاشر تتمثل في قيام أسرة آل كابيه التي حكمـت مـن خـلال مؤسسـها هيـو كابيـه (987-996)م،

ويلاحظ أن هيو كابيه كان يعاني من منافسة الكثير مـن الأمـراء الإقطـاعيين حيث كان هنـاك 56 مـن كبـار الأمـراء الإقطـاعيين يقومـون بسـك النقـود الخاصـة بهم،بالإضافة إلى وجود عشر لهجات رئيسية كبرى في فرنسا،وقد تكونت فرنسـا مـن عدة دوقيات مثل:- برجنديا، فلاندرز، أكويتاين، بريتاني، نورمنديا.

ويلاحظ وجود اختلافات بين شمالي فرنسا وجنوبها فالقسم الشمالي تأثر بالتراث الجرماني أما القسم الجنوبي فقد تأثر بالتراث الروماني.

آل كابيه الأوائل: (987-1108)م:

أهم شخصية تتمثل في هيو كابيه وقد قام بتتويج أبنه خلفاً له في حياته وبالتالي وضع الأساس الذي سار عليه من أتي من بعده على مدى القرنين التالين وتوالى حكام الأسرة:

هيو كابيه 987-996م.

روبرت الثاني 996-1031م.

هنري الأول 1031-1060م.

فليب الأول 1060-1108م.

ويقرر العلامة أ. د. سعيد عاشور أنه لم يكن لدى أحد من هؤلاء نشاط يستحق الانتباه،وقد سعوا إلى تدعيم نفوذهم في المنطقة المحيطة بباريس وهي المعروفة بجزيرة فرنسا.

يلاحظ أن فليب الأول انتهز فرصة حاجة أمير برج للمال من أجل المشاركة في الحملة الصليبية الأولى وأشترى منه إقطاعه مما وسع من دائرة نفوذه.

لويس السادس 1108-1137م:-

عمل على تدعيم نفوذه ولم يأت عام 1120م إلا كان الملك في مقدوره التنقل في أنحاء أراضيه دون حاجة إلى حراسة أو جيوش.

وقد وجدت فرصه سانحة لتوسيع نفوذه عندما أوصى وليم العاشر دوق أكويتاين وهو على فراش الموت عام 1137م أن تتزوج أبنته أليانور ما أبن لويس السادس الذي سيتولى حكم فرنسا تحت أسم لويس السابع.

في عهد لويس السادس أستمر الصراع مع إنجلترا خاصة بشأن نورمنديا حيث حرص كل طرف على إخضاعها لسيطرته.

لويس السابع 1137-1180م:-

توافرت له عناصر القوة من خلال ما ورثته زوجته أليانور من والدها وليم العاشر.

واجه لويس السابع حركه تمرد من جانب ثيبولد كونت شامبني عام 1147م وتطور الأمر إلى أن قام الملك الفرنسي بإحراق كنيسة فيتري التي كانت عامرة باللاجئين فاحترق فيها ما قدره البعض بألف شخص من الرجال والنساء والأطفال وقد فكر لويس السابع في التكفير عن ذلك من خلال الاشتراك في الحروب الصليبية خاصة الحملة الصليبية الثانية (1147-1149)م والتي أشترك فيها إلى جانبه كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا وذلك رداً على إسقاط عماد الدين زنكي أتابك الموصل لأمارة الرها الصليبية عام 1144م.

ويلاحظ أن هناك دوافع أخري لاشتراكه في الحروب الصليبية مثل دعم نفوذ أسرة آل كابيه شرق البحر المتوسط خاصة أن فرنسا كانت أم الحروب الصليبية وترعى الوجود الصليبي في بلاد الشام وأعالي الفرات كذلك هناك دافع اقتصادي ويتمثل في الحفاظ على حركه الصادرات والواردات الخارجة من فرنسا والقادمة إليها عبر البحر المتوسط.

أما فيما يتصل بعلاقته مع إنجلترا فقد حرص على أثارت أبناء هنري الثاني ضد والدهم من أجل أضعاف شأن الملكية في إنجلترا ولا شك أن الأخيرة مثلت العدو التقليدي لفرنسا طوال العصور الوسطى.

فليب أغسطس (1180-1223)م:-

يعد فليب أغسطس أهم وأقوى ملوك فرنسا وأكثرهم تأثيراً في التاريخ الفرنسي وكذلك في تاريخ العلاقات الإنجليزية الفرنسية وكذلك تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ويلاحظ أنه حكم 43 عاماً وبالتالي أستطاع تأكيد سياسته المدعمة لنفوذ أسرة آل كابيه.

أتجه فليب أغسطس إلى عقد أتفاق مع ملك إنجلترا هنري الثاني وبموجبه عقد صلحاً معه ليتفرغ لمواجهه الأمراء الذين كانوا مزدوجي الولاء بين ملك فرنسا وملك إنجلترا وبالفعل دخل فليب أغسطس في حرب مع الأمراء المتمردين فيما بين عامي 1181-1185م مستغلاً فترة الهدنة مع ملك إنجلترا.

على أية حال حدثت معركة حطين في 4 يوليو 1187م وأسترد صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس في 2 أكتوبر 1187م ولذلك قامت الحملة الصليبية الثالثة التي شارك فيها فليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفريدريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا، وقد حركت فليب أغسطس ذات الدوافع التي حركت من قبل لويس السابع عندما أشترك في الحملة الصليبية الثانية.

ولم يمكث الملك الفرنسي طويلاً في الشرق إذ عاد بعد ذلك إلى فرنسا ليتآمر على ريتشارد أثناء غيابه،وقد عمل على إثارة يوحنا ضد أخيه ريتشارد قلب الأسد وفيما بعد أستغل ضعف يوحنا وتمكن من الاستيلاء على نورمنديا عام 1205م، وبذلك حقق أكبر أنجاز لحساب فرنسا عجز عن تحقيقه ملوك سابقين مثل: فليب الأول، ولويس السادس، ولويس السابع، وقد أدى ذلك إلى ارتفاع شأن فليب أغسطس الذي صار الرجل الثاني في أوروبا بعد إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

من الأحداث المهمة التي وقعت في عهد فليب أغسطس ما يعرف بالحملة الألبيجنسية ويلاحظ في هذا المقام ظهور اتجاهين دينيين في صورة الوالدنسيين والكتاريين، والوالدنسيين هم أتباع بيتر والدو الذي أخذ يدعو إلى حياة الزهد والتقشف وهاجم رجال الدين الذين حققوا مكاسب مالية وقد أصطدم مع البابا بشأن حريته في الوعظ وفرض البابا عليه الحرمان وأعتبر أتباعه هراطقه أو كفار.

أما الكتاريين فقد تأثروا بعقائد الفرس القديمة خاصة مذهب ماني الذي رأى أن للعالم إلهين أله للخير وأخر للشر وكان يرمز للأول بالنور والثاني والظلام، وقد تجمع الكتاريون في منطقة البي في منطقة تولوز بفرنسا مما جعلهم يعرفون بالالبيجنسيين.

طالب البابا أنوسنت الثالث من فليب أغسطس مواجهة أولئك الهراطقه غير انه كان منهمكا في الصراع مع إنجلترا وتحمس الأمراء في شمالي فرنسا لمواجهتهم ونجحوا في ذلك عام 1209م.

أما إنجازات فليب أغسطس وإصلاحاته فيذكر له إحداث نهضة كبيرة في فرنسا وقد أنتعش الاقتصاد في عهده وصارت باريس من كبريات مدن الغرب الأوروبي ويقال أنها صارت أول عاصمه لدولة مركزية في أوروبا.

يذكر لفليب أغسطس أن جامعة باريس حصلت في عهده على أول براءة ملكية ضمنت لها مكاسبها وامتيازاتها ويلاحظ أن كافة أعمال فليب أغسطس ذهبت هباءً أما العمل الوحيد الذي لا يزال باقيا حتى يومنا هذا فيتمثل في جامعة باريس المعروفة بجامعة السربون وهي من أعرق الجامعات الأوروبية، ويلاحظ أن الجامعات في أوروبا العصور الوسطى عملت على تغيير عقول المعاصرين على نحو سيساعد في الانتقال إلى العصر الحديث.

لويس الثامن (1223-1226)م:-

تولى من بعد والده فليب أغسطس ويلاحظ أن أبنه تولى الحكم من بعده تحت اسم لويس التاسع (1226-1270)م.

لويس التاسع (1226-1270)م:-

عندما توفي والده كان عمره 12 عاماً فتولت الوصاية عليه أمه بلانش القشتاليه،يذكر عنه قيامه بحملتين صليبيتين على مصر عام 1250م وعلى تونس عام 1270م وقد أخفق في الحملتين ويلاحظ أننا ينبغي ألا نسير وراء مؤرخ سيرته جان دي جوانفيل الذي أعتبره قديسا والحقيقة أنه كان سياسياً فرنسياً داهية وحركته دوافع اقتصادية وسياسية أكثر مما حركته الدوافع الدينية.

من السلبيات التي تذكر عنه اضطهاده لليهود وكذلك الحركات المعارضة للكنيسة في جنوبي فرنسا.

فليب الثالث (1270-1285):-

يعد ملكاً ذو أهميه محدودة وفي عهده تم توسيع أملاك التاج الفرنسي بعد ضم أراضي الأمراء الذين هلكوا في حملات لويس التاسع في مصر وتونس.

فليب الرابع (1285-1314)م:-

أهم أحدث عصره اضطهاده لليهود وطردهم من فرنسا ثم أعادتهم مره أخرى وتكرار ذلك كما أن في عهده تمت محاكمة عناصر هيئة الداوية أو فرسان المعبد الذين لعبوا دوراً بارزا في عصر الحروب الصليبية في بلاد الشام وقام بتحويلهم إلى محاكم التفتيش وقام عام 1310م بإحراق 54 من فرسانهم كما أصدر عام 1312م أمرا بمصادرة أملاك الهيئة وحلها وفي عام 1314م قام بإحراق مقدمهم جاك دي مولاي.

يلاحظ أن المؤرخ الإنجليزي مالكوم باربر حصل على الدكتوراه في موضوع محاكمة الداوية.

كان فليب الرابع أخر ملوك آل كابيه.

ألمانيا والإمبراطورية الرومانية

المقدسة

هنري الصياد (919-936)م:

قام هنري الصياد بإقامة مراكز حصينة في شرقي سكسونيا من أجل مواجهة هجمات الأعداء مثل الدانيين، وقد تحولت فيما بعد إلى مجمعات تجارية نشيطة تقوم بحمايتها عناصر من السكسون.

أوتو الأول (936-973)م:

يعد أوتو الأول أو الكبير بمثابة المؤسس الحقيقي للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

اتجه أوتوا إلى أن يدعم نفوذه على مختلف أنحاء ألمانيا، كما حرص على تعيين أقاربه في كافة مناصب الدوقيات الشاغرة، كما أتجه إلى الحصول على دعم الكنيسة وقد رأى في قوة الأساقفة ما يعينه على مواجهة نفوذ الأمراء، كذلك عمل على أن ينصب من نفسه حامياً للكنيسة وأملاكها، وصار رجال الدين في عهده على درجة كبيرة من السلطة والنفوذ.

ويلاحظ أن أوتو اتجه إلى التدخل في ايطاليا من أجل فرض سيطرته على البابوية، ولم تلبث الظروف أن ساعدته على ذلك عندما توفي لوثر ملك إيطاليا وفرت أرملته طالبة مساعدة أوتو من الملك الجديد برنجار، وهكذا؛ تقدم أوتو إلى غزو لمبارديا عام 951م حيث تزوج من الأرملة الحسناء واعترف له برنجار بالتبعية كذلك دعم نفوذه في الكثير من المناطق الأخرى.

على أية حال؛ لم تكد تنتهي سنة961م -كما يقرر العلامة أ. د. سعيد عاشور- إلا كان أوتو الأول قد تخلص من مشكلاته الداخلية والخارجية التي واجهته، وعاد يفكر من جديد في مشروعه الإمبراطوري الضخم وقد شاركة الكثيرون في إعادة الإمبراطورية من جديد.

مهما يكن من أمر تعرض البابا يوحنا 12 إلى مضايقات من برنجار وأستنجد بأوتو عدة مرات بين عامي 957،961م.

وأخيراً؛ أتجه أوتو الكبير إلى عبور جبال الألب إلى إيطاليا ودخل روما عام 962م حيث توجه البابا يوحنا الثاني عشر إمبراطوراً في نفس المكان الذي تم فيه تتويج شارلمان من قبل عام 800م على يد البابا ليو الثالث.

ويلاحظ أن أوتو أصر قبل أن يتم تتويجه إمبراطوراً أن يقسم البابا له بيمين الولاء مما جعل البابا يوحنا الثاني عشر يدس لأوتو عند الإمبراطور البيزنطي والمسلمين بالإضافة إلى برنجار نفسه.

ولا نغفل؛ أن الإيطاليين رفضوا الخضوع لسيطرة أوتو، وقد حاول فرض سيطرته على جنوب إيطاليا دون جدوى بسبب معارضة بيزنطة لذلك.

ويلاحظ أن تدخل أوتو في إيطاليا كانت بداية لما عرف بالمشكلة الإيطالية في السياسة الألمانية وتعني فرض ألمانيا لنفوذها في إيطاليا، ورفض الإيطاليين الخضوع للسيادة الألمانية.

يبقى أن نذكر؛ أن عهد أوتو شهد نهضة علمية تلك التي عرفت في التاريخ بالنهضة الأوتية أو السكسونية، وقد تزعم تلك النهضة برونو وهو الأخ الأصغر للإمبراطور أوتو وظهر في ظروف تلك النهضة وهو من برع في اللغة اللاتينية بل أن أوتو درسها ولكن لم يستطع التحدث بها.

أوتو الثاني (973-983)م:

أختلف أوتو الثاني عن والده، فقد رأى أن إيطاليا لا تقل أهمية عن ألمانيا، ولذلك عمل على أن يربط بينهما برباط الإمبراطورية القوى.

من ناحية أخرى؛ يلاحظ أن دوقية بافاريا أرادت الانفصال، فعمل على مقاومة ذلك الاتجاه وسعى إلى سلخ بعض أجزائها الشرقية والشمالية عنها.

من زاوية أخرى؛ اتجه إلى أن يشدد قبضته على ألمانيا من خلال الكنيسة كذلك سعى على تفتيت ممتلكات كبار الأمراء.

في عهده أستنجد البابا به من أجل مواجهة أحد أمراء روما الأقوياء، فعبر أوتو جبال الألب عام 980م وأعاد البابا بندكت السابع إلى روما، ولا نغفل أنه أستغل فرصة وجوده في إيطاليا وقام بحملتين على المنطقة الجنوبية من أجل مواجهة هجمات المسلمين من ناحية وكذلك ليدعم حقوق زوجته في جنوبي ايطاليا في مواجهه بيزنطة، ويلاحظ أن المسلمين تمكنوا من إلحاق الهزيمة به عام 982م عند خليج كولون.

أوتو الثالث (983-1002)م:

وصل إلى الحكم في سن صغير فقامت بالوصاية عليه عناصر من الكنيسة، ويلاحظ أن أمه ثيوفانو دعمته من بعد ذلك حتى بلغ السن القانوني، وأهم أعماله تتمثل في:

-ذهب إلى إيطاليا من أجل حماية البابا ضد أعدائه مثلما فعل من قبل أوتو الأول وأوتو الثاني، وبالفعل قام البابا الجديد جريحوري الخامس بتتويج أوتو الثالث إمبراطوراً وتكرر إستعانه البابا به فذهب إلى إيطاليا لحماية البابا الجديد من خصومه.

هنري الثاني(1002-1024)م:

دخل في صراع مع السلاف الذين أرادوا إبعاد النفوذ الألماني إلى ما وراء جبال الألب وتمردوا بقيادة بوليسلاف، ودخل هنري الثاني في صراع مرير معهم أستغرق عدة سنوات من 1004إلى1018م.

أما إيطاليا فقد ذهب إليها مرتين وفي المرة الثانية توجه البابا إمبراطوراً وكانت الصفقة الدائمة هي: الحماية مقابل التتويج.

ويلاحظ أن ذلك الإمبراطور أيد أنصار حركة دير كلوني أصحاب مبدأ العمل عبادة.

Laborare est erare

كونراد الثاني (1024-1039)م:

تم انتخاب كونراد الثاني دوق سوابيا ملكاً في وقت كانت الأمور مضطربة في ألمانيا فعمل على إصلاح أمور البلاد.

قام بالذهاب إلى شمال إيطاليا عام 1026م وأمضى هناك عاماً كاملاً قام فيه بإخضاع خصوم، ثم ذهب إلى روما حيث توج إمبراطوراً مثلما الأمر بالنسبة لأباطرة ألمانيا السابقين، ومن أهم إنجازاته ضم مملكة آرال إلى ألمانيا وبالتالي حال دون ذهابها إلى فرنسا، ويلاحظ أن آرال كانت مركزاً من مراكز الحركة الكولونية مما ساعد على انتشار تلك الحركة بعد انضمامها إلى ألمانيا.

هنري الثالث (1039-1056)م:

يقرر العلامة أ. د. سعيد عاشور أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة بلغت ذروة قوتها على عهد هنري الثالث ويمكن إجمال أهم أعماله على النحو التالي:

- تمكن من التوصل إلى أتفاق مع رئيس أساقفة ميلان الذي أتجه إلى حل الخلافات بالصورة السلمية بعد وفاة كونراد الثاني.
- ومن أهم أعمال هنري الثالث؛ تدخله في إيطاليا من أجل إنقاذ البابوية من الحضيض الذي وصلت إليه، فيلاحظ أن أحد الأمراء تولى المنصب البابوي تحت أسم بندكت التاسع عام 1033م على الرغم من حداثة سنه.

ثم لم يلبث أن باع منصبه مقابل بعض المال إلى بابا أخر هو جريجوري السادس في العام التالي 1034م، وقد قام دعاة الإصلاح الديني بعقد مجمع كنسي واستنجدوا بالملك هنري الثالث، وبالفعل قدم إلى إيطاليا فقام بمواجهه تلك الأوضاع وعزل المنحرفين.

هنري الرابع والصراع مع جريجوري السابع:

توفي هنري الثالث في 1056م، فخلفه أبنه هنري الرابع الذي كان في السادسة من عمره فظل تحت الوصاية مدة 15 عاماً أي حتى عام 1072م.

على أية حال؛ تولى السلطة في وقت كانت البابوية تمر بمرحلة قوى، ويتمثل ذلك في البابا جريجوري السابع والذي تنسب له الأوامر البابوية.

حدث خلاف بين هنري الرابع وجريجوري السابع بشأن التقليد العلماني أي حق لكل منهما في تعيين الأساقفة، وبالفعل قام هنري الرابع بتعيين عدد منهم دون موافقة البابا وقام هنري الرابع بعقد مجمع في ورمز عام 1076م أتخذ قراراً بعزل البابا جريجوري السابع وأرسل هنري الرابع رسالة إليه يقول له فيها:"من الإمبراطور هنري الرابع إلى هيلد براند الذي ليس بابا حقيقي وإنما مجرد راهب مزيف"وقد فرض عليه البابا الحرمان الكنسي فقام هنري الرابع بعزله، وأمام فرض الحرمان المذكور وجد هنري الرابع نفسه بلا سلطة، بل وتمرد الأمراء ضده في ألمانيا ولذلك أتجه إلى الذهاب إلى البابا حيث التجأ إلى صديقته الكونتيسة ماتيلدا في قلعة

كانوسا في مقاطعة توسلكانيا في إيطاليا وقد قدم إليه هنري الرابع وهو بثياب رقه بالية وتركه البابا ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع فتح البابا باب القلعة وتقدم إليه الإمبراطور معتذراً، وعرفت تلك الحادثة بزلزال كانوسا، ويلاحظ أن البابا قام بإلغاء الحرمان الكنسي، ومن بعد ذلك عاد هنري الرابع إلى ألمانيا لمحاربة الأمراء المتمردين، ثم قام البابا بفرض حرمان أخر ضده وأتجه إلى محاربته فلجأ إلى النورمان وظل لديهم إلى أن توفي.

موجز تاريخ الإمبراطورية البيزنطية 330-1453م

ترجع أهمية تاريخ الدولة البيزنطية إلى أنها دامت 11 قرناً منذ القرن الرابع حتى القرن الخامس عشر الميلادي، فهي تعد أطول إمبراطورية في تاريخ العصور الوسطى.

لا نغفل؛ أن تلك الإمبراطورية دخلت في علاقات دولية متعددة مع روسيا، وإيطاليا، والصليبيين، والمسلمين وغيرهم وبالتالي فأن تاريخها موزع بين عدد كبير من الدول الأخرى مما عكس أهمية ذلك التاريخ.

بدأ تاريخ تلك الدولة عام 330م عندما أسس قسطنطين الكبير القسطنطينية، وأفتتحها في 11 مايو عام 330م.

وقد توالت الأسرات البيزنطية الحاكمة في صورة:

- أسرة قسطنطين (306-378)م.
- أسرة ثيودوسيوس (379-518)م.
- أسرة جستنيان (518-610)م.
- الأسرة الهرقلية (610-717)م.
- الأسرة الأيسورية (717-820)م.
- الأسرة العمورية (820-867)م.
- الأسرة المقدونية (867-959)م.
- أسرة آل كومنين (1057-1185)م.
- أسرة أنجيلوس (1185-1204)م.

- أسرة باليولوغوس (1261-1453)م.

ويلاحظ أن تلك الإمبراطورية لم تسقط إلا مرتين الأولى عام 1204م خلال أحداث الحملة الصليبية الرابعة ومن بعد ذلك سقطت عام 1453م، على أيدي الأتراك العثمانيين في عهد محمد الفاتح العثماني ومن بعدها انتهت من الوجود وتحولت القسطنطينية إلى أن صارت الأستانة أو أستانة السعادة أو أسلام بول، وهي الآن ضمن حدود تركيا.

أشهر وأبرز أباطرة الإمبراطورية البيزنطية الآتي:

- قسطنطين الكبير، وترجع أهميته إلى قيامه بعملين هما:

1. تشييد القسطنطينية عام 330م.
2. وقف الاضطهاد الذي لحق بالمسيحية من خلال ما عرف بمرسوم ميلان، ويلاحظ أنه لم يعتنق المسيحية إلا على فراش الموت.

ويلاحظ أن التاريخ البيزنطي بدأ بقسطنطين عام 330م، وأنتهى بقسطنطين الحادي عشر عام 1453م.

- هناك الإمبراطور ثيودوسيوس الذي جعل المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية، وعمل على أن يحارب المذاهب الوثنية الأخرى.
- ولا نغفل الإمبراطور جستنيان 527-565م الذي قام بأعمال بارزة في صورة:

1. مقاومة ثورة النصر نيكا 532م وذلك بمساعدة زوجته ثيودورا.
2. تجميع القانون الروماني في صورة: الجامع، والمختار، والمتجددات.

ويعد إنجازه القانوني من أهم ما قام به في عصره،

3. قام بحرب إسترداد للقسم الغربي للإمبراطورية من أيدي الرومان وانفق في سبيل ذلك أموالاً طائلة وقتل الكثيرون من أبناء الإمبراطورية، وأنفق أعواماً عديدة، إلا أن مشروعه في ذلك المجال لم يوفق لأن الجرمان في أخريات

عهده عادوا إلى سابق عهدهم لأنهم أقاموا جذوراً لهم في الأرض الرومانيـة، ولم يكن من الممكن أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء.

لا نغفل تـأثير زوجتـه ثيـودورا عـلى حكمـه؛ وهـي التـي تناولهـا بـالهجوم بروكوبيوس في كتابه التاريخ السري.

- هناك أيضاً الإمبراطور هرقل الذي حكم في القرن السابع الميلادي والـذي تمكـن من هزيمة الفرس، ومن بعد ذلك أتجه إلى الاصطدام بالمسـلمين الـذين حققـوا انتصارات حاسمة لاسيما خلال معركة اليرموك التـي قادهـا سـيف الله المسـلول خالد بن الوليد، ويلاحظ أن المؤرخ ميشيل السرياني ذكـر في حوليتـه أن هرقـل قال:

Vale Syria et Ultimatum Vale

أي الوداع يا سورية وداعاً نهائياً لا أرى أن أرجع إليك أبداً.

ولذلك يوصف هرقل بالإمبراطور التعيس على اعتبار أنه لم يهنأ بانتصاره.

- الكسـيوس كـومنين (1080-1181)م: وهـو مـن أبـرز أبـاطرة الإمبراطوريـة البيزنطية، وهو والد الأديبة البيزنطية أنا كومنينا مؤلفـة كتـاب الكسـياد، وقـد واجه الحملات الصليبية وعقد مع الصليبيين معاهدة القسطنطينية عام 1097م ولكن لم تنفذ، وفي عهده بدأت المشكلة الأنطاكية في السياسـة البيزنطيـة وهـي المشكلة التي لن تحل إلا في القرن ال13م عندما أستولى الظـاهر بيـبرس عليهـا عام 1268م.

على أية حال؛ توفي الكسيوس كومنين عام 1118م في نفس العام الذي تـوفي فيه الملك الصليبي بلدوين الأول الذي يعد المؤسـس الفعـلي لمملكـة بيـت المقـدس الصليبية.

ويلاحـظ أن مـن أهـم أبـاطرة أسرة كـومنين نـذكر مانويـل كـومنين وهـو إمبراطور فاشل بكافة المقاييس فشل في الشرق عنـدما هـزم في معركـة مرياكيفـالون

على أيدي السلاجقة عام 1176م، كما أنه هزم في مشروع استرداد أملاك بيزنطة في الغرب الأوروبي، وكانت سياسته مقدمة لكارثة 1204م.

- على أية حال في عهد أسرة أنجيلوس سقطت بيزنطة عام 1204م؛ وفيها تعرض البيزنطيون لأول مرة للإحتلال الذي أستمر قائماً حتى عام 1271م عندما تمكن ميخائيل باليولوغوس من استرداد القسطنطينية من أيدي اللاتين.

ويلاحظ أن الصليبيين خلال أحداث الصليبية الرابعة قاموا بالآتي:

- اغتصاب الراهبات في الأديرة مما عكس وحشيتهم وتجردهم من الأخلاق.
- قاموا بنهب وسلب كل ما وقعت أعينهم عليه من تحف ونفائس.
- قاموا بقتل من وجدوه من البيزنطيين.

ويكفي أن نقول أن المؤرخ البيزنطي نيكتاس خونياتس

Nicetas Choniates

قال: "انه يتمني أن تسقط القسطنطينية على أيدي المسلمين وليس على أيدي البرابرة الصليبيين نظراً لما عرف عنهم من تحضر".

ويلاحظ أن المرحلة من 1504-1453م تعد بمثابة الاحتضار البيزنطي طويل الأجل إلى أن سقطت على يدي محمد الفاتح العثماني، ويلاحظ أن بيزنطة سقطت من الداخل قبل أن تسقط من الخارج من خلال ضعفها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

الحروب الصليبية

القرنان 12،13م/6،7 هـ

في أخريات القرن 11م/5هـ؛ شن الغرب الأوروبي هجوماً ضخماً على المسلمين في بلاد الشام، وكان دافعه في ذلك-في الظاهر- إسترداد الأماكن المقدسة

المسيحية في فلسطين، وفي الحقيقة وجدت عدة دوافع لتلك الحركة التاريخية الكبرى في تاريخ العصور الوسطى.

واقع الأمر؛ في يوم 27 نوفمبر من عام 1095م، قام البابا أوربان الثاني (1089-1099)م بعقد مجمع كنسي في مدينة كلير مونت فرون بفرنسا، وقد أستمر المجمع المذكور عدة أيام ناقش فيه البابا مع رجال الكنيسة مختلف القضايا وفي اليوم الأخير من أيام الإنعقاد ألقى البابا خطاباً على مستمعيه قام فيه بالدعوة إلى ما عرف بالحروب الصليبية Crusades.

وقد قدم الإغراءات العديدة للمشاركين في صورة أرض كنعان التي تفيض لبناً وعسلاً، كذلك هناك الغفران الكنسي من الآثام والخطايا، وفور إلقاء البابا خطابه صاح الحاضرون صيحة واحدة في صورة الله يريد ذلك، وكانت تلك صيحة المسيحية لمحاربة الإسلام، وأهله.

والواقع أن هناك عدة دوافع كانت وراء تلك الحركة التاريخية الكبرى في العصور الوسطى ويمكن إجمالها على النحو التالي:

أولاً: الدافع الديني:

وهو خاص بالحج إلى الأماكن المقدسة للمسيحيين في فلسطين، حيث أراد الغرب الأوروبي السيطرة عليها، وإبعاد المسلمين عنها لزعم وجود اضطهاد للحجاج هناك، وهو من أوهام المتعصبين في ذلك العصر، ويؤكد المؤرخ هانز ماير عدم وجود أدلة حقيقية على حدوث اضطهاد من جانب الأتراك السلاجقة لعناصر الحجاج الأوروبيين، وأنما زعمت البابوية ذلك من أجل إثارة الغرب الأوروبي للاشتراك في الحروب الصليبية.

ثانياً: الدافع الاقتصادي:

فيلاحظ أن المدن التجارية الإيطالية مثل جنوة، وبيزا، والبندقية أرادت السيطرة على تجارة الشرق، وإلغاء دور المسلمين كوسطاء تجاريين.

من ناحية أخرى؛ ظهر بجلاء ذلك الدافع أثناء أحداث الحملة الصليبية الرابعة، عندما سقطت مدينة القسطنطينية لأول مرة في تاريخها على أيدي الصليبيين وذلك في عام 1204م، وكانت البندقية تهدف من وراء ذلك إلى القضاء على تجارة بيزنطة وإنهاء منافستها لها ويؤكد الباحثون الأوروبيون أنفسهم أن الدافع الاقتصادي كان المحرك الأساسي من وراء الحملة الصليبية المذكورة التي عرفت بالصليبية الرابعة.

ثالثاً: الدافع السياسي:

فقد أراد الملوك والأمراء الأوروبيون الاشتراك في الحروب الصليبية؛ من أجل تكوين أملاك لهم في الشرق، وتدعيم نفوذ بلادهم وينطبق ذلك على عدد كبير من ملوك وأمراء أوروبا ومن أمثلتهم ريتشارد قلب الأسد (1189-1199)م، وفيليب أغسطس (1180-1223)م، وفريدريك بارباروسا (1152-1190)م، وغيرهم وبالتالي يتأكد لنا أن الحروب الصليبية كانت بمثابة مجال خصب للتنافس الدولي بين القوى الأوروبية.

رابعاً: الدافع الإجتماعي:

فيلاحظ أن النظام الإقطاعي في أوروبا العصور الوسطى أحتوى على هرم طبقي عبارة عن الذين يحاربون وهو الفرسان وعلى رأسهم الملك، والذين يتعبدون وهم رجال الكنيسة، ثم هناك الذين يزرعون وهم الفلاحون والأقنان الذين يقومون بزراعة الأرض، وهؤلاء كانت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية بالغة السوء، فكان القن يعيش قناً ويموت قناً، وينتشر في صفوفهم الفقر، والجهل، والمرض بل إذا ما أراد القن أن يتزوج قام السيد الإقطاعي باغتصاب زوجته، ولا شك أن كافه تلك الظروف البالغة القسوة قد شجعت الآلاف منهم على أن يشاركوا في الحروب الصليبية؛ من أجل التخلص من الأحوال الاقتصادية والاجتماعية السيئة التي يعيشون فيها.

خامساً: الدافع التنصيري:

في صورة رغبة البابوية في نشر المسيحية الكاثوليكية في مناطق المسلمين وقد كان هناك مشروع من أجل ذلك، غير أنه فشل بل وأنتشر الإسلام في صفوف الصليبيين، وتحدثت الحوليات الصليبية عن اعتناق جماعي لنحو الفين من الصليبيين للإسلام خلال أحداث الحملة الصليبية الثانية فيما بين عامي 1147،1149م، ومن بعد ذلك كان الفرسان الصليبيون يأتون إلى صلاح الدين الأيوبي لكي يشهروا إسلامهم على يديه والأمر المؤكد أن الإسلام كدين ختامي متكامل أثبت قدرته على دخول قلوب أعدائه من الصليبيين وحتى المغول من بعد ذلك.

سادساً: دافع خاص بالفروسية:

حيث أرادت البابوية استغلال الطاقة الحربية لدى الفرسان من أجل أن تدفعهم لحرب المسلمين بدلاً من التحارب فيما بينهم، حيث فشلت الهدن التي قامت بها، ولم يتم احترامها من جانبهم.

سابعاً: لا نغفل الدوافع الخاصة بالبابوية

حيث أراد البابا أسقف كنيسة روما التي أسسها القديس بطرس رأس الحواريين، أن تخضع كنيسة القسطنطينية التي كانت خارجة عن سيطرتها خاصة بعد الانشقاق الأعظم عام 1054م فيما بين الكنيستين ويلاحظ أنها نجحت في ذلك عام 1204م في ظروف الحملة الصليبية الرابعة.

على أية حال؛ قامت الحملة الصليبية الأولى وانقسمت إلى حملة شعبية فاشلة شارك فيها الأقنان، وحملة منظمة شارك فيها عدد من الأمراء الصليبيين مثل بوهمند، تانكرد، وجودفري دي بويون، وبولدوين دي بويون وغيرهم وتمكنت من هزيمة السلاجقة في معركة ضوريلوم عام 1097م، ثم تقدمت إلى أسيا الصغرى وتم حصار أنطاكية وإسقاطها عام 1098م ومن بعد ذلك؛ تم التوجه إلى بيت المقدس حيث كانت خاضعة لسيطرة الفاطميين بعد أن أخضعها السلاجقة من قبل، وهكذا؛ تمكن الغزاة من دخول المدينة المقدسة في يوم الجمعة 15 يوليو 1099م؛ حيث

قاموا بعمل مذبحة مروعة قتل فيها عشرات الآلاف من المسلمين وكانت الخيول تخوض في برك من الدماء.

ويقرر أحد المؤرخين الصليبيين المعاصرين وهو مؤرخ الجيستا أن جماجم القتلى من المسلمين لو تجمعت لأقامت أسواراً تفوق أسوار بيت المقدس في ارتفاعها مما عكس لنا هول وبشاعة المذبحة.

ومن بعد ذلك تكونت مملكة بيت المقدس الصليبية في صورة إمارة الرها أعالي الفرات، وأنطاكية في أعالي بلاد الشام، وطرابلس بلبنان، ثم بيت المقدس وذلك على حساب المسلمين، وظل الصراع بين الطرفين على مدى قرنين من الزمان 12، 13م/6،7هـ إلى أن أمكن طرد الغزاة نهائياً عام 1291م من عكا الصليبية.

لم يكن من الممكن أن يقف المسلمون مكتوفي الأيدي أمام ما يحدث على أرضهم من عدوان وإحتلال سافر خاصة أن الغزاة قدموا للاستقرار وليس من أجل السلب والنهب والعودة إلى بلادهم مرة أخرى، ومن ثم ظهر قادة حركة الجهاد الإسلامي وقد بدأت من الموصل بشمالي العراق، ويعد شرف الدين مودود أتابك الموصل من أبرز المجاهدين خلال تلك الفترة المبكرة، وقد تمكن من إلحاق الهزيمة بالمؤسس الفعلي لمملكة بيت المقدس الصليبية وهو الملك الصليبي بلدوين الأول (1100-1118)م فيما عرف بمعركة الأقحوانة عام 1113م غير أنه أغتيل على أيدي بعض الحشاشين الذين كانوا من الإسماعيلية النزارية في المسجد الأموي بدمشق.

على أية حال؛ توالت قافلة المجاهدين المسلمين مثل إيلغازي، وأقسنقر وغيرهما، لكن في عهد الأتابك عماد الدين زنكي أتابك الموصل؛ تمكن من إسقاط أول إمارة صليبية في صورة إمارة الرها وذلك في عام 1144م، غير أنه تم أغتياله في عام 1146م أي بعد عامين فقط من إنجازه التاريخي البارز.

تولى الأمر من بعده أبنه نور الدين محمود الذي يوصف بأنه مهندس حركة الجهاد الإسلامي في النصف الثاني من القرن 12م ويمكن إبراز أهم إنجازاته على النحو التالي:

1. تمكن من إخضاع حلب لسيطرته وذلك في عام 1146م، ومن بعد ذلك خاض عدة معارك مع الصليبين، وأنتصر عليهم فيها مثل يغري، وأنب، وحارم، وفي عام 1154م تمكن من ضم دمشق وبالتالي وحد حلب عاصمة شمالي بلاد الشام ودمشق عاصمة الأمويين من قبل لسيطرة سيد واحد.
2. استغل الصراع الوزاري بين شاور وضرغام في مصر الفاطمية، وتدخل في شئونها على نحو أدى في النهاية إلى إخضاعها لسيطرته من خلال تلميذه الفذ صلاح الدين الأيوبي الذي أسقط الخلافة الفاطمية وذلك في يوم 10 سبتمبر عام 1171م وكان ذلك يوافق الجمعة الأولى من شهر المحرم من عام 567هـ وبذلك تمكن من تحقيق أعظم إنجازاته على الإطلاق؛ لأن مصر عندما ستتحد مع بلاد الشام سيكون ذلك معناه وحدة العمل العسكري والسياسي من أجل طرد الغزاة وإلحاق الهزيمة بهم.

يبقى أن نذكر هنا؛ مقدم حملة صليبية فيما بين عامي 1147 و 1149م وعلى رأسها الملك الفرنسي لويس السابع والإمبراطور الألماني كونراد لثالث وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثانية وذلك من أجل أسترداد الرها فإذا بها تحاصر دمشق !!!، وقاومها الدماشقة مقاومة بطولية، وبالفعل تمكنوا من إفشالها، وكان لذلك أثره في أن أدرك نور الدين محمود أهمية إخضاع دمشق لسيطرته، وهو بالفعل ما قام به عام 1145م كما أسلفت الإشارة من قبل.

توفي نور الدين محمود عام 1174م، ليحمل الراية من بعده تلميذه الفذ صلاح الدين الأيوبي ويمكن إيجاز أهم أعماله على النحو التالي:

أولاً: تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية عام 1171م، وبالتالي تم القضاء على تلك الدولة التي عاشت في سبات عميق ولم تتفهم المتغيرات الدولية المحيطة بها، ولا ريب في أن إسقاطها أحدث تطوراً مهماً لحركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين فقد استيقظت مصر- وستتحد مع الشقيقة الجغرافية والتاريخية في صورة بلاد الشام.

ثانياً: تقدم بقواته من بعد وفاة نور الدين محمود وأخضع دمشق لسيطرته ودانت له الموصل بالولاء وفيما بعد حلب وعمل على تكوين جيش ضخم مستغلاً في ذلك سهول ووديان النيل، والفرات، والعاصي ولا شك في أن قوة بشرية

كبيرة كانت تحت يده، وظل في مرحلة الإعداد على مدى المرحلة من 1171م حتى عام 1187م أي 16 عاماً.

ثالثاً: في عام 1187م؛ التقى مع الصليبيين في معركة حطين الفاصلة التي وقعت في غربي بحيرة طبرية وذلك في يوم 4 يوليو من العام المذكور، وفيها تم إلحاق الهزيمة بالمملكة الصليبية، والقضاء على الجيش الصليبي الذي وقع بين قتيل، وجريح، وأسير، ولا نغفل؛ أن ذلك القائد التاريخي أستغل سلاح التعطيش ضد أعدائه، وكان الطقس حاراً، وأشعل المسلمون الحشائش، فأجتمع على الصليبيين حر الشمس، وحر النار، وحر العطش، وقد نتج عن معركة حطين الحاسمة الأتي:

1. إسقاط القلاع الصليبية التي كانت تثبت الكيان الصليبي في الأرض العربية وهي قلاع كانت من الكثرة بحيث قدرها البعض بنحو 120 قلعة.
2. فتح الساحل الشامي بعد أن ظل سنوات وسنوات خاضعاً للصليبيين ومثل لهم الرئة التي من خلالها يتم اتصالهم بالوطن الأم في أوروبا.
3. تمكن المسلمون من دخول بيت المقدس في 2 أكتوبر 1187م بعد أن ظلت تحت الاحتلال الصليبي من 15 يوليو 1099م إلى التاريخ المذكور؛ مما عكس أهمية يوم حطين في الصراع الإسلامي-الصليبي بصورة سلمية ولم يرق قطرة دماء صليبية واحدة ودل ذلك على تسامحه العظيم وبذلك تحققت رؤية المؤرخ الصليبي وليم الصوري الذي أمتدح صلاح الدين وتوقع أن تسقط المملكة على يديه ونصح بني قومه دون جدوى وكان كصوت صارخ في البرية.

على أية حال؛ قدمت الحملة الصليبية الثالثة التي شارك فيها ريتشارد قلب الأسد، وفيليب أغسطس، وفريدريك بارباروسا، وذلك خلال المرحلة من 1189-1192م، ولكن فشلت بفضل جهاد المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وأنتهت بعقد صلح الرملة 2 سبتمبر 1192م، وفيما بعد توفي القائد البارز في مارس 1193م بعد أن دخل التاريخ من أوسع أبوابه مدافعاً عن دينة وأرض أمته وهو مدفون في دمشق ويلاحظ كثرة السائحين الذين يقومون بزيارة ضريحه تقديراً وإعجاباً به ولا نغفل أن ذلك القائد أشارت إليه مئات الموسوعات على مستوى العالم بكافة اللغات ولم يجتمع العالم على تقدير قائد مثلما حدث مع صلاح الدين الأيوبي الذي يكفيه فخراً أن الصليبيين انبهروا به ونسجوا بشأنه أسطورة لا تزال عالقة في العقل الجمعي الأوروبي.

مهما يكن الأمر؛ هناك الحملة الصليبية الرابعة التي سقطت خلالها العاصمة البيزنطية، وتجرع البيزنطيون لأول مرة كأس الاحتلال المرير، وتكونت إمبراطورية لاتينية على أرض بيزنطة وسيستمر ذلك الوضع حتى عام 1271م عندما يتمكن القائد ميخائيل باليولوغوس من استرداد العاصمة البيزنطية لأبنائها من أيدي اللاتين أبناء الغرب الأوروبي.

أما الحملة الصليبية الخامسة؛ فقد جرت وقائعها بين 1218-1222م، وفيها هاجم الصليبيون مدينة دمياط المصرية على ساحل البحر المتوسط عند مصب نهر النيل، وظلوا بها عامين، ومن بعد ذلك قاومهم المصريون وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بهم، وانسحبوا إلى بلاد الشام وهم يجرون أذيال الخيبة والعار.

يلاحظ أن القرن 13م/7هـ شهد عدة حملات على مصر نظراً لاعتقاد الصليبيين أن الطريق لاسترداد بيت المقدس يبدأ من القاهرة.

أما الحملة السادسة؛ فقد شارك فيها الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني الذي كان صديقاً للملك الكامل الأيوبي وقد أتفق معه عام 1229م على إتفاقية يافا التي على أساسها قدم القدس للصليبين على طبق من ذهب، وتنازل عن عدة مناطق أستردها المسلمون بدماء الشهداء عقب معركة حطين الحاسمة عام 1187م؛ ولا ريب في أن ذلك عد كارثة قام بها ذلك السلطان الأيوبي الذي لم يستفد من درس التاريخ، وفرط في القدس التي عادت إلى المسلمون بعد صراع طويل مع الأعداء.

على أية حال؛ في عام 1244م؛ حدثت معركة غزة الثانية وعلى أثرها دخل الخوارزمية بيت المقدس وتمكنوا من استردادها من أيدي الصليبيين.

وفيما بعد حدثت الصليبية السابعة التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع الذي هاجم مصر من أجل أن تكون قاعدة للانطلاق صوب بيت المقدس، ولكن تعرض لهزيمة قاسية في فارسكور عام 1250م، وتم أسره في دار القاضي ابن لقمان بمصر.

وفيما بعد؛ تم فك أسره بعد أن دفع فدية كبيرة من المال، ولا يزال دار أبن لقمان يعد متحفاً في المنصورة بمصر دليلاً على هزيمة ذلك الملك الذي أراد دعم نفوذ أسرة آل كابيه الفرنسية على حساب أملاك المسلمين.

وفي عام 1270م؛ وبعد عشرين عاماً من الهزيمة على أرض مصر- حركت لويس التاسع أحلام الفارس القديم، فأتجه إلى مهاجمة تونس ظناً منه أن حاكمها المستنصر الحفصي من الممكن أن يتنصر، ولكن العكس كان صحيحاً إذ قاوم ذلك السلطان ومعه أبناء تونس مقاومة بطولية أقرت بها الحوليات الصليبية مثل حولية بريما

Chronique De Prima

وأثبتت قيام أهل تونس بمهاجمة مواقع قوات الاحتلال الصليبية، وفي نهاية المطاف مات لويس التاسع في يوم 25 أغسطس 1270م من جراء وباء أنتشر- في صفوف جنوده، وأنسحب الغزاة بعد أتفاق سلمي بينهم وبين التوانسه.

على أية حال؛ ظل الصليبيون في المنطقة، ولكن حرص المماليك بعد الأيوبيين على طردهم نهائياً وقد قام ثلاثة من سلاطين المماليك بدور بارز من أجل طرد بقايا الوجود الصليبي، وهم:-

- **الظاهر بيبرس** المؤسس الفعلي لدولة سلاطين المماليك في مصر، وقد قاد المسلمين نحو إسقاط إمارة أنطاكية وذلك عام 1268م/666هـ.
- **المنصور قلاوون** الذي قاد المسلمين نحو إسقاط إمارة طرابلس الصليبية عام 1289م/688هـ وهي آخر إمارة صليبية تسقط في قبضة المسلمين.
- **الأشرف خليل بن قلاوون** الذي قام بحصار عكا آخر المعاقل الصليبية الكبرى، وبالفعل أستطاع المسلمون إسقاطها وذلك عام 1291م/690هـ.

وبالتالي أنتهى الوجود الصليبي في بلاد الشام وأثبتت بلاد الشام قدرتها على الأمتصاص، والفلتره، واللفظ، وانتقل الغزاة إلى جزر البحر المتوسط مثل قبرص، ورودس، ومالطة، واستقروا بها بعد خروجهم من المنطقة العربية، وان لم تتوقف أطماعهم وهجماتهم بل استمرت بين الحين والآخر.

علينا أن نحلق تحليق الصقر الذي يرصد وقائع التاريخ من أعلى لكي يدرك الحصاد الختامي لتلك التجربة المريرة التي شكلت مرحلة مهمة في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ويمكن القول إن تجربة الحروب الصليبية تثبت لنا عدة دروس يمكن الإستفادة منها وهي كالأتي:

أولاً: إن ضعف المسلمين في أخريات القرن 11م/5هـ ثم التناحر بين الخلافة العباسية السنية، والدولة الفاطمية الشيعية أوجد فراغاً سياسياً، سهل للغزاة الصليبيين أن ينجحوا في هزيمة المسلمين وبالتالي يكون المسلمون قدموا الفرصة السانحة لأعدائهم من أجل غرس كيانهم الدخيل في المنطقة.

ثانياً: تأكد لنا منطق التاريخ الذي ما أنحرف يوماً، وهو أن الحركات التاريخية الكبرى المتحضرة هي التي تبقى أما تلك التي قامت على التعصب، والدماء، والجماجم فإنها لا تستمر، وهو أمر لاحظناه بجلاء في الكيان الصليبي الذي مكث في المنطقة 200 عاماً تقريباً وفي النهاية كان مصيره الفشل.

ثالثاً: كان الجهاد الإسلامي هو الملاذ بالنسبة للمسلمين وقد ألتفوا حول القادة الذين دافعوا عن أمتهم مثل عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس وغيرهم، ومن المهم الإقرار بأن التاريخ لا يصنعه عدد قليل من القادة فقط، بل أن الشعوب تلتف حولهم من أجل صنع تاريخها، ومن الخطأ البين تصور أن الأمر مرتبط فقط بتلك القيادات وحدها كما حاول بعض المستشرقين تصويره بل أن الشعوب الإسلامية نفسها شاركت مشاركة أساسية في صنع تلك الإنتصارات.

رابعاً: على الرغم من أن الصليبيين حاولوا القضاء على هوية المنطقة الدينية واللغوية؛ إلا أنهم أخفقوا في ذلك، وظلت محتفظة بالإسلام كدين واللغة العربية، على نحو يثبت لنا أن تلك الزاوية كانت-وبحق-عنصراً أساسياً في مواجهه مخططات الصليبيين ويضاف إلى ذلك -بطبيعة الحال-استبسال شعوبها في الدفاع عن نفسها في مواجهة الغزو الأوروبي للمنطقة الذي لم يكن يهدف فقط إلى السلب والنهب بل الاستقرار الدائم على حساب الشعوب الأصلية صاحبة الأرض، ولا نغفل عنصر مهم أدى إلى فشل الحركة صليبية في صورة ضعف الروح الصليبية في الغرب الأوروبي مقارنة بما كان عليه الوضع في أخريات القرن 11م/5هـ ثم أن دول الغرب الأوروبي

انهمكت في مشكلاتها الداخلية على نحو جعلها لا تتفرغ تماماً لدعم الصليبيين في بلاد الشام الذين وقعوا فريسة لصراعاتهم الداخلية على نحو أضعفهم في وقت كانت فيه حركة الجهاد الإسلامي في مرحلة متقدمة من النضج والرغبة في تحقيق إنجازات تاريخية.

خامساً: من الملاحظ أن الحروب الصليبية كانت بمثابة المعبر الذي عبرت من خلاله الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوروبي، مع عدم إغفال معبرين آخرين في صورة صقلية وجنوبي إيطاليا، والأندلس ومن المهم إدراك أن الصليبيين في بداية الأمر انتصروا على المسلمين عسكرياً، لكن بعد أن أنقشع غبار المعارك لاحظنا أنهم هزموا حضارياً إذ تفوق المسلمون عليهم في المستوى الحضاري وهو أمر أتضح بجلاء من خلال كتابات المؤرخين المعاصرين سواءً من المسلمين أو الصليبيين.

ولا نغفل أن تلك الحروب استفادت منها أوروبا أكثر مما أستفاد منها المسلمون، ومن بعد انتهائها في بلاد الشام، بدأت أوروبا في الانتقال على أعتاب عصر تاريخي جديد في صورة العصر الحديث، وهكذا كان القرنان 12،13م/6،7هـ مرحلة حاسمة في تطور أوروبا حضارياً بصورة غير مسبوقة.

ملحوظة: عن الحروب الصليبية أنظر:

أبن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق.

أبن الأثير، الكامل في التاريخ.

أبو شامة، الروضتين في تاريخ الدولتين.

أبن واصل، مفرج الكروب في تاريخ بني أيوب.

أبن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.

أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر.

أبن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر.

بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة.

William Of Tyre, A History Of Deeds Done Beyond The sea،

إرنست باركر، الحروب الصليبية.

رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية.

قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية.

علية الجنزوري، أمارة الرها الصليبية.

السيد الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية.

محمد مؤنس عوض:

1. الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب.
2. فصول ببليوغرافية في تاريخ الحروب الصليبية.
3. الزلازل في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية.
4. الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية.
5. الرحالة الأوروبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية1099-1187م.
6. الرحالة الأوروبيون في العصور الوسطى.
7. عالم الحروب الصليبية بحوث ودراسات.
8. في الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية.
9. في الصراع الإسلامي الصليبي معركة أرسوف 1191م.
10. الحروب الصليبية السياسة-المياه-العقيدة.
11. سندباد في عصر الحروب الصليبية.
12. الحروب الصليبية بحوث تاريخية ونقدية.
13. أغارات أسراب الجراد في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية.
14. الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية.

15. الحروب الصليبية لسيتون وبولدون ترجمة وتحرير بالأشتراك مع د. سعيد البيشاوي.
16. الظاهر بيبرس مؤسس دولة سلاطين المماليك في مصر.
17. من رحالة الشرق والغرب في العصور الوسطى.
18. من أعلام الطب في العصور الوسطى.
19. القلاع الصليبية في العصور الوسطى.
20. الحروب الصليبية التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في مملكة بيت المقدس الصليبية.
21. العلاقات بين الشرق والغرب (العصور الوسطى) لتكريم أ. د. أسحق عبيد، (تحرير).

(يستفيد المؤلف من أية ملاحظات نقدية على المؤلفات السابقة) ودائماً يردد قوله تعالى "وفوق كل ذي علم عليم" صدق الله العظيم.

أثر الحروب الصليبية على الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي

نتناول في العرض التالي -على نحو موجز- الآثار التي تركتها الحروب الصليبية على مدى القرنين 12،13م على الجانب الإسلامي وكذلك على أوروبا العصور الوسطى ذاتها.

أما فيما يتصل بالجانب الإسلامي، فيلاحظ على المستوى السياسي أن تلك الحروب كشفت عن ضعف الدولة العباسية، وكذلك الدولة الفاطمية عن مواجهة الغزو الصليبي لبلاد الشام، ولذلك قامت دول تولت أمر جهاد الصليبيين مثل الدولة الزنكية وعلى رأسها عماد الدين زنكي، والدولة النورية وعلى رأسها نور الدين محمود، ثم الدولة الأيوبية ومؤسسها صلاح الدين الأيوبي، ومن بعدها دولة سلاطين المماليك التي يعتبر الظاهر بيبرس المؤسس الفعلي لها.

أما على الصعيد الاقتصادي، نجد أن تلك الحروب انعكست سلباً على وضع المسلمين التجاري، إذ أنتقلت المكاسب إلى الجانب الصليبي خاصة مدن التجارة الإيطالية مثل جنوة، وبيزا، والبندقية.

أما على المستوى الإجتماعي، نجد أن الحروب الصليبية أدت إلى بعض المظاهر الاجتماعية السلبية مثل ظاهرة التيتم والترمل، خاصة مع وجود من أستشهد في المعارك ضد الصليبيين وبالتالي ترك أسرته دونما عائل.

وإذا انتقلنا إلى المستوى الفكري؛ نجد أن ذلك العصر شهد ظهور مجموعة بارزة من المؤرخين عملوا على تأليف مؤلفات تتناول أحداث الصراع مع الغزاة منهم: ابن عساكر (ت1176م) مؤلف تاريخ مدينة دمشق، وابن القلانسي- (ت1160م) مؤلف ذيل تاريخ دمشق، وابن الأثير (ت 1232م) مؤلف كتاب الكامل في التاريخ، والتاريخ الباهر والقاضي بهاء الدين بن شداد (ت1234م) مؤلف سيرة صلاح الدين الأيوبي تحت عنوان النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية.

كذلك ظهر مبدعون في مجال الجغرافيا والرحلات لعل من أبرزهم ياقوت الحموي (ت1228م) مؤلف معجم البلدان، وابن جبير (ت 1216م) مؤلف الرحلة الشهيرة.

كذلك ظهر عدد من كبار الشعراء حاربوا بأقلامهم من خلال القصائد الشعرية نذكر منهم على سبيل المثال العماد الكاتب الأصفهاني (ت1201م)، وابن القيسراني (ت 1153م)، وابن الساعاتي (ت 1207م).

أما الجانب الأوروبي، فمن المهم ملاحظة أن أوروبا قدمت إلى الشرق وهي متصورة تخلفه الحضاري فإذا تصطدم بحضارته ولم يكن أمامها إلا أن تجلس مجلس التلميذ في مدرسة الشرق التي تفيض بالعلوم والمعارف.

ويمكن أن نضرب أمثلة على مدى ما استفادت منه أوروبا باتصالها بالشرق من خلال الحروب الصليبية من خلال الآتي:

1. **في مجال الكتابة التاريخية؛** ظهر لدى الصليبيين عدد من المؤرخين على أن أهمهم على الإطلاق المؤرخ وليم الصوري

William Of Tyre

رئيس أساقفة صور الذي ألف كتابين هما:

- تاريخ الأعمال التي جرت فيما وراء البحر.
- تاريخ الأمراء الشرقيون.

وقد أمتاز وليم الصوري بمعرفته اللغة العربية بالإضافة إلى عدد من اللغات الأخرى، كذلك تأثر بكتابات عدد من المؤرخين المسلمين كما أنه أفاد من الوثائق الرسمية التي قدمها له الملك الصليبي عموري (1163-1174م).

2. **في مجال الجغرافيا** ظهر عدد بارز من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الشرق ووصفوا الأماكن المقدسة للمسيحيين في فلسطين، ونذكر منهم سايولف، ودانيال الروسي، وثيودوريك الألماني، وبنيامبن التطيلي، وبتاحيا الراتسبوني وغيرهم، وتعد كتاباتهم مصدراً تاريخياً مهماً عن ذلك العصر.

ويلاحظ أن معارف أوروبا الجغرافية تزايدت إلى درجة كبيرة من خلال عصر الحروب الصليبية، ولا نغفل؛ أن القرن الثالث عشر ظهر خلاله أشهر رحالة أوروبي في العصور الوسطى وهو البندقي ماركوا بولو Marco Polo.

3. **إذا نظرنا في مجال أخر في صورة الطب**؛ نجد أن أوروبا استفادت خلال ذلك العصر بأن ترجمت كتاب علي بن العباس المجوسي مؤلف كتاب كامل الصناعة الطبية حيث ترجمه ستيفن الأنطاكي Stephen Of Antioch.

حوالي عام 1127م واستفادت منه أوروبا نظراً لأهميته البارزة في المجال الطبي وكان من ضمن الكتب التي تم تدريسها في مدرسة سالرنو الطبية بإيطاليا.

كذلك تفيد نصوص كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ في توضيح أن الصليبيين استفادوا من معارف المسلمين الطبية.

4. على مستوى الفروسية كانت الحروب الصليبية فرصة تاريخية ليلتقي فيها الفارس المسلم البارز السلطان صلاح الدين الأيوبي مع ريتشارد قلب الأسد الفارس الإنجليزي الذي تفوق السلطان عليه من خلال أخلاقه ويكفي أنه

عندما مرض في يافا أرسل لـه صـلاح الـدين طبيبـة الخـاص مـوسى بـن ميمـون اليهودي ومعه الفاكهة والثلج في لفتـة إنسـانية نـادرة التكـرار في التـاريخ، لـذا فليس غريبـاً أن ينبهـر الصـليبيون بـأخلاق صـلاح الـدين الأيـوبي وجعلـوا منـه أسطورة راسخة في الفكر الأوروبي.

5. على مستوى العمارة، تأثر الصليبيون بنظام السقاطات (أشبه بالمشربيات) الذي وجدوه لدى القلاع الإسلامية فأدخلوه في قلاعهم.

كل ما سبق يدل دلالة واضحة على أن أوروبا قدمت إلى المشرق فاسـتفادت منه في كافة المجالات وعادت بعد أن تغيرت من خلال حضارته الخالدة.

[2014]

الفصل السادس

حروب الدولة السلجوقية وأثرها على الامبراطورية البيزنطية

[6]

دار البداية ناشرون وموزعون

حروب الدولة السلجوقية وأثرها على الامبراطورية البيزنطية

السلاجقة أو بنو سلجوق هي سلالة تركية حكمت في أفغانستان وإيران وأجزاء من الأناضول وسوريةوالعراق والجزيرة العربية ما بين 1038-1157م)ثم حتى 1194م)المقر: مرو ثم اصفهان.

ينتمي السلاجقة إلى قبيلة "قنق" إحدى العشائر المتزعمة لقبائل الغز التركية.

دخلت هذه العشيرة في الإسلام أثناء عهد زعيمها سلجوق سنة 960 م، دخلوا بعدها في خدمة القراخانات (قره خانات) في بلاد ما وراء النهر.

وقام أحفاد سلجوق، (طغرل بك1063-1038م) (وجغري1060-1038م) بتقسيم المملكة إلى نصفين، والنصف الغربي وقاعدته اصفهان، النصف الشرقي وقاعدته مرو، بعد انتصاره على الغزنويينسنة 1040م بالقرب من دنكان توسعت مملكة طغرل بك إلى الغرب أكثر، ثم ضمت فارس إليها سنة 1042 م بعض الأجزاء من الأناضول، ثم العراق أخيراً سنة 1055م، بعد القضاء على دولة البويهيين في العراق دخل طغرل بك بغداد في 25 رمضان447 هـ23/ ديسمبر1055م.

أطلق المؤرخون على الفترة التي دخل فيها السلاجقة العراق اسم عصر نفوذ السلاجقة، حيث كانت بيدهم مقاليد الأمور ولم يبق للخليفة العباسيسوي بعض المظاهر والرسوم، وأعلن طغرل بك نفسه كحام للخلافة العباسية وخلع عليه الخليفة لقب السلطان وشب صراع على الحكم بعد وفاة طغرل بك ولكن لم تلبث الأمور أن هدأت بعد قيام ألب أرسلان بتولي الحكم والقضاء على الثورات، ثم بلغت الدولة أوجها في عهد السلطان ألب أرسلان (1072-1060/63م) ثم ملك شاه(1092-1072م) من بعده، كما قام وزيره نظام الملك(1092-1060/65م)، بإنشاء العديد منالمدارس لتثبيت مذهب أهل السنة في المنطقة، واستولى السلاجقة على أرمينيا سنة 1064م، ثم بسطوا سيطرتهم على الحجاز والأماكن المقدسة منذ 1070م لفترة قصيرة، كما حققوا انتصاراً حاسماً على البيزنطيين في ملاذكرد سنة 1071م.

في سنة 1092م وبسبب كثرة المتسابقين على عرش السلطنة بين أفراد العائلة، أصبحت المملكة السلجوقية ممالك عدة، وتمكن محمود (1105-1118م) بتوحيدها من جديد إلا أن أمر التقسيم كان محتوماً، فقامت مملكة سلجوقية في العراق وإيران ودامت إلى حدود سنة 1194م، وأخرى في الشرق أقامها السلطان أحمد سنجر(1118-1157م) والتي لم تعمر طويلاً بعده، وكان على خلفائه ومنذ 1135م الصراع مع جيرانيهم، قضى عليهم شاهات خوارزم (خوارزمشاهات) أخيراً سنة 1194م، فقامت ممالك أخرى للسلاجقة:

- في كرمان1041-1187م)؛ المقر: بردشير، راجع سلاجقة كرمان.
- في الشام (1094-1117م)؛ المقر دمشق ثم حلب، راجع سلاجقة الشام.

في الأناضول (1077-1308 م)؛ المقر نيقية (إزنيق حاليا) ثم قونية، راجع سلاجقة الروم.

يَعود أصل الأتراك إلى قبيلة "قنق" (tr)، وهي إحدى قبائللالغز الثلاثة والعشرين الذين يُشكلون فرعاً من الأتراك، بدأت هذه القبائل منذ النصف الثاني من القرن السادس الميلاديسلسلة من الهجرات الكبيرة إلى أرض الأناضول لأسباب متعددة، ربما تكون قلة الغذاء والأراضي بشكل رئيسي. لكن أثناء الهجرة استقرت القبيلة لفترة من الزمن فيجرجان وطبرستان وعمل أفرادها هناك في خدمة ملك تركي يُدعى "بيغو"،وكان منهم سلجوق بن دقاق الذي كان من كبارهم وحصل على رتبة "سباشي" أو "قائد الجيش" عند الملك التركي، لكن بسبب قوة سلجوق وتبعية أفراد القبيلة الكبيرة له وطاعتهم لأوامره، فقد بدأ بيغو يَقلق حول سيطرته على الجيش التركي وخشيَ من سلجوق، حتى أنه بدأ يُدبر لقتله، وعندما علم سلجوق بالأمر جمع قبيلته ورحل إلى مدينة خجندة قرب نهر سيحون في حيث كان الحكم الإسلامي سائداً في المنطقة، وهناك أعلن إسلامه وأخذ يُحارب الأتراك الوثنيين في منطقة تركستان.

بحلول القرن الخامس الهجري كانت قوة السلاجقة قد تعالت وأصبحوا دولة قوية، مما بدأ يُثير قلق السلطان محمود الغزنوي حاكم الدولة الغزنوية في بلاد الهند وفارس، وبسبب هذا قام محمود بشن حملة على السلاجقة عام 415 هـ انتهت بالقبض على سلطانهم أرسلان بيغو وعدد كبير من أتباعه، وأرسل أرسلان إلى

سجن قضى فيه أربع سنوات ثم مات، لكن في عام 419 هـ ثار السلاجقة وخرجوا عن سيطرة محمود، فأرسل إليهم بعض الجنود لكنهم هُزموا وتابع السلاجقة سيرهم عبر بلاد ما وراء النهر، فدمروا ونهبوا العديد من المدن، فأرسل إليهم محمود الغزنوي أمير طوس الذي استمر بملاحقتهم سنتين في تلك البلاد، لكن في عام 421 هـ توفي محمود دون أن يَقضي على السلاجقة، فسار ابنه مسعود بن محمود إليهم حيث طلبوا الصلح، وبهذا توقف النزاع بين الطرفين لفترة قصير، وما إن سار مسعود إلى الهند لقمع تمرد آخر ثار السلاجقة مُجدداً، فأرسل إليهم جيشاً التقوا معه في نيسابور وهزمهم، ولذا فقد انسحبوا إلى الري فنشبت بينهم وبين مسعود آخر معركة واستطاع أن يَهزمهم ويخضعهم.

كل الحروب المذكورة سابقاً قادها أتباع أرسلان بيغو الذي قبض عليه محمود الغزنوي على أيامه، لكنهم هُزموا بعد حربهم مع مسعود، في حين أتى مكانهم طغرل بك بن ميكائيل- ابن أخي أرسلان - الذي قاد حروب السلاجقةبعد ذلك وقام بتأسيس الدولة السلجوقية، لكن في هذا الوقت وبعد هزيمة أتباع أرسلان كان يُريد "علي تكين"(ملاحظة 1) أن يُصبح هو قائد السلاجقة، فاستدعى "يوسف بن موسى بن سلجوق" (ابن عم طغرل) وأكرمه كثيراً وحاول استمالته إلى طرفه لكي يُساعده ضد طغرل، لكن عندما علم يُوسف بذلك رفض ولم يَقبل بمعاونته، وبعد أن يأس علي تكين من استمالته قام بقتله، وقد كبر قتل يُوسف على طغرل، فجمع عشائره ولبسوا ثياب الحداد وجمع ما استطاع من الترك للثأر، وجمع علي تكين جيوشه أيضاً، ثم التحم الجيشان وهُزم جيش علي، وبعد ذلك استمر طغرل بملاحقته، فجمع علي كل جيوشه وكل من استطاع من الأتراك والتقى مع جيوش طغرل في معركة ضخمة عام 421 هـ هُزم فيها طغرل وقتل الكثير من جنده.

بسبب هذه الهزيمة لم يَعد طغرل قوياً كفاية، فراسل مسعوداً بن محمود لما كان ذاك في طبرستان طلباً للصلح، فاستغل مسعود هذه الفرصة وقبض على رسل السلاجقة كي لا يَعودوا بأخبار إلى طغرل ثم جمع جيشاً جراراً وسار إليهم وفاجأهم فألحق بهم هزيمة كبيرة، لكن بعد انتهاء المعركة بدأ جنود مسعود يَتصارعون فيما بينهم على الغنائم، وصدف في الوقت نفسه أن داوداً (معاون طغرل) كان يَقول لجنود السلاجقة أن تلك فرصة للإيقاع بجنود مسعود بعد أن انشغلوا بالغنائم والنصر وأحسوا بالأمان ففقدوا تيقظهم، فهاجم السلاجقة مُجدداً وانتصروا، وخلال

هذه المعركة كان مسعود في نيسابور ووصلته أخبار الحرب، فبدأ يَخاف منهم وعرض عليهم أن يُعطيهم أراضي من دولته لكي يَكفوا عن محاربته، لكنهم رفضوا عرضه، فبدأ يُرسل إليهم الجيوشلكنهم هُزموا الواحد تلو الآخر، استمر مسعود بتجاهل السلاجقة لفترة بعد أن يأس منهم، ثم قرر في النهاية أن يَعود إلى محاربتهم وجمع جيشاً ضخماً لكن قائد الجيش (وهو حاجب مسعود) كان جباناً فأغار قليلاً على مرو ثم سار مُجدداً وعاد إليها بعد ذلك فأصاب جنوده التعب واستطاع طغرل هزيمته في سنة 428 هـ وبعد هذه المعركة سيطر السلاجقة على خراسان.

استمرت الحرب في السنوات اللاحقة بين الطرفين وبدأ طغرل يَغلب، فقلق مسعود وجمع جيشاً جراراً واتجه إلىخراسان في العام نفسه والتقى مع الأتراك السلاجقة في معركة حاسمة تعرف بمعركة داندقان هُزم فيها مسعود، وحكمت هذه المعركة ببداية حكم السلاجقة ونهاية قوة الغزنويين، وبعدها توقف مسعود عن المقاومة وأسس السلاجقة إحدى أقوى دول المشرق، والتي يُعد عام 429 هـ هو عام تأسيسها الحقيقي.

1. الحرب مع البويهيين

قرر السلاجقة من أبناء سلجوق الاتحاد معاً تحت زعامة طغرل بك مع مساعدة أخيه داود وعمه موسى بن سلجوق بعد سيطرتهم على الحكم في أرض خراسان خلال عامي 431و432 هـ فكان هذا هو قيام الدولة السلجوقية، حتى أنه يُقال أن طغرلاً أعطى لأخيه سهماً وقال: "اكسره"، فكسره، ثم أعطى له سهمين وثلاثة سهام فكسرهم أيضاً، وعندما وصل للأربعة سهام عجز عن كسرها، فقال له طغرل: "إن مثلنا مثل ذلك" يَقصد أنهم ضعيفون عندما يَتفرقون، بدأ طغرل بك بعد قيام دولة السلاجقة بتوسيعها نحو المغرب، ففي عام 433 هـ فتح جرجان وباقيطبرستان فخطب له في كافة أنحائها ثم سار في عام 434 هـ فحاصر خوارزم وفتحها ثم تابع السير واستولى على طبس ومكران وأطراف كرمان والري، ثم تابع التحرك في العام نفسه فأخذ همذان واتجه شمالاً إلى دهستانثم عاد وعين أمراءً على طبرستان وهمذان وحاول إرسال جيش لأخذ كرمان لكنه هزم، بعد ذلك توقف طغرل قليلاً عن غزواته، فعاد البويهيون عام 436 هـ واستعادوا همذان،ولذا فقد أرسل طغرل إبراهيماً بن ينال إلى فارس عام 437 هـ فاستعاد همذان وغزا بلاد

الجبل (غرب إيران والعراق حالياً) وأخذ عدة مدن منها ونهب الكثير، وفي العام نفسه أيضاً جاء وباء كبير على الخيل في فارس فهلك 12,000 من خيل البويهيين على حد قول المؤرخين في العام التالي عاد طغرل بك إلى غزواته فسار بنفسه مع جيشه إلى أصبهان وحاصرها على أمل الاستيلاء عليها، لكنه فشل فتصالح مع أميرها على أن يُعطيه مبلغاً من المال وعلى أن يُخطب له في أصبهان وما حولها، وفي عام 446 هـ فتح أذربيجان، ثم قرر أخيراً عام 447 هـ السير إلى العراق لطرد البويهيين منها، وقد كانت هناك علاقات قوية بين طغرل والخليفة العباسي قبل هذا المسير، فقد بدأ طغرل مراسلة الخليفة منذ عام 433 هـ ونال منه الاعتراف بالدولة السلجوقية في العام نفسه، واستمرت علاقاتهما بالتحسن بعد ذلك.

دأت الدولة البويهية بالتفكك والانحطاط منذ أواخر القرن الرابع الهجري، عندما انشق شرف الدولة عن صمصام الدولة(الذي كان حاكم البويهيين)، وأخذ منه جزءاً كبيراً من فارس وبلاد المشرق، ثم خلفه بعد موته بهاء الدولةالذي تابع الصراع مع صمصام الدولة حتى قتله، ثم نشب صراع بين أبناء بهاء الدولة بدورهم واستمرّت أوضاع البيت البويهي بالتدهور، وقد كان هذا النزاع الداخلي في الدولة البويهية لصالح السلاجقة والذين راسلهم الخليفة القائم بأمر الله مستنجداً عام 447 هـ بعد أن سيْطر البساسيري (أكثر الرجال نفوذاً في الدولة البويهية والعباسية آنذاك) على الدولة وأصبح يُهدد وجود الخلاف العباسية، فسار طغرل بك إلى بغداد في العام نفسه، وأمر الخليفة العباسي بأن يُخطب لطغرل فيها قبل ثلاثة أيام من وصوله، ثم فتح طغرل بغداد في رمضان عام 447 هـ وهرب منها البساسيريو الملك الرحيم(آخر ملوك البويهيين) الذين قُبض عليهما لاحقاً، وقد أحسن لسلاجقة معاملة الخلفاء العباسيين وأقرّوا المذهب السنيّ في البلاد على عكس البويهيين.

هرب البساسيري من بغداد عند وصول السلاجقة، لذا فأسرع طغرل بك بإرسال جيش إلى نواحي الكوفة لمنعه من الوصول إلى بلاد الشام، ثم سار بنفسه مع باقي الجيش في التاسع والعشرين من رمضان سعياً وراءه، وفي هذه الأثناء كان البساسيري يُعد العدّة في واسط لقتال طغرل واستعادة بغداد، لكن جيوش طغرل وصلت إليه والتحمت مع جنوده، فهُزم جنوده وهرب البساسيري وحده على فرس، ثم طاردته مجموعة من الغلمان وقتلوه وطيف برأسه في أرجاء بغداد.

ألب أرسلان

بعد فتح طغرل بك للعراق توقف عن الحرب، وقضى معم السنوات الباقية من عمره في بغداد، وتزوج هناك من ابنة الخليفة القائم بأمر الله، ثم في الثامن من رمضان عام 455 هـ (1063م) توفي وعمره سبعون عاماً في مدينة الري، لم يُنجب طغرلٌ أولاداً، ولذا فقد أوصى بأن يَحكم من بعده ابن أخيه "سليمان بن داود"، لكن العامة فضلواألب أرسلان حاكماً لهم فعيّنه وزير طغرل -عميد الملك الكندري- حاكماً للسلاجقة مع أنه كان يَود العمل بالوصية، ومع ذلك فعندما تولى ألب أرسلان الحُكم عزل عميد الملك ثم قتله، وعيّن مكانه نظام الملك الذي كان وزيره قبل أن يَحكم بزمن طويل، والذي يُعد أيضاً من أشهر الوزراء في التاريخ الإسلامي.

أسرع ألب أرسلان بتوطيد الحكم في الدولة السلجوقية بعد أن استلمه، فانشغل خلال عامه الأول بمحاربة عدة فتن ظهرت في البلاد، وما إن انتهى من تلك الفتن تحرّك في عام 456 هـ متجهاً إلى أرمينيا لمحاربة الروم وعندما وَصل إلى أذربيجان التقى بجماعة من المحاربين يُقاتلون نصارى المنطقة، فالتحقوا به وعرضوا عليه أن يُساعدوه كدليل في تلك البلاد، استمر ألب أرسلان بالسير مع هؤلاء المحاربين حتى وصلوا نقجوان، وهناك توقف لجمع الجنود والسفن استعداداً للغزو، وبعد أن جهز قوّاته أرسل الجيوش مع ابنه ملكشاة ووزيره نظام الملك، وقد وصل ملكشاة أثناء سيره إلى قلعة للروم ففتحها، ثم وصل إلى "قلعة سرمباري" ففتحها أيضاً هي وقلعة أخرى بجانبها أراد تخريبها لكن نظام الملك نهاه عن ذلك، وقد سلّما جميع القلاع إلى أمير نقجوان، استمر ملكشاة بالغزو بعد ذلك حتى استدعاه والده، فأخذ الجيوش وسار لفتح المزيد من المدن، وبعد عدة غزوات وصل ألب أرسلان إلى "مدينة آني"، وهي مدينة حصينة حولها نهران، ويُطوقها خندق وراءه سور مرتفع من بقية الجهات، فحاصرها وحاول فتحها لكنه فشل، وبدأ جنوده يَيأسون من فتح المدينة، فقرر أرسلان بناء برج خشبي كبير، ملأه بالجنود والرماة ووضع فوقه المنجنيقات، فاستطاعوا هدم السور واقتحام المدينة وهزموا الروم، وملك ألب أرسلان المدينةوعاد من غزوته بعد أن فتح معظم جورجيا وأرمينيا وأغلب الأراضي الواقعة بين بحيرتي أوان وأرومية.

شرع ألب أرسلا ن في عام 462 هـ بغزو بلاد الشام، فأجبر حاكم الدولة المرداسية- محمود بن صالح بن مرداس - في حلب على الخطبة للخليفة العباسي، وبعث بجيش إلى جنوب الشام فتح الرملة وبيت المقدس الذين كانا تحت سيطرة الدولة الفاطمية، وفي عام 463 هـ سار ألب أرسلان إلى إلى الرها، فقام بردم الخنادق حولها وبحفر الفجوات في أسوارها وبقصفها بالمنجنيقات لمدة شهر لكنه باء بالفشل، فتركها وسار إلى حلب ومعه 4 آلاف جندي، أرسل ألب أرسلان برسول إلى أمير حلب يَدعوه إلى طاعة السلاجقة وفتح بوابات المدينة لهم، لكنه استكبر ذلك فبدأ بجمع الجنود وبتجهيز المدينة لمقاومة الحصار، فأتى أرسلان إلى حلب عام 463 هـ وحاصر الأمير محمود بن صالح (والذي لم يَتوقع هذا بسبب إعلانه الطاعة للخليفة والسلاجقة)، لكن بعد مضي شهرين على الحصار عجز ألب أرسلان عن السيطرة على المدينة وبدأ يَخشى من تخطيط الإمبراطور البيزنطي لغزو خراسان وأيضاً على سمعته من فشله في حصار مدينتين، فعيّن قائداً مكانه للتفرغ للحصار وسار إلى خراسان لمقاتلة البيزنطيين، لكن عندما علم محمود بهذا أسرع إلى أرسلان وطلب التوصل إلى صلح، فاشترط أرسلان أن يُعلن الطاعة والتبعية للعباسيين والسلاجقة وأن يَذهب في اليوم إلى معسكره لإعلان ذلك، وهذا ما حدث فأصبحت حلب إمارة سلجوقية، بعد هذا سار ألب أرسلان إلى المشرق لمحاربة البيزنطيين، وترك الجيوش مع بعض القادة وسمح لهم بالمحاربة في بلاد الشام، ففتحواجبيل ودمشق والرملة وبيت المقدس وطبرية وحاصروا يافا، وكان ذلك بين عامي 463 و465 هـ (ملاحظة: لحروب ألب أرسلان مع البيزنطيين انظر أدناه فقرة "الحرب مع البيزنطيين").

ملك-شاه

في عام 465 هـ توفي ألب أرسلان في أرض ما وراء النهر أثناء الحرب وعمره 40 سنة، وأوصى بالحكم بعده لابنه ملكشاه، فنُصب سلطاناً للدولة السلجوقية في العام نفسه، لكن ما إن تولى ملكشاه السلطنة حتى انقلب عليه عمه "قاروت بك"، فأسرع ملكشاه إليه وقابله بالقرب من همذان وهناك اقتتلا فانهزم عمّه واستقر الحكم لابن أرسلان، وكانت الدولة في عهده قد اتسعت اتساعاً عظيماً، فامتدت من كاشغرفي أقصى المشرق (حيث توقفت الفتوح الإسلامية) إلى بيت المقدسقرب المغرب، وبهذا فقد كانت تشمل كامل الجزء الإسلامي من قارةآسيا عدا الجزيرة

العربية ودول جنوب شرق آسيا، يُقال عن ملكشاه أنه كان من أفضل السلاطين سيرة، وأن القوافل كانت تعبر من أقصى المشرق إلى لشام في عهده آمنة دون التعرّض إلى هجوم أو أذى.

أرسل ملكشاه خلال عهده جيوشاً مرتين متتاليتين لحصار مدينة حلب والاستيلاء عليها، لكنه فشل، فتحرّكت جيوشه (التي يَقودها أخوه "تاج الدولة تتش") جنوباً وفتحت حماة، ودمشق وأظهر حاكم حمص الطاعة لها فتركوه حاكماً، لكن في عام 472 هـ تغيّرت مجريات الأحداث عندما راسل أهل حلب "مسلم بن قريش العقيلي" لكي يُخلصهم من محمود المرداسي، فأتى إلى حلب واستولى عليها وأسقط بهذا الدولة المرداسية مقيماً مكانها الدولة العقيلية، وقد راسل السلطان السلجوقي وأعلن له الولاء وعرض إرسال مبلغ من المال كل شهر مقابل إبقائه حاكماً لحلب فوافق ملكشاه، لكن لاحقاً نشأ نزاع بين تتش (الذي ولاه ملكشاه على بلاد الشام) ومسلم بن قريش (الذي أظهر الطاعة للسلاجقة أيضاً)، وقد قتل مسلم في النزاع وتابع من بعده ابنه، لكن تتش نجح بانتزاع حلب منه فقرر ابن مسلم تسليم حلب إلى ملكشاه واستدعاه لذلك، فجاء ملكشاه من المشرق وتسلم حلب (التي تركها تتش وعاد إلى دمشق)، وسيطر ملكشاه أيضاً خلال هذه الحملة على اللاذقية وبضعة مدن أخرى.

في أواخر القرن الخامس الهجري ظهرت حركة جديدة في المشرق هي جماعة الحشاشين، والذين استولوا على قلعة ألموت عام 483 هـ فحاول ملكشاه أن يُرسل إليهم دعاة يُعدينهم إلى المذهب السني لكنه فشل، فأرسل في عام 485 هـ جيشاً ليُحاصر القلعة لكنه هُزم مُجدداً، فقرر السلطان السلجوقي أن يَتجاهل هذه الحركة بالرغم من تحذيرات وزيره نظام الملك الكثيرة له، وعلى أي حال فلم يَملك ملكشاه وقتاً طويلاً لمقاومة هذه الحركة، لأنه توفي عام 485 هـ تاركاً دولة يَتازعها أولاده فيما بينهم.

ان مسير طغرل بك إلى أذربيجان عام 446 هـ من أولى غزوات السلاجقة في بلاد البيزنطيين، عندما وصل طغرل إلى مدينة تبريز أطاعه حاكمها وخطب له وقدم له الهدايا، فتركه حاكماً لها وتابع سيره إلى أرمينيا، فوصل إلى ملاذكر فحاصرها ونهب ما حولها، لكنها كانت مدينة حصينة فطال حصارها حتى حل الشتاء، فعاد

إلى الري وكان يُريد متابعة الحصار بعد انتهاء الشتاء، لكنه اضطر عام 447 هـ للعودة إلى العراق وفتح بغداد فلم يُتابع غزوته، ويُقال أن طغرلاً نهب وقتل مقداراً عظيماً من الروم خلال غزوته هذه.

في عام 449 هـ نهب السلاجقة ملطية وهزموا قربها القائد البيزنطي "فيلاريتوس (en)"، بينما غزا جيش آخر لهم مدينة قونية والإمبراطور البيزنطي عاجز عن ردعهم، وقد قام ألب أرسلان أيضاً بحملة على أذربيجان وأرمينيا سنة 456 هـ لكن في عام 462 هـ سار الملك البيزنطي "رومانوس الرابع ديوجين (en)" جنوباً إلى الشام بعد أن بدأ يُحس بتهديد السلاجقة لإمبراطوريته، فاستولى على مدينة مَنْبج ونهبها وقتل الكثير من سكانها، وهزم صالح بن مرداس وجيوش العرب التي معه، ثم أقام في "أرتح" شرق أنطاكية، لكن اضطر بعد ذلك بسبب الجوع وقلة الغذاء المتوفر للجيش إلى أن يَعود إلى أرمينيا في بلاده.

لم يَكتفي الإمبراطور البيزنطي - رومانوس الرابع - بحملته السابقة التي اضطر لإيقافها قبل أن يَنتهي من غزوه، ولذا فقد سار عام 463 هـ مع جمع عظيم من الروم البيزنطيين والفرنج والروس والكرج يُقال أن عددهم وصل إلى مئتي ألف، فوصل إلى منطقة قرب مدينة ملاذكر، وفي هذه الأثناء كان السلطان السلجوقي ألب أرسلان يُقيم في أذربيجان، ووصل إليه نبأ الجيش البيزنطي الضخم الذي يَتوجه إلى دولته، فحاول جمع عدد من الجنود بسرعة لكنه لم يَستطع، فسار على عجلة من أمره مع ما يَملك من عساكر (والذين بلغ عددهم 15 ألفاً) باتجاه ملاذكر وأرسل زوجته مع وزيره نظام الملك إلى همذان، وعندما اقترب ألب أرسلان من موقع المعركة أرسل فرقة من الجنود تتقدم الجيش، فالتقت مع فرقة مقدمة جيش البيزنطيين التي بلغ عدد جنودها 10 آلاف، فتقاتلتا وانتصرت فرقة السلاجقة، وعندما التقى الجيشان أرسل أرسلان إلى ملك البيزنطيين يَطلب منه المهادنة، لكنه رد بأنه "لا مهادنة إلا بالري"، فانتظر السلطان حتى جاء يوم الجمعة عندما يَدعو الخطباء بالنصر على المنابر وبدأ القتال، واستطاع السلاجقة محاصرة جيش البيزنطيين وهزمهم، وكانت من أعظم المعارك في تاريخ دولة السلاجقة، وقد سُميت بمعركة ملاذكرد، وأدى هذا النصر إلى اكتساح السلاجقة لمعظم باقي الأناضول، وإلى هزيمة البيزنطيين وعجزهم عن مقاومة المد السلجوقي بعد ذلك، وقد ترتب عليه صلح وضعه ألب أرسلان تتوقف الحرب بموجبه لخمسين عاماً ويُطلق جميع أسرى

المسلمين في بلاد الروم ويَمد البيزنطيون جيوش السلاجقة بالجنود متى احتاجوا ذلك، وبعد هذه المعركة اجتاح السلاجقة تركيا حتى قاربوا حدود القسطنطينية، فارتعد الإمبراطور البيزنطي وطلب العون من البابا المسيحي، ولاحقاً قام هذا الإمبراطور بدعم الحملة الصليبية الأولى لحماية إمبراطوريته، وربما كانت أهم نتائج تلك المعركة استقرار السلاجقة في أرض الأناضول وتأسيسهم لسلطنة سلاجقة الروم.

الحرب مع الصليبيين

في عام 490 هـ (1097 م) اجتمعت أربع جيوش أوروبية في الأناضول بهدف غزو الشرق الأدنى وأخذه من المسلمين، وقد دعمهم الإمبراطور البيزنطي بالمؤن والمساعدات وبعض المدد العسكري حتى لكي يَطردوا السلاجقة من المنطقة، وأجبر ثلاثة من قواد الجيوش الأربعة على حلف اليمين له بأن يُعطوه جميع الأراضي التي يَستعيدونها من السلاجقة لأنها كانت تابعة له في السابق، بعد ذلك سارت الجيوش التي قُدر عدد جنوها بزهاء 300 ألف جنوباً وحاصرت مدينة نيقية (عاصمة سلاجقة الروم وأهم مدنهم)، فاستنجد أهلها بالسلطان السلجوقي قلج أرسلان الذي كان يُحاصر ملطية، فتركها وسار بسرعة لإنقاذ المدينة، لكنه اصطدم بجيش صليبي متأخر عن بقية الجيوش أثناء طريقه واقتتلا في معركة شديدة، ووصل المدد إلى الصليبيين من الجيوش التي كانت تحاصر نيقية فانهزم السلاجقة وانسحبوا، اضطر قلج أرسلان للاستلام لمصير نيقية بعد هذه المعركة، فتركها وسار بعيداً عنها، وسقطت في أيدي الصليبيين بعد مدة قصيرة، وقد توجه بعد ذلك[48][39] إلى الدانشمنديين (دويلة أخرى انفصلت عن السلاجقة كانت في نزاع مع سلاجقة الروم) وعقد الصلح معهم مؤقتاً للتعاون على مقاومة الصليبيين الذين يُهددون كليهما، فاجتمعت قوى الأتراك في الأناضول وسارت معاً إلى سهول دوريليوم لمقاومة الصليبيين وصدهم.

في البداية لم يَتقدم إلى السهول للقتال سوى جيش واحد من جيوش الصليبيين، ولذا فقد ظن المسلمون أنه هو كامل قوات الصليبيين الموجودة في المنطقة، فبدؤوا القتال وأملوا النصر واقتربوا منه، لكن فجأة ظهر جيشان صليبيان آخران (كانت قد وصلتهم أخبار المعركة في اليوم السابق) والتحما في المعركة فقلبا مجريات الأمور وانهزم المسلمون وخسروا المعركة، وهرب قلج أرسلان تاركاً وراءه الكثير من الغنائم للصلبيين، وبعد هذه المعركة توقف عن قتالهم المباشر واستمر

بالانسحاب وإخلاء المدن في المنطقة، فاكتسحها الصليبيون بكل سهولة معيدين أراض ضخمة إلى الإمبراطورية البيزنطية، وكانت هذه الموقعة التي حسمت الصراع السلجوقي-الصليبي في الأناضول هي معركة دوريليوم، سار الصليبيون بعد هذه المعركة باتجاه الشام (وهي الجزء الأهم من غزوتهم)، فاستغرقت رحلتهم أربعة شهور عبر الأناضول ثم قرب الشام، عانوا خلالها من الحرارة والجوع وقلة المؤن، وعندما وصلوا أخيراً إلى أرض الشام غزوا مدينة قونية وملكوها (والتي كان السلاجقة قد جعلوها عاصمتهم الجديدة بعد سقوط نيقية) ثم هرقلةثم اتجهوا إلى أنطاكية التي أصبخت هدفهم الجديد، وملكوا في طريقهم قيصرية وطرسوس وأضنة (بمساعدة من الأرمن المسيحيين في هذه المدن الذين رحبوا بقدوم الصليبيين) وهزموا عدة جيوش صغيرة للسلاجقة، واجتاحوا الرها أيضاً وأسسوا فيها إمارتهم الأولى، وقد هاجم قائد صليبي أثناء المسيرة مدينة سميساط وطرد منها الحامية التركية بمساعدة سكانها الأرمن، لكن سرعان ما عادت الحامية وباغتتهم فقتلت من الأرمن زهاء الألف رجل وبعض فرسان الصليبيين، ومع هذا فقد استعادوا المدينة لاحقاً وطرد منها الأتراك وقتل قائدهم، وفي الأثناء التي دارت فيها هذه المناوشات بين فرق من الجيش الصليبي، كان الجيش الصليبي قد وصل أنطاكية بعد مسيرة أربعة شهور، فحاصرها لكنها كانت منيعة وذات أسوار عالية فطال حصارها وصمدت، مما تسبب بانخفاض معنويات الصليبيين وحماسهم، لكن القساوسة المسيحيين نجحوا برفع معنويات الجنود من جديد، ومع استمرار إمدادات الصليبيين ومؤنهم فقد أطالوا الحصار وأنهكوا المدينة، وفي النهاية استطاعوا اقتحامها عام 491هـ ونهبوها وخربوها وقتلوا الكثير من أهلها، وبذلك سقطت أنطاكية (إحدى أقوى مدن المشرق) في أيدي الصليبيين، ولاحقاً حاول المسلمون حصار أنطاكية واستعادتها لكنهم فشلوا، وسرعان ما سقطت القدس أيضاً، فأسس الصليبيون بهذا ثلاث إمارات ومملكة واحدة في الشرق الأدنى (علاوة على اجتياحاتهم الضخمة في الأناضول)، وهي: إمارة الرها وأنطاكيةوطرابلس إضافة إلى مملكة بيت المقدس.

بعد تأسيس الصليبيين لدويلاتهم الأربع، حشد "كمشتكين بن الدانشمند" (الحاكم الداشمندي) بمعونة أمير سلاجقة الروم جيشاً جديداً لملاقاة الصليبيين وسار به إلى أمير أنطاكية المدعو "بوهمند" الذي كان يَغزو أحد الحصون، وعندما علم بوهمند بالأمر عاد بسرعة إلى أنطاكية وجمع جيشاً ضخم لقتال الأتراك، وسار به إليهم فاقتتلا في معركة شديدة عام 493 هـ هُزم فيها الصليبيون واستطاع الأتراك

أسر الأمير الأنطاكي بوهمند وقتل الكثير من جنوده، وبعد بضعة شهور من ذلك انطلقت الحملة الصليبية لعام 1101، وكانت هي الأخرى مؤلفة من أربعة جيوش تحركت في ثلاثة أقسام، كان أحدها يَضم جيشين من الجيوش الأربع والذين يَتألفان بشكل أساسي من اللومبارديين، وقد أصرّ جنود هذا الجيش على السير شرقاً لتحرير بوهمند من الأتراك قبل متابعة السير إلى الجنوب، ومع أن القسم الآخر من الجيش حاول إقناع اللومبارديين بعدم فعل ذلك إلا أنهم أصرّوا وكادوا يُعلنون العصيان فسار الجيش إلى الشرق حتى وصل أنقرة وملكها، فأسرع الأتراك من سلاجقة ودانشمنديين بالاتحاد معاً والسير إلى الصليبيين، ودخلوا معهم في عدد من المناوشات بغيت إرهاقهم واستنزاف قواهم، ثم راسلوا أمير حلب ("رضوان السلجوقي") الذي كانوا في خلاف معه سابقاً واستدعوه فأتاهم مع جيشه بسرعة قاطعاً مئات الكيلومترات، والتحم الجيشان قرب أماسيا عام 494 هـ واستمرت المعركة لمدة يوم استطاع فيه الأتراك أن يَهزموا الصليبيين وأن يَقتلوا الآلاف منهم، فلم يَنجو منهم في النهاية إلا 3 آلاف جندي لاذوا بالفرار إلى القسطنطينية، ويُقال أن حوالي 30 ألفاً منهم قتلوا في المعركة، مما أدى إلى إبادة جيشين من الجيوش الصليبية الأربع بالكامل تقريباً، وبعد أن تحمس الأتراك من نصرهم هذا ساروا إلى منطقة بين نيقية وهرقلة حيث كان القسم الثاني من جيش الصليبيين، فحاصروه وهزموه وقتلوا معظمه بينما هرب القائد بالكاد مع بعض الفرسان إلى أنطاكية، وبعد هذا ساروا إلى آخر أقسام الجيوش الصليبية والذي كان قد عبر القسطنطينية قبل مدة ليست بالطويلة، فحاصروه هو الآخر وأبادوه قاضيين بهذا على كافة جيوش تلك الحملة الصليبية، وربما كان هذا أعظم نصر للسلاجقة والأتراك في الحروب الصليبية.

لم يَتوقف السلاجقة عند ذلك، فما إن استتب السلام في الإمبراطورية السلجوقية وانتهت النزاعات الداخلية فيها، اتجهمحمد بن بركيارق إلى الجهاد، فوجه الأوامر إلى مودود أمير الموصل وسقمان أمير أرمينيا بالسير بحملة عسكرية كبيرة إلى الصليبيين مباشرة بعد سقوط طرابلس، فاتجهت الحملة إلى الرها وحاصرتها، لكن سرعان ما جاء المدد من بقية الدويلات الصليبية فرفعوا الحصار واتجهوا إلى حران، ثم التقوا لاحقاً مع المدد الصليبي قرب نهر الفرات وهزموا قوات الصليبيين وظفروا بهم، وبعد ذلك عادت قوات السلاجقة إلى أراضي الدولة دون غزو الرها، فعادت قوات الصليبيين أيضاً إلى دويلاتها، لكن بعد مدة قرر الصليبيون أن

يَغزو العراق من أجل الوصول إلى بغداد، فبدؤوا بتوسيع أراضيهم بحصار حصن حران، فهب أمير الموصل ومعه سقمان مُجدداً واشتبكا مع الصليبيين في معركة وهزموهم، وبعد ذلك أعادوا حصار الرها لكنهم فشلوا وانسحبوا، وقد استطاعوا أيضاً استعادة بضعة مدن في أنطاكية، واستمرت الحروب طويلاً بعد ذلك بين السلاجقة والصليبيين، ومع أن السلاجقة أفلحوا باستعادة العديد من المدن وبمنع استيلاء الصليبيين على العديد غيرها، لكنهم لم يَستطيعوا إسقاط أي من الدويلات الأربع التي أسسها الأوروبيون في المشرق.

2. الانحطاط والسقوط

انتهى عهد قوة الدولة السلجوقية ونفوذها الواسع بموت السلطان ملكشاه عام 485 هـ والذي كان ثالث سلاطين السلاجقة، ومع أن دولتهم عاشت لأكثر من قرن بعد ذلك إلا أنها كانت متفككة وضعيفة، فسرعان ما بدأت الدولة تنقسم وتتفكك إلى دويلات عدة، فظهرت دول شبه مستقلة عنهم هي بشكل رئيسي- سلاجقة العراق والروم والشام وكرمان وخراسان وهم فروع من البيت السلجوقي أسست لها دولاً خاصة في المناطق التي كانت تحكمها، وهذا أدى إلى ضعف الدولة وانكسار شوكتها، فضلاً عن النزاع الذي نشب بين هذه الدول بهدف توسيع النفوذ، فأضعف الدولة أكثر وشغلها عن مقاومة الغزو الخارجي، بدأت النزاعات الداخلية في دولة السلاجقة عند وفاة ملكشاه، فخلف ولدين هما بركيارق وأخ أصغر اسمه محمد، وكان الأول في الثالثة عشرة والثاني في الرابعة، لكن أم محمد راسلت الخيفة العباسي وأجبرته على الاعتراف بابنها وإقامة الخطبة له فنصب سلطاناً في عام 485 هـ وعين أمير لإدارة شؤون الدولة بدلاً من السلطان الصغير، بينما زج الأخ الأكبر بركيارق في السجن، لكن بسبب تأييد نظام الملكقبل موته في نفس العام لبركيارق فقد كان له الكثير من الأنصار الذين حرروه من السجن ونصبوه حاكماً لأصفهان، وبعد ذلك حشد كل من بركيارق ووالدة محمد جيشاً والتقيا عام 486 هـ فانتصر- بركيارق واعترف به الخليفة العباسي سلطاناً للسلاجقة عام 487 هـ

ومع أن الحكم استتب لبركيارق في النهاية، إلى أن الدولة السلجوقية بدأت بالتفكك خلال هذا العهد، فاستقل "قتلمش بن إسرائيل بن أرسلان" بالأناضول منذ عام 470 هـ مؤسساً سلطنة سلاجقة الروم، ولاحقاً في عام 487 هـ استقل "تتش بن

ألب أرسلان" بالشام ثم "مغيث الدين محمود" بالعراق عام 511 هـ وهذا مع أن السيطرة العامة على الدولة السلجوقية وعلى الجزء الأكبر مها بقي في أيدي سلاطين خراسان، الذين استمروا حتى عام 552 هـ فقد حكم السلطان السلجوقي "سنجر" منذ عام 511 وحتى 552 وقد نجح بإعادة هيبة الدولة وقوة السلاجقة وبتوحيد بلادهم من جديد، لكن هذا لم يمنع انحطاط الدولة وضعفها بسرعة بعد موته، في الأيام الأخيرة لسنجر، استعان الخليفة العباسي بخوارزم شاه للتخلص من السلاجقة، ووعده بإعطائه كافة أراضيهم إن خلصه منهم، فاكتسح الخوارزميون خراسان والمشرق، وكانت هذه نهاية نفوذ سلاجقة خراسان وكرمان والعراق، وكان حكم سلاجقة الشام قد زال قبل ذلك بمدة طويلة، أما سلاجقة الروم فقد استمروا حتى القرن الثامن الهجري ثم اكتسحهم المغول، وهكذا انتهى عصر الدولة السلجوقية التي كانت إحدى أقوى دول المشرق في التاريخ.

النظام العسكري

3. تقسيمات ورتب الجيش

كانت توجد ثلاثة رتب رئيسية في الجيش السلجوقي، أعلاها هي رتبة "الأمير الحاجب الكبير" الذي يَقوم بإدارة الجيوش وتوجيهها وقيادتها، وهو أكثر رجال الدولة نفوذاً تقريباً بعد السلطان، ويَجب أن يَكون الحاجب كبيراً في العمر بحيث لا يَقل عمره عن 35 أو 40 عاماً من أجل أن يَملك خبرة كافية في الإدارة والتنظيم وغيره، ويتولى الحاجب العديد من المهام مثل تحديد الأماكن المناسبة لوقوف الجيش وتزويده بالمؤن وترتيب صفوفه للقتال، يَلي الحاجب "القائد العام" أو "الأسفهسلار"، وهو الذي يُشكل أداة الاتصال بين الحاجب والمقدمين (قادة الفرق)، كما أنه القائد الأكبر والأهم للجيش، ويُمكنه إدارة الجيش وتولي تنظيمه في حيال غياب الحاجب، وقد كانت هذه الرتبة موجودة في الأنظمة العسكرية منذ عهد الغزنويين، أما الرتبة القيادية الأقل في الجيش فهي "المقدم"، وهو الذي يَتوالى قيادة الفرق العسكرية،ويُمكن أن يَكون المقدم "أمير حرس"(من يَتولى تنفيذ العقوبات وضبط النظام في الجيش، ويُسمى في هذه الحالة "جندر") أو قائد قلعة (ويُسمى في هذه الحالة "دزدار")، وكانت هناك أيضاً رتب أخرى تتعلق بضبط

الجيش والحفاظ على نظامه، مثل "قاضي العسكر" (من يَحكم بين العساكر ويُعاقبهم على أخطائهم) و"أمير السلاح" (حارس مخازن الأسلحة) وغيرها.

4. تنظيم الجيش

كان يُنظم الجيش السلجوقي بشكل رئيسي بـ"ديوان عرض الجيش"، والذي يَتضمن أسماء الجند ورواتبهم وكافة أحوالهم، وكان يَتولى شخص إدارة هذا الديوان يُسمى عادة بالعارض، هو الذي يَقوم بتنظيمه وتدوين الأسماء وغيره، وكان ديوان الجيش أساسياً جداً للمحافظة على النظام العسكري وإدارة جيوش الدولة، اهتم السلاجقة بإعطاء الجند أرزاقهم والتعجيل بها حرصاً على الحفاظ على رضاهم ومن ثم على استقرار الجيش، وقد كان الجنود يُعطون المال نقداً في الأيام الأولى للدولة السلجوقية، لكن لاحقاً استغنى السلطان ملكشاه عن المال وأصبح يُقطع لهمالإقطاعات بدلاً من ذلك، وفي كلا الحالتين كان ديوان عرض الجيش هو المسؤول عن تنظيم توزيع الرواتب، كما أن توفير المؤن كان جزءاً هاماً من مهام الديوان، وقد كان يَقوم بعض القواد بشراء مؤن لجيوشهم بأنفسهم في بداية العهد السلجوقي، لكن لاحقاً ولكي لا يَظلم الجنود سكان الدولة ويَأخذوا منهم المؤن غصباً فقد قام نظام الملك بتوزيع مؤن مخصّصة للعسكر على مختلف مناطق ومدن الدولة السلجوقية لكي تتزود بها الجيوش متى احتاجت، وساعد هذا في حل مشكلات المؤن وأتاح للديوان إدارة توزيعها بسهولة، أشرف الديوان على تسليح الجيش أيضاً، ويُقال أن الجيش كان يَتضمن - منذ عهد طغرل بك - نجارين وغيرهم لصنع ما يَحتاجه العساكر من أسلحة، وكان يَتم تزويدهم بالسلاح والعتاد حتى أثناء المعارك والقتال، وكانت توجد مخازن مخصصة لاحتواء أسلحة الجند يَحرسها "أمير السلاح" أو "سلاح دار".

5. قوات الجيش

تألف الجيش السلجوقي من أعراق متعددة، فقد كان يَتضمن أتراكاً وأكراداً وعرباً وفرساً وديالمة وأرمناً، كما أن قواته كانت تتألف من مشاة وفرسان ورماة، فيَتقدم المشاة الجيش وخلفهم الفرسان الذين كانوا يَتميزون بمهارتهم في إطلاق السهام أثناء عدو خيولهم، كانت تنقسم قوات الجيش السلجوقي إلى عدة أقسام،

منها "الجيش النظامي"، وهو القوّات التي تعمل بشكل دائم في خدمة الدولة، وتتألف من العبيد الذين أسروا في المعارك أو أهداهم بعض الملوك للسلاجقة، كانت قبائل الأتراك من العناصر الهامة أيضاً، وكثيراً ما كان سلاطين السلاجقة يُضطرون لدفع المال لهذه القبائل تجنباً للحروب معها، ومع هذا فقد كانت هامة جداً في تأسيس الدولة السلجوقية واستمراريتها، كما أنه كانت تلتحق بجيوش السلاجقة عند نشوب الحروب القوات الخاصة بالولايات، حيث إن لكل حاكم ولاية قوات خاصة له يَستخدمها للدفاع عن منطقته، مكن أيضاً أن تلتحق بالجيوش فرق من المدن المجاورة التي يَمر العسكر قربها، أو متطوعون يَودون المشاركة في الجهاد، وهؤلاء لم يُدونوا ضمن ديوان عرض الجيش السلجوقي، تضمن جيش الدولة قسم الطلائع، وهم فرق من الجند يَتقدمون الجيش لكي يَستطلعوا مناطق وُجود العدو وطبيعتها وكافة المعلومات الأخرى عن مناطق المعارك، ووظيفتهم لا تتضمن الدخول في القتال عادة، وتوجد فرق أخرى تتقدم الجيش تسمى "تشكيلات المنزل"، وظيفتها اختيار المواقع المناسبة لإقامة الجيش وتجهيزها وتهيأتها بكل ما يَلزم لذلك من طعام وغيره.

6. الأسلحة والتحصينات الحربية

استخدم الجنود السلاجقة أسلحة القتال العادية مثل السيف والرمحوالقوس والمقلاع، وكان القوس والسهم من أهم أسلحتهم، فقد اشتهروا بمهارتهم في رمي السهام خاصة من فوق ظهور الخيل، فقد كان الرماة الخيالة يُطلقون السهام أثناء عدو خيولهم دون التأثير على دقة إصابتهم، ويُقال أنه كان يَقذف الرماة السلجوقيون 10 آلاف سهم في المعركة دفعة واحدة، وكانوا يَرتدون دروعاً واقية للحماية مع خوذ تسمى بـ"البيضة" وتروس في أيديهم لصد ضربات العدو، واستخدموا أيضاً كافة أدوات الحصار الثقيلة، بما في ذلك المنجنيقات والأبراج الخشبية (التي يَقتحمون بها أسوار العدو) ورأس الكبش (الذي يُحطمون به بوابات الحصون) والدبابات وسلالم الحصار، وحصنوا المدن والقلاع ببناء الأسوار المرتفعة وحفر الخنادق العميقة لإعاقة تقدم العدو.

الدولة والحضارة

7. دعم العلم والعلماء

كان يُوجد اهتمام كبير بالعلم والعلماء خلال فترة ازدهار الدولة السلجوقية في عهدي ألب أرسلان والسلطان ملكشاه، حيث كان الوزير نظام الملك يَعمل في الدولة خلال حكمهما والذي قام بجهود كبيرة لدعم العلم والأدب، أعطى نظام الملك رواتب منتظمة للعلماء في جميع أنحاء الدولة لتشجيعهم على عملهم، وقد بلغ عدد من يَصرف لهم المال 12,000 عالم وأديب، كما اهتم بمجالسة أهل العلم فكانت مجالسه تعج بهم، واهتم أيضاً بإنشاء المدارس النظامية، فأسس العديد منها خلال عهد ألب أرسلان في أنحاء العراق وفارس من بغداد والبصرة إلى نيسابور وهراة، وأسس المكتبات أيضاً وملأها بكتب من مختلف مجالات العلم، حتى أن ابن الجوزي قال عنه أنه "كانت سوق العلم في أيامه قائمة والعلماء في عهده مرفوعي الهامة".

8. الحياة المدنية

كان السلاجقة في البداية قبائل تعيش في وسط آسيا، ومع أنهم لم يَكونوا بدواً أميين في تلك الأيام إلا أنهم سعوا إلى الاستقرار في مكان ما والعيش فيه قبل أن يُهاجروا إلى غرب آسيا، في تلك الفترة، عاش السلاجقة في قرى وبلدات بسيطة، باستثناء المناطق التي فرضت عليهم فيها الظروف الطبيعية أن يَعيشوا الحياة البدوية، ثم انتقلوا لاحقاً للعيش في المدن بعد أن وصلوا إلى الشرق الأوسط وأصبحوا حكام أكبر دوله، وهذا غيّر كلياً أسلوب حياتهم حيث تركوا عمل الحقول والزراعة وانتقلوا إلى الحياة المدنية.

كانت تنتشر في الأناضول خلال العهد السلجوقي مدن صغيرة تسمى "الهان"، والتي كانت تحاول تقديم جميع الخدمات للمسافرين المارين بها، فهناك كان التجار يأكلون ويَستحمون ويُنظمون سلعهم ويُصلحون عرباتهم ويَعتنون بحيواناتهم (وربما كان عدد الحيوانات في الهان يُقارب ضعف عدد البشر)، الباحثون ليسوا متأكدين بعد من الطريقة التي كانت تنظم بها بلدات الهان لكي تلائم كلا

الحيوانات والبشر، لكن يَعتقد البعض بأنهم كانوا يُفصلون عن بعضهم حيث تمكث الحيوانات في الفناء بينما يَجلس المسافرون في حجيرات مجاورة.

ارتدى الرجال السلاجقة سراويلاً وقمصاناً قماشية، ومعها سترات مُميزة في خياطتها تسمى "اليالما"، وكانت القبعاتجزءاً هاماً من زيهم، حيث ارتدوا قبعات بسيطة على شكل قبة مع بعض الزخرفات البسيطة عليها، وتسمى قباعتهم الشعبية بـ"البويرك"، وكانوا يَرتدون قبعات بويرك قماشية في الصيف بينما استبدلوها بأخرى من الفرو في الشتاء، وارتدى السلاجقة الأحزمة أيضاً، والتي كانوا يُعلقون عليها قوساً وجعبة سهام وفي بعض الأحيان سيفاً أيضاً، ومن ثم فإنها هامة للجنود، كما كانوا يَرتدون أحذية جلدية عالية تصل إلى الركبة، والتي كانت شائعة جداً في المنطقة وتصنع باللونين الأسود والبني عادة.

كانت تتألف العائلة السلجوقية من امرأة ورجل وأطفال، ومعهم أحياناً بعض الأقارب يُقيمون في نفس منزلها، ومع أن المرأة كانت تكدح في الحقول في المجتمع القروي، إلا أن النساء المدنيات كن يُحبسن في بيوتهن بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية، واعتماداً على الحالة الاقتصادية للأسرة كانت ربة البيت إما تقضي يومها في أعمال المنزل الروتينية أو بالإشراف على الخدم الذين يُخيطون ويَحبكون ويَعزفون الموسيقى ويَعتنون بطفلها ويَقومون بكافة أعمال المنزل الأخرى، لكن وجود المرأة خارج المنزل كان محدوداً جداً، حيث لم تكن تستطيع مغادرته إلا في المناسبات الخاصة مثل الأعراس والاحتفالات، كما أن الشباب من السلاجقة لم يَستطيعوا رؤية زوجاتهم قبل الزواج أو اختيارهم حتى، بل كانت أم العريس هي من تقوم بهذا، بحيث يَتم الأمر بين الآباء فقط.

لكن مع هذا فقد كان من الشائع عمل النساء في العهد السلجوقي في مهنة الطب،بل إنهم كانوا عنصراً هاماً لهذا السبب في الجيش وكان دورهم أساسياً وجوهرياً في علاج الجنود الجرحى والمصابين.

9. الفن والثقافة

بسبب التنقل الطويل للأتراك الذي انتهى بوصولهم إلى أرضاً لأناضول بعد أن كانوا قبائل في وسط آسيا، فقد اختلطت ثقافتهم وفنونهم وعقيدتهم مع ثقافات

الشعوب الأخرى التي قابلوها أثناء هجرتهم، مما يَجعل نشأة فنونهم وحضارتهم مبهمة وغير واضحة، لكن في عام 985 م حدث تحول في عقيدة السلاجقة عندما غير رئيس الجيش السلجوقي دينه إلى الإسلام، مما تسبب بتغير في فنونهم التي سادت عليها الثقافة الإسلامية، خصوصاً بعد تمدد السلاجقة إلى بغداد والجزيرة العربية حيث أصبحوا في قلب العالم الإسلامي وفي مركز ثقافته، تأثر الأتراك والسلاجقة خلال هذه الفترة بالفن والعمارة الإسلاميين، وقاموا أيضاً بأخذ بعض الأفكار من الفنانين الصينيين ومزجوها مع فنهم الإسلامي السائد، فتطورت فنونهم أكثر.

زَخرَف السلاجقة قصورهم برسوم منحوتة وبخطوط زخرفية متنوعة، وقد طور حرفيّوهم في الفنون الخزفية والأشغال المعدنية تقنيات صنع جديدة وزخرفوا أوانيهم الخزفية بنقوش متنوعة (من الملاحم العسكرية إلى دائرة البروج والتقاويم الفلكية، وكانوا يَصنعون من الخزف أواني الأزهار والشرب والأباريق والسلطانيات وبألوان متنوعة، كانت صناعة القرميد منتشرة أيضاً في تلك الأوقات، بل إنه كان أكثر شيوعاً بكثير من الخزف، وعلاوة على ذلك فقد شهد عصر السلاجقة أول تقدم كبير في الفن الإسلامي لصناعة القرميد، وكان يُستخدم القرميد عندهم في زخرفة المساجد والمصليات ومآذنها صانعين به نقوشاً جميلة عليها، وقد أعطى ازدهار السلاجقة الأدبي فرصة لظهور كتب مدهشة وعالية الأهمية من الأعمال العلمية والأدبية، وما زالت هناك العديد من الآثار الباقية للأدب التركي السلجوقي مثل بعض المعاجم اللغوية والحكايات الملحمية، يُمكن - في الفن السلجوقي - ملاحظة ظهور الناس كمواضيع للوحات والأعمال الفنية، ويَعتقد الدارسون حالياً أن ما ولّد هذا التطور هو تغير فلسفتهم الإنسانية التي تتمثل في التساؤل حول دور الجنس البشري في الكون والرغبة في الحصول على المعرفة وتطوير نظام أخلاقي.

ظل الفن الذي ظهر ونشأ أثناء عهد السلاجقة سائداً في العراق وتركيا تحت حكم سلالة السلاجقة الروم الفرعية (1081 - 1307م) لكن بعد الغزو المغولي وسقوط السلاجقة ثم قيام العثمانيين شهد الأدب والفنون تغيرات كبيرة متلاحقة، ولم يَبقى الكثير من فن السلاجقة القديم، لكن مع هذا فقد أحيت القبائل الوافدة من وسط آسيا بعد غزو المغول الثقافة والتقاليد التركية في الأناضول حيث استطاع الفن الصمود لمدة أطول.

10.الوزارة

كان يَتم تقليد الوزير السلجوقي منصبه بإرسال الحاجب أولاً لاستدعاء من سيتولى المنصب، ثم يُقابل السلطان ويُعطى منصبه الجديد بعد مناقشة عن المهام الإدارية التي سيتولاها الوزير، وقد أعطيَ الوزراء لسلجوقيون الألقاب، بل إن العديد منهم حصلوا على عدة ألقاب، ومن ألقابهم "قوام الدين والدولة" و"ضياء الملك"، عندما كان يَتولى شخص الوزارة في العهد السلجوقي كان يُمنح منزلاً خاصاً به على الفور، وكان يَحصل على الحق بمرافقة السلطان السلجوقي أثناء تنقله وزياراته للولايات المختلفة إضافة إلى الحق بدخول مجلسه، كما أن الوزير كان في الدولة السلجوقية ثاني أكثر الأشخاص نفوذاً في الدولة بعد السلطان مباشرة، حتى أنه كان أعلى نفوذاً من الحاجب، فقد أعطي صلاحيات إدارية وسياسية كبيرة وكانت أمور الدولة بيده، من أشهر وزراء السلاجقة الوزير "عميد الملك الكندري" في عهد طغرل بك و"نظام الملك" في عهدي ألب أرسلان وملكشاه.

11.المدارس النظامية

تسمى بـ"المدارس النظامية" نسبة إلى أول من أسسها وهو الوزير السلجوقي نظام الملك، جاءت فكرة تأسيس هذه المدارس بسبب انتشار المذهب الشيعي في المشرق خصوصاً خراسان والعراق وغيرها من أقاليم تلك البلاد، وقد كان نظام المُلك مهتماً بنشر المذهب السني والقضاء على الحركة الشيعية، واعتقد أن غزو بلادهم وانتزاع فارس من قبضة البويهيين لم يَكن كافياً لذلك، ولذا فقد قرر نظام الملك البدأ بإنشاء سلسلة من المدارس التي تعلم الدين حسب تعاليم مذهب السنة، وبشكل أكثر خصوصاً المذهب الشافعي بسبب كون نظام نفسه شافعياً، فبدأ بتأسيس أولى هذه المدارس في مدينة بغداد عام 457 هـ وانتهى بناؤها في شهر ذي القعدة عام 459 هـ وحضرها جمع عظيم من سكان بغداد عند افتتاحها، وقد كلف بالتدريس بها أبو إسحاق الشيرازي، وقد كانت مواقع إنشاء أولى المدارس النظامية هي :بغداد وبلخ ونيسابور وهراة وأصفهان والبصرة والموصل ومرو وطبرستان، صرف نظام الملك مبالغ هائلة في المدارس، وحرص على أن توفر راحة كاملة للطلاب، فخصص سكناً للمدارس لكي يُقيم به طلابها، وأعطى كل واحد منهم أربعة أرطال من الخبز كل يوم لإعالته، وبنى في كل مدرسة مكتبة ضخمة تشبع

اهتمامات الطلاب، وقيل إن تكاليف بعض هذه المدارس وصلت إلى 10 آلاف دينار، وعدد طلابها وصل إلى 300 طالب، وفضلاً عن هذا فقد اهتم نظام الملك بأن يَـزور بنفسه هذه المدارس دورياً وأن يَتأكد من أن أمورها تجـري جيـداً، فقـد زار مـثلاً في عام 480 هـ مدرسة بغداد واطلع على أحوالها ودرس بها قليلاً، كان يُشـترط لتعيـين مدرس في مدرسة نظامية أن يَكون شـافعياً، وكانـت هنـاك عـدة مناصـب إداريـة في هذه المدارس هي: المدارس (من يُلقي الدروس) والنائب (من يَنوب عـن المـدرس في الإلقاء إذا لم يَستطع ذاك الحضور) والمعيد (طالـب يُعيـد الـدرس للطـلاب الآخـرين ويُساعدهـم على فهمـه إن تطلـب الأمـر)، وعنـدما كـان يُنهـي الطـلاب تعلمهـم في المدارس كانوا يُقدمون طلباً للحصـول عـلى "الإجـازة"، وهـي وثيقـة تشـبه الشـهادة تثبت أنهم درسوا وتعلموا في هذه المدارس، والتي تتيح لهم لاحقاً الالتحاق بوظائف مثل القضاء ولإفتاء والتدريس وغيرها.

[2014]

الفصل السابع

سليم الأول
والدولة البيزنطية

[7]

دار البداية ناشرون وموزعون

سليم الأول والدولة البيزنطية

سليم الأول ابن السلطان بايزيد الثاني بن السلطان محمد الفاتح، (و) 10 اكتوبر- 1470ت، 22 سبتمبر1520، سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين وأول من تلقب بأمير المؤمنين من خلفاء بني عثمان، يعرف لدى الغرب والبعض ب(Selim the Grim) أي سليم العابس ويلقب كذلك ب(ياووز) أي الشجاع عند الأتراك، حكم لثمانية سنوات بدءا من عام 1512وحتى وفاته.

استنجد به السلطان الغوري لقتالالبرتغاليين، في ديو، بعد أن قطعوا التجارة عن موانئ المسلمين فلم ينجدهم، فقد كان يعتمد على التجارة البرية (طريق الحرير) التي زالت لاحقاً، ولكنه علم بضعف المماليك، فأماطهم عن المشرق العربي الذي شكل 60% من أقصى اتساع للدولة العثمانية، وما زالت غنائمه (من العرب) مضرب أمثال تركية ليومنا هذا، وللأربع قرون التالية استخدم العثمانيين خراج المشرق للتوسع في أوروبا، دون أي إنتباه للعرب، الذين كان العثمانيين يعتقدون أنهم غير صالحين لأية مناصب ادارية لأنهم كول اوغلي أي "أبناء العبيد"، فكان منصباشيخ الإسلام والصدر الأعظم يـُمنحالأرمن وصرب اعتنقوا الإسلام لسنوات قليلة.

حياتـــه:

كان أبوه يريد أن يولي العهد لابنه أحمد، وهو أكبر أولاده، ولكن ابنه سليما أجبره، بتأييد الجيش الإنكشاري، أن يوليه العهد، فخلع نفسه وولاه الخلافة وتوفي بعد عشرين يوماً، وكان حوله ملكين يعاديانه وقد اتفقا عليه، وهما السلطان إسماعيل الصفوي حاكم إيران، وكان شيعي المذهب، والسلطان قنصوه الغوري سلطان مصر والشام فقاتل الأول في معركة چالديران انتصرا فيها عليه ودخل (تبريز) عاصمة ملكه واستولى على عرشه وخزائن ملكه وسبى زوجتي الشاه المهزوم وذلك في 14 رجب 920 هـ و9 سبتمبر1514م.

وقاتل الثاني في معركة (مرج دابق) شمال حلب وذلك في 25/رجب 922/هـ و (1516/8/24م) وفيها قاتل قنصوه الغوري ثم زحف على مصر- وقاتل

الملك طومان باي(خليفـة الغـوري) وقتلـه فيمعركـة الريدانيـة واسـتولى عـلى مصر- والشام وخضع له الحجاز وعاد إلى الأناضول حاملاً لقب (أمير المؤمنين) وقد تنازل له عنه آخر الخلفاء العباسيين الذين قدموا إلى مصر بعد أن أزال هولاكو خلافة بغـداد بقتل آخر خلفائها.

وقـد وضـع الخطـة لفـتح جزيـرة (رودس) ولم يمهلـه المـوت فتـوفي في يـوم 9/شـوال 926/هــ و (1520/9/22م) وخلفــه ابنــه الســلطان ســليمان الأول (القانوني)، وإبان فترة حكم سليم الأول توسعت مساحة الدولة العثمانيـة مـن 2,4 مليون كم مربع إلى 6,5 مليون كم مربع.

ارتـبط اسـم السـلطان العـثماني سـليم الأول في التـاريخ بمسـألة التحـول في سياسة الدولة العثمانية تجاه الفتوحات؛ حيث اتجه العثمانيون في الـدور الأول مـن دولتهم إلى الميدان الأوروبي، وحققوا فيه انتصارات مذهلة، توجها السـلطان محمـد الفاتح سـنة (857هــ = 1453م) بفـتح القسـطنطينية عاصـمة الدولـة البيزنطيـة ودرتها المتلألئة التي ظلت حلما راود الخلفاء المسـلمين منـذ بدايـة العصر- الأمـوي، واتخذها عاصمة للدولة، ثم اتجه العثمانيون بفتوحاتهم نحو الشرق، وكان هذا هـو نقطة التحول في سياستهم، وشاءت الأقـدار أن تشـهد فـترة ولايـة سـليم الأول هـذا التحول، الذي كان من أثره أن امتدت رقعة الدولة العثمانية، وأصبحت دولة آسيوية أوروبية أفريقية، ثم عادت بعده الدولة العثمانيـة للتوجـه غربـاً نحـو اوروبـاً غـزواً وتجنيداً وزواجاً واستوزاراً.

تولى سليم الأول عـرش الدولـة العثمانيـة في (8 مـن صـفر 918هــ 25 = أبريل1512م) خلفا لأبيه بايزيد الثاني الذي تنازل له عن السـلطة، وكـان أول عمـل قام به السلطان الجديد قيامه بالقضاء على الفتن الداخلية التي أثارها إخوتـه ضـده تطلعا للحكم، وبعد ذلك كـان في انتظـاره أمـران، كـان لهـما الأثـر البـالغ في توجيـه السياسة العثمانية.

أما الأمر الأول فهو ازدياد النمو الشيعي في إيران والعـراق، وتهديـد الدولـة الصفوية الشيعية للدولة العثمانية.

وأما الأمر الآخر فهو تصاعد الخطر البرتغالي في الخليج العربي، وتهديدهم للأراضي المقدسة.

الصراع العثماني الصفوي:

ظهر إسماعيل الصفوي في مطلع القرن العاشر الهجري، ونجح في إقامة دولة شيعية في إيران سنة (907هـ = 1502م) وأعلن نفسه ملكا، وأصدر السكة باسمه، وجعل المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي لإيران بعد أن كانت تتبع المذهب السني، وبدأ يتطلع إلى توسيع مساحة دولته، فاستولى على العراق، وأرسل دعاته لنشر المذهب الشيعي في الأناضول، مما أثار حفيظة الدولة العثمانية المجاورة لها، وبدأت المناوشات العسكرية بينهما في أواخر عهد السلطان بايزيد خان، ثم تحولت إلى صدام هائل بين الدولتين في عهد سليم الأول.

أعلن سليم الأول الحرب على الصفويين، وسار بجيوشه من أدرنة متجها إلى تبريز في (22 من المحرم 902هـ = 14 مارس 1514م) فتقهقرت الجيوش الفارسية أمامه بقصد إنهاك قواه حتى تسنح لها الفرصة للانقضاض عليه، والتقى الجيشان في وادي جالديران في (2 من رجب 920 هـ = 24 أغسطس 1514م) وكانت معركة هائلة حسمت فيها المدفعية العثمانية النصر للسلطان سليم الأول، وفر الشاه إسماعيل الصفوي، وتمزق جيشه، ودخل السلطان سليم تبريز حاضرة الصفويين، يحمل على رأسه أكاليل النصر في الرابع عشر من رجب، وأثمر هذا النصر عن ضم السلطان سليم كثيرا من بلاد أرمينية الغربية، وما بين النهرين، وتبليس، وديار بكر، والرقة والموصل، ثم عاد إلى بلاده ليعد العدة لصراع الجديد ضد أقاليم الشرق العربي،

1. العصيان على السلطان وتنازله عن المُلك

في أواخر عهد السلطان بايزيد أضرم أولاده نار الحروب الداخليةلأسباب متعددة، ولم تخمد إلا بعد وفاته، فقد أقدم السلطان على تعيين الأمير سليمان بن ابنه سليم والياً على "كافا" من بلاد القرم، فلم يرض سليم بهذا التعيين، بل ترك مقر ولايته وسافر إلى كافا بالقرم، وأرسل إلى أبيه يطلب منه تعيينه في إحدى ولايات أوروبا، فلم يقبل السلطان بل أصرّ على بقائه بطرابزون، وفي ذات الوقت خشي

"أحمد" أكبر أولاد السلطان من أن سليماً يسعى إلى العرش، فاغتنم مسـألة انتصـاره حديثًا على جيش مكـوّن مـن تحـالف تـركماني-صـفوي في آسـيا الصـغرى، وسـار إلى القسطنطينية على رأس جنوده ليستعرض مقدرته العسـكرية أمـام والـده وأشـقاءه على حد سواء، وما أن علم سليم بفعل أخيه حتى أثار فتنة في تراقيـا وعصى والـده جهارًا، وسار بجيش جمعه من قبائل التتـار إلى بـلاد الـروملّي، فأرسـل والـده جيشًـا لإرهابه، لكنه لمّا وجد من ابنه التصميم على المحاربـة وعـدم ارتداعـه، قبـل تعيينـه بأوروبا حقنًا للـدماء، وعينـه واليـاً عـلى مـدينتيّ "سـمندريه" و"ڤيـدن" في الصربـ، ورفض السماح لابنه الآخر "أحمد" بالدخول إلى العاصمة خوفًا مـن أن يُقـدم الأخـير على خلعه أو قتله ليتولى مقاليد السلطنة.

ولمّا وصل إلى "كركود" خبر نجـاح أخيـه سـليم في مسـعاه، انتقـل إلى ولايـة صاروخان واستلم إدارتها بدون أمر أبيه ليكون قريباً من القسطنطينية عند الحاجة، وفي ذلك الوقت كان السلطان بايزيد قد دعـا ديوانـه للانعقـاد والتشـاور في مسـألة تنصيب أحد الأمراء خلفًا لـه، فاسـتقر الـرأي عـلى تنصـيب الأمـير "أحمـد" سـلطاناً، فغضب سليم ما أن وصله الخبر، وأعلن الثورة عـلى والـده، فسـار إلى مدينـة أدرنـة واستولى عليها وأعلن نفسه سلطاناً، فأرسل والده إليه جيشًا قوامـه 40,000 رجـل فهزمه في الثالث من أغسـطس سـنة 1511 وألجـأه إلى الفـرار بـبلاد القـرم، وأرسـل جيشًا آخر لمحاربة "كركود" بآسيا الصغرى، فهزمه أيضًا وفـرّق جيشـه، ثـم كتـب إلى "أحمد" يطلب منـه المجـيء إلى القسـطنطينية فـورًا وتـولّي مقاليـد الحكـم، فـدخل المدينة في اليوم التالي وأعلن سلطانًا، ويُقال أن من أشـاد بضرـورة تنصـيب "أحمـد" على العرش كان الصدر الأعظم "علي باشا"، الذي لم يؤمن بأحقية سليم أو كركـود في خلافة بايزيد.

ثار الإنكشـارية في المدينـة بعـد أن تـمّ تنصـيب الأمـير أحمـد عـلى العـرش العثماني، ورفضوا الاعتراف به حاكماً عليهم وطالبوا السلطان بايزيد بالعفو عن ابنـه سليم وإعادته إلى ولاية سمندرية لشدة تعلقهم بـه، واعتقـادهم بأنـه هـو الوحيـد المؤهل لـدرء الخطـر الصـفوي عـن الدولـة العثمانيـة، لاسـيما وأن شـاه الصـفويين، "إسماعيل الأول بن حيـدر"، كـان ينـاصر الأمـير أحمـد في نضـاله للوصـول إلى سـدّة الحكم، فخاف الإنكشارية من أن يبدأ الصفويين بالتدخل في الشؤون التركيـة وينشرـ المذهب الشيعي في البلاد كما فعلوا في إيـران وأذربيجـان، وكـان سـليماً يشـاطرهم

هذا الخوف ويحمل كرهًا شديدًا للشاه بفعل دعمه لأخيه،[1]وبناءً على إلحاح الإنكشارية، عفا السلطان عن ابنه سليم وسمح له بالعودة إلى ولايته، وفي أثناء توجهه إليها قابله الإنكشارية وأتوا به إلى القسطنطينية باحتفال زائد وساروا به إلى سراي السلطان وطلبوا منه التنازل عن المُلك لولده المذكور، فقبل وتنحّى عن العرش في يوم 25 أبريل سنة 1512م، الموافق في 8 صفر سنة 918هـ وتولّى سليم مقاليد الحكم رسمياً في الثالث والعشرين من مايو من نفس السنة.

وبعد أن تنازل بايزيد عن الحكم، سافر للإقامة ببلدة "ديموتيقا"، فتوفي في الطريق يوم 26 مايو سنة 1512م، الموافق في 10 ربيع الأول سنة 918هـ[12] ويدعي بعض المؤرخين أن سليم دس إليه السم خوفًا من رجوعه إلى منصة المُلك، بينما جاء في رسالة بعث بها الأمير أحمد إلى سلطان المماليك أن والده توفي لأسباب طبيعية،[5]بهذه العقلية العسكرية والتسلط غير المحدود الذي تمتع به سليم الأول، استطاع أن يصل إلى تخت السلطنة، رغم ما وُضع في وجهه من عوائق.

اعتلاءه العرش ومحاربته أخواته

أقدم سليم بعد أن تُوّج سلطانًا على توزيع المكافآت على الإنكشاريةكما جرت العادة قبل عهده، وزاد من ضرورتها في أيامه أنه لم يكن ليتربع على العرش لولا مساعي هؤلاء وضغتهم على والده، وما أن تولّى سليم مقاليد الحكم حتى أعلن أخاه أحمد العصيان ورفضه الخضوع له، ونصب نفسه حاكمًا على أنقرة، وأرسل ابنه "علاء الدين" فاحتل مدينة بورصةفي 19 يونيو سنة 1512 وراسل الوزير "مصطفى باشا" يخبره عن عزمه توطيد نفوذه وخلع أخيه ووعده بمنصب كبير إن نقل إليه جميع تحركات سليم ونواياه.

وكان السلطان سليم قد عقد العزم على القضاء على إخوته وأولاد إخوته حتى يهدأ باله بداخليته ولا يبقى له منازعٌ في المُلك، فعيّن ابنه سليمان حاكمًا للقسطنطينية، وسافر بجيوشه إلى آسيا الصغرى، فاقتفى أثر أخيه أحمد إلى أنقرة، ولم يتمكن من القبض عليه لوصول خبر قدومه إليه عن طريق الوزير "مصطفى باشا"، لكن علم السلطان بهذه الخيانة فقتل الوزير شر قتلة جزاءً له وعبرة لغيره، ثم ذهب إلى بورصة حيث قبض على خمسة من أولاد إخوته بما فيهم "علاء الدين" سالف الذكر، وأمر بقتلهم جميعاً.

وبعدها توجّه بسرعة إلى صاروخان مقر أخيه "كركود" ففر منه إلى الجبال، وبعد البحث عنه عدّة أسابيع قُبض عليه وقُتل، أما أحمد فجمع جيشًا من محازبيه وقاتل الجنود العثمانية، فانهزم وقُتل بالقرب من مدينة يكي شهرفي يوم 24 أبريل سنة 1513م، الموافق في 17 صفر سنة 919هـ.

وبهذا استفرد سليم بالحكم واطمأن خاطره من جهة داخليته، فعاد إلى مدينة أدرنة حيث كان بانتظاره سفراء من قبل جمهورية البندقية ومملكة المجر ودوقيّة موسكو والسلطنة المملوكيّة، فأبرم مع جميعهم هدنة لمدة طويلة بما أن مطامعه كانت متجهة إلى بلاد فارس التي كانت أخذت في النموّ والاتساع في عصر ملكها، الشاه "إسماعيل الأوّل بن حيدر الصفوي".

القضاء على دولة المماليك

اجتاز السلطان سليم الأول عقبة الدولة الصفوية التي كانت تعوق حركة دولته وتهددها، وبدأ في الاستعداد للخطوة الأخرى، وكانت ذات أهمية خاصة، ونجاحها يجلب له نصراً خالداً، واتساعاً في رقعة دولته، وازدياداً في هيبة الدولة وقوتها، فالدولة المملوكية التي تحكم مصر والشام أصابها الوهن، ودب في أوصالها الضعف والانحلال، وأصبحت غير قادرة تماماً على مواجهة الخطر البرتغالي المتنامي في الخليج العربي، حتى بلغ من اغترارهم بقوتهم أنهم أعلنوا عن عزمهم على قصف مكة والمدينة.

ولم يغب عن ذهن السلطان أن انتقال الخلافة العباسية من القاهرة إلى آل عثمان يجعل منهم قوة معنوية كبيرة عند المسلمين، ويضفي عليهم هيبة وإجلالاً في صراعهم مع أوروبا المسيحية.

ولتحقيق هذين الحلمين الكبيرين كان لابد من الصدام مع المماليك، وهذا ما حدث بالفعل، وما كاد السلطان سليم الأول، يستريح قليلا من عناء العقبة الأولى حتى خرج من عاصمته، يقود جيوشه الجرارة ناحية الشام، والتقى بالمماليك عند مرج دابق بالقرب من حلب، وكان السلطان الغوري قد علم بأنباء تحركات العثمانيين فخرج من مصر لمواجهة هذا الخطر الداهم الذي يهدد دولته، واشتعلت المعركة في يوم (الأحد الموافق 25 من رجب 922هـ 24 = أغسطس1516م) وكان

النصر حليف العثمانيين، في الوقت الذي قتل فيه السلطان الغوري، وتفرق جيشه ورحل من بقي منه إلى مصر.

وأثمر هذا النصر تساقط المدن الرئيسية في أيدي العثمانيين تباعا، مثل: حلب، وحماه، وحمص، ودمشق، وفلسطين، وغزة، ثم دخل السلطان سليم الأول مصر حيث انتصر على السلطان "طومان باي" آخر سلاطين دولة المماليك الشراكسة في معركة الريدانية في (29 من ذي الحجة 922هـ = 23 من يناير1517م) ودخل العثمانيون القاهرة، وقضوا على كل محاولة للمقاومة التي انتهت بالقبض على "طومان باي" وإعدامه، لتطوى بذلك صفحة دولة المماليك، وتنتقل من مسرح التاريخ إلى كتبه.

2. استجلابه للصناع والحرفيين المهرة من مصر

يذكر المؤرخ ابن إياس الذي عايش تلك الفترة، ان السلطان سليم الأول قام باستجلاب رؤساء الصنائع والحرفيين المهرة من مصر إلى الأستانة، وأقاموا بها ثلاث سنوات، وبعدما أقاموا صناعة بها أمرهم بالعودة إلى القاهرة مرة أخرى، ولكنهم ماطلوا وفضلا الإقامة فيها، فأرغمهم السلطان على العودة إلى القاهرة بأصدار فرمان مفاده أن كل من يعارض أمر السلطان سيتم إعدامه، ولا يذكر الكثير حادثة العودة هذه ويكتفوا بذكر ان السلطان قضى على عشرات الحرف الرئيسية في مصر بأخذه كل العمال المهرة إلى الأستانة.

استولى سليم الأول على آثار الرسول ﷺ من القصر الحاوي لها بمنطقة أثر النبي بجنوب القاهرة وأرسلها إلى اسطنبول.

3. الحجاز عثمانية

وفي أثناء إمامة السلطان سليم الأول استقبل وفدا من أعيان الحجاز بعث به الشريف بركات أمير مكة المكرمة، وكان على رأس هذا الوفد ابنه أبوغي حاملا رسالة من والده، يعلن فيها قبوله أن تكون الحجاز تحت السيادة العثمانية، وأعطاه مفاتيح الكعبة المشرفة، وبعض الآثار النبوية الشريفة كالعلم النبوي، وقوس وسهم،

وشعيرات من لحيته صلى الله عليه وسلم، كما دخلت بعض مناطق اليمن تحت السيادة العثمانية.

ترتب على دخول الأقاليم الإسلامية الأربعة وهي مصر والشام والحجاز وبعض مناطق اليمن تحت الحكم العثماني أن أصبحالبحر الأحمر بحيرة عثمانية، وتدعم الوجود الإسلامي فيه، وتم إيقاف محاولات البرتغاليين للسيطرة عليه، وساد الأمن والأمان على مياهه حيث أغلقت مياهه في وجه السفن المسيحية، وأجبرتها الدول العثمانية على تفريغ شحناتها في ثغر المخا في اليمن، ثم يعاد شحنها على سفن إسلامية يعمل عليها قباطنة وبحارة مسلمون وتمخر بها عباب البحر الأحمر، وتتوقف على ثغوره وموانيه حتى السويس شمالا.

4. خادم للحرمين

ترتب أيضا على فتوحات سليم الأول أن أصبحت الدولة العثمانية تضم الأماكن المقدسة في الحجاز، متمثلة في المسجد الحرام حيث الكعبة المشرفة، والمسجد النبوي الشريف مثوى النبي (صلى الله عليه وسلم) بالإضافة إلى المسجد الأقصى في فلسطين، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى الرسول ﷺ.

وقد أضفى كل هذا على الدولة العثمانية زعامة دينية، وأضيف إلى ألقاب السلطان العثماني سليم الأول لقب "حامي الحرمين الشريفين أو خادم الحرمين الشريفين"، وصار لقبا لكل من جاء بعده من الخلفاء.

5. العثمانيون خلفاء

بعد انتصار السلطان سليم الأول في معركة مرج دابق خطب له في أول صلاة جمعة صلاها في حلب باعتبارة خليفة للمسلمين وسُكت العملة باسمه، وتذهب بعض الروايات التاريخية إلى أن الخليفة العباسي المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين في مصر تنازل عن الخلافة لبني عثمان في مراسم جرت في آياصوفيا بعد عودته مع السلطان سليم الأول إلى إستانبول، وتضيف بعض الروايات أن الخليفة المتوكل قلد السلطان العثماني سليم السيف، وألبسه الخلعة في جامع أبي أيوب الأنصاري بعد مراسم آيا صوفيا.

وأيا ما كان الأمر، فقد أصبحت الدولة العثمانية هي مركز الثقل في العالم، وأصبح سلطانها هو خليفة المسلمين لا ينازعه في هذا اللقب أحد، غير أن اهتمام العثمانيين بهذا اللقب الجليل ازداد منذ القرن التاسع عشر الميلادي، واتخذوا من الخلافة وإحياء مجدها واسترداد ما كان لها من الهيبة والنفوذ والمكانة وسيلة لمقاومة ضغوط الدول الأوروبية والاستعمارية على الخلافة العثمانية.

الحملة الصفويّة

ظهرت السلالة الصفويّة الشيعية في إيران على يد الشاه "إسماعيل الأوّل بن حيدر الصفوي" عام1499، واستطاعت بزعامته أن تهدد بالخطرإمبراطورية العثمانيين في الشرق حيث كان إسماعيل قد وسّع من نفوذه وضمّ إلى ملكه عدد من البلدان، فكان قد فتح ولاية شيروان، وجعل مركزه مدينة تبريز سنة 1501، وبعدها فتح العراق العربي وبلاد خراسان وديار بكر سنة 1508، وأرسل أحد قوّاده فاحتل مدينة بغداد، وفي سنة 1510 كان قد ضمّ إلى أملاكه كل بلاد فارس وأذربيجان، وبذلك امتدت مملكته من الخليج العربي إلى بحر قزوين، ومن منابع الفرات إلى ما وراء نهر جيحون.

الشاه إسماعيل الأول، مؤسس السلالة الصفوية الإيرانية (1736–1501):

وكان إسماعيل قد فرض المذهب الشيعي على شعبه، وأعلنه مذهباً رسمياً للدولة في إيران، وكانت ردود الفعل عنيفة خاصة وأن كثيرًا من سكان المدن الرئيسية في إيران مثل تبريز كانوا سنّة،[ ]فقام باستمالة قبائل القزلباش التركية علوية المذهب إلى جانبه مما جعلهم عماد جيشه، وهي كانت بالأساس متذمرة من التدابير المالية والإدارية العثمانية بل وهيأت السبيل لحدوث اضطرابات كبيرة فيالأناضول، مما جعله يعتمد عليهم بالقضاء على جميع معارضيه، وفرض المذهب الشيعي بالقوة، فقضى على دولة الخروف الأبيض وقد كانت تشكل حاجزًا بينه وبين العثمانيين، فباتت الدويلات الكردية والقبائل التركية في جبال طوروس الصغرى، والأقليات المسيحية في أرمينيا كلها من ممتلكات الشاه حسب ادعائهم،[ ] وعندما احتل بغداد عام 1508، هدم ما كان فيها من قبور أئمة سنة وذبح جماعة من علمائهم، فسرت شائعة في البلاد التركية بأن مذبحة عظيمة أصابت السنة ببغداد على يد الصفويين.

وفي ذات الوقت اتسمت العلاقات بين الصفويين والعثمانيين بالفتور، فبعد أن تسلّم السلطان سليم الحكم لم يصلهسفير من إيران كما باقي الدول، فأدرك الجميع في هذا الوقت بالذات أن الحرب ستقع بين سليم وخصمه الشاه إسماعيل وكان سليم الأول ينظر بعين الارتياب إلى تحركات الصفويين، لاسيما بعد إرسال الشاه إسماعيل وفدًا ضخمًا إلى قنصوه الغوري سلطان المماليك، ضم 200 عبد لإبلاغه عن تلك الحرب المتوقعة ودعوته للتحالف معه ضد السلطان سليم،[ ] حيث بيّن له إنه إن لم يتفقا حاربت الدولة العثمانية كلاً منهما على حدة وقهرته وسلبت أملاكه،[ ] فعزم سليم على مهاجمة خصمه الصفوي وتسديد ضربة قوية قبل أن يستعد للنزال، لذلك أرسل هو الآخر وفداً إلى المماليك دعاهم إلى التحالف، لكن بعد مباحثات طويلة آثر المماليك التزام الحياد وإن كانوا يميلون لجانب الصفويين، أضف إلى ذلك أنه لمّا عصى السلطان سليم وإخوته والدهم السلطان بايزيد الثاني، ساعد الشاه إسماعيل الأمير أحمد على والده ثمّ على أخيه من بعده واستقبل من فرّ من أولاده عنده، فكان هذا سبباً إضافياً جعل السلطان سليم يعتبر الشاه إسماعيل خصمه الألدّ ويقرر الانتقام منه،[5]

6. معركة چالديران

عسكر الجيش العثماني في صحراء "ياس جمن" على مقربة من سهل چالديران، ووصلت السلطان سليم أنباءً من جواسيسه تقول إن الشاه إسماعيل لا ينوي القتال وإنه يؤخره إلى أن يحل الشتاء كي يهلك العثمانيون بردًا وجوعًا فيكونوا لقمةً سائغة للجنود الصفوية،[27] فأسرع السلطان بالمسير إلى چالديران ووصلها في شهر أغسطس من سنة 1514 واحتل المواقع الهامة بها واعتلى الأماكن الهضبية فيها، مما مكنه من السيطرة على مجرى المعركة بعد ذلك،[28] في صبيحة يوم الأربعاء 23 أغسطس سنة 1514م، الموافق في 2 رجب سنة 920هـ كان الطرفان قد أعدا العدة للحرب واصطفا استعدادًا لبدء المعركة، وما إن أعلنت ساعة البدء حتى هدرت المدافع العثمانية وتعالت أصوات الجند من كلا الفريقين، وبعد معركة حامية الوطيس، انتصر العثمانيون، وانكسر جيش القزلباش وسقط أقوى قادته "محمد خان استاجلو" صريعًا في أرض المعركة ووقع الكثير من قادته بالأسر، وأُسرت أيضا إحدى زوجات الشاه، وتُسمى "تاجلو خانم"،[29] فلم يقبل السلطان أن يردها لزوجها بل زوجها لأحد كتابه تشفيًا بالشاه،[27] وأما الشاه فقد جرح في ذراعه وفر

من المعركة متجهاً صوب تبريز بعد أن أنقذه أحد ضباطه ويدعى "الميرزا سلطان علي" من الأسر، مما حدا السلطان بأمر قائده "أحمد باشا دوقاقين أوغلو" بتعقب الشاه، الأمر الذي جعله يترك تبريز ويلوذ بخوي،[31][30][27] أما من وقع بالأسر من قوات الشاه إسماعيل، فقد أمر السلطان بإعدامهم جميعًا، وأن يصنع منجماجم القتلى هرم لينصب في ساحة المعركة،[32]

الحملة المملوكيّة

كان لهذه الحملة أسباب عديدة منها الصراع على الحدود بين الدولتين وموقف المماليك من الصفويين وإيوائهم لأمراء عثمانيين فارين من السلطنة العثمانية واستغاثة أهل الشام بالعثمانيين من ظلم المماليك حيث كتبوا رسالة باسم العلماء والفقهاء والقضاة يطلبون من سليم الأول تخليصهم من ظلم المماليك الذي طال المال والنساء والعيال، كما عطلوا تطبيق الشريعة الإسلامية في حكم البلاد، وطلبوا أن يرسل السلطان وزير ثقة ليلتقي بكبار الرجالات ليؤمن ويطمئن قلوب الشعب،[33]

وكان السلطان سليم، في أثناء حملته على الصفويين، قد اتصل بحاكم مرعشوألبستان، "علاء الدولة" أمير سلالة "ذي القدر" التركمانية التي كانت تسيطر على وادي طوروس من مرعش إلى ألبستانوملطية، حيث تلتقي منطقة نفوذ المماليك الشراكسة بالفرس، طالباً منه المساهمة في حرب الصفويين، لكن علاء الدولة اختلق الأعذار في عدم المجيء إليه، متعللاً بكبر سنه وإنه لا يستطيع القيام بأي مجهود لكونه تحت الحماية المملوكية، وماإن مضى السلطان في طريقه حتى هاجم علاء الدولة ساقة الجيش بإيعاز من السلطان قنصوه الغوري، فأرسل السلطان للغوري يخبره بما فعل علاء الدولة، فرد عليه الغوري بكتاب: "إن علاء الدولة عاص فإن ظفرت به فاقتله"، وفي نفس الوقت أرسل إلى علاء الدولة يشكره على فعله ويغريه بالاستمرار بتصلبه تجاه العثمانيين،[34]وبسبب ذلك ترك السلطان سليم 40 ألفًا من جنده ما بين سيواس وقيصرية، للحفاظ على الأمن بالأناضول من أي اختراق قد يحصل من أي جهة من الجهات التي تنافسه، ولحماية مؤخرة الجيش من أنصار الشاه وقوات ذي القدر،[35] كذلك أرسل السلطان إلى قنصوه الغوري، قبل وصوله لچالديران، رسالة فيها تهديد مبطن يخبره بأن الدولة الصفوية غدت قاب قوسين أو

أدنى من الزوال،[36] ولم ينس السلطان فعلة علاء الدولة، فانتقم منه عند عودته، وذلك بأن أرسل الصدر الأعظم وابن أخي علاء الدولة "علي بن شاهسوار" للقضاء عليه من جهة، ولإتمام السيطرة العثمانية على التخوم الشمالية للشام من جهة أخرى، ولم يعد الصدر الأعظم للسلطان إلا بعد قتل علاء الدولة في أرض المعركة،[33][37] ولمّا كان علاء الدولة قد اعترف قبل ذلك بسيادة المماليك عليه، فقد بدأ النزاع بين السلطان سليم وبين المماليك الذين كانوا يحكمون آنذاك الشام ومصر،[33]

ومهما يكن من أمر، فقد كانت هناك أسباب للنزاع بين سليم والمماليك أعمق من هذا بكثير، ذلك أن السلطان سليم كان يطمع على ما يظهر في توحيد جميع البلدان السنيّة تحت تاجه، وانتزاع المدينتين المقدستين، مكة والمدينة المنورة، من أيدي المماليك، وقد خشي المماليك سياسة سليم التوسعيّة هذه، فعقدوا المحالفة سالفة الذكر مع الشاه إسماعيل الصفوي،[33]

7. فتح الشام

أخذ السلطان سليم بالاستعداد لمحاربة المماليك بكل ما أوتي من قوّة بعد أن تغلّب على أمير سلالة ذي القدر، ولما عرف سلطان المماليك بتأهب سلطان آل عثمان لمحاربته، أرسل إليه رسولاً يعرض عليه أن يتوسط بينه وبين الفرس لإبرام الصلح، فلم يقبل سليم بهذا الأمر بل طرد السفير بعد أن أهانه،[39] فلم يجد السلطان "قنصوه الغوري" بداً من الحرب، فسار إلى مدينة حلب على رأس جيش كبير لكي يكون على استعداد لكل هجوم قد يشنه العثمانيون على الشام، ولم يكد السلطان سليم يعلم باحتشاد المماليك عند حلب حتى عقد ديوانه فيالقسطنطينية لمشاورته في الأمر، فقرّر الديوان إعلان الحرب على المماليك بعد أن يوفد إليهم سفراء يفاوضونهم في الدخول في طاعة السلطان سليم،[33] وارتكب قنصوه الغوري غلطة سياسية كبيرة عندما أغلظ معاملة السفراء العثمانيين وأهانهم رداً على ما فعله سليم مع سفيره، فلم يكن بُدّ من نشوب الحرب بينه وبين السلطان سليم، وبعد هذه الحادثة، سار السلطان سليم بجيشه إلى بلاد الشام قاصداً مصر ومدينة القاهرة، مقر السلاطين المماليك،[39]

واتصل السلطان الغوري بنائب دمشق من قبل المماليك، "جان بردي الغزالي"، وطلب منه أن يجمع الجيوش في لبنان وسوريا ويسير لملاقاته في حلب،

فطلب الغزالي بدوره من أمراء لبنان، وعلى رأسهم "فخر الدين المعني الأوّل"، أمير الشوف، أن يجمعوا قواتهم ويحضروا إليه، نزل فخر الدين الأول وباقي الأمراء عند رغبة الغزالي، ومشوا إليه على رأس قوّة من الجنود اللبنانيين،[40] تقابل الجيشان، العثماني والمملوكي، بالقرب من مدينة حلب في واد يُقال له "مرج دابق"،[41] وهناك نشبت المعركة الحاسمة بين الفريقين التي قررت مصير سوريا كلها، وأبدى المماليك في هذه المعركة ضروباً من الشجاعة والبسالة، وقاموا بهجوم خاطف زلزل أقدام العثمانيين، وأنزل بهم خسائر فادحة، حتى فكّر السلطان سليم في التقهقر، وطلب الأمان، غير أن هذا النجاح في القتال لم يدم طويلا فسرعان ما دب الخلاف بين فرق المماليك المحاربة، حيث انقلب الغزالي على المماليك، وانضم هو وفخر الدين المعني الأوّل إلى قوّات السلطان سليم، فقاتلا معه، وبذلك رجحت كفّة العثمانيين على كفّةقنصوه الغوري،[40] وكان لسلاح المدفعيّة الذي عززه العثمانيين وأهمله المماليك كبير الأثر في نصر العثمانيين،[39] وقُتل السلطان الغوري أثناء انسحاب المماليك وسنّه ثمانون سنة، وكان ذلك يوم الأحد في 24 أغسطس سنة 1516م، الموافق في 25 رجب سنة 922هـ[39]

وبعد هذه الموقعة احتل السلطان سليم بكل سهولة مدن حماه وحمص ودمشق، وعيّن الغزالي والياً عليها مكافأة له على انحيازه للعثمانيين،[40] وقابل من بها من العلماء، فأحسن وفادتهم، وفرّق الإنعامات على المساجد وأمر بترميم المسجد الأموي بدمشق، ولمّا صلّى السلطان الجمعة به، أضاف له الخطيب عندما دعا له عبارة "حاكم الحرمين الشريفين"، لكن سليماً فضّل استخدام لقب أكثر ورعًا هو "خادم الحرمين الشريفين"،[43][42] واستمر باقي السلاطين من بعده يُلقبون به، وتوارثه بعدهم ملوك آل سعود في القرن العشرين، كذلك اسقبل السلطان وفدًا من أمراء لبنان جاء يهنئه بالنصر، وكان في عداد الوفد "فخر الدين المعني الأوّل" أمير الشوف، و"عسّاف التركماني" أمير كسروان وجبيل، و"جمال الدين الأرسلاني"، فألقى الأمير فخر الدين بين يديّ السلطان سليم خطبة دعا له فيها بالعز والتوفيق وأن يجعل الله عهده عهد إسعاد للأمة الإسلامية،[40] فأعجب السلطان ببلاغة فخر الدين إعجابًا شديدًا، لا سيما وأنه كان يفهم ويتحدث اللغة العربية بطلاقة،[44] فقدّم فخر الدين على سائر الأمراء اللبنانيين ومنحه لقب "سلطان البر" وأقرّه على ولايةالشوف وما جاورها، واعترف له بحق سلالته من بعده في أن يحكموها، كما أقرّ باقي الأمراء على مناطقهم، أما الأمراء التنوخيون الذين بقوا موالين للمماليك أثناء معركة مرج

دابق، فقد عزلهم السلطان سليم عن بلاد الغرب - أي المناطق الساحلية الواقعة بين بيروت وصيدا، وعيّن مكانهم الأمير جـمال الـدين الأرسـلاني،[40] وبضـم بـلاد الشـام، وصلت مساحة الدولة العثمانية إلى 5,200,000 كم^2،[45]

8. فتح مصر

بعد أن انتصر السلطان سليم على المماليك في سوريا، فُتحت أمامه الطريـق نحو فلسطين ومصر،[46] هذا ولما وصل خبر موت السلطان الغوري إلى مصر، انتخب المماليك "طومان باي" خلفًا له،[41]وأرسل إليه السلطان سـليم يعـرض عليـه الصـلح بشرط اعترافه بسيادةالباب العالي على القطـر المصري، فلـم يقبـل وقتـل المبعـوثين العثمانيين،[41] واستعد لملاقاة الجيوش العثمانية عند الحدود، وبناءً عـلى هـذا، عـزم السلطان سليم على قتال طومان باي، فاشترى عدّة آلاف من الجمال وحمّلها مقادير وافرة من المياه ليشرب منها جنده وهم يجتازون الصـحراء إلى الأراضي المصر-ية،[47] والتقت مقدمتا الجيشين عند حدود بلاد الشام حيث هُزمـت مقدمـة المماليـك،[41] وتابع العثمانيون زحفهم نحو مصر، فاحتلوا مدينة غزة على الطريق وساروا عابرين صحراء سيناء حتى وصلوا بالقرب من القاهرة، وكان طومان باي مرابطاً في الريدانيّة، وهي قرية صغيرة تقع على الطريق المؤدية إلى القاهرة،[47] فحفر خندقاً على طـول الخطوط الأمامية، ووضع مدافعه الكبيرة وأعد أسلحته وبنادقه وحـاول شـحذ همـة مماليكه وقواته ولكن دون جدوى؛ فقد جبن كثير منهم عن اللقاء حتى كان بعضهم لا يقيم بالريدانيّة إلا في خلال النهار حتى يراهم السـلطان، وفي المسـاء يعـودون إلى القاهرة للمبيت في منازلهم،[47] ولم يكن من شأن جيش كهذا أن يثبت في معركـة أو يصمد للقاء أو يتحقق له النصر، فحين علم طومـان بـاي وهـو في الريدانيـة بتوغـل العثمانيين في البلاد المصرية حاول جاهـدًا أن يقنـع أمـراءه بمباغتـة العثمانيـين عنـد الصالحية، وهم في حالة تعب وإعياء بعد عبورهم الصحراء، لكنهم رفضوا، معتقدين أن الخندق الذي حفروه بالريدانيّة كفيل بحمايتهم ودفع الخطر عنهم، لكنه لم يغن عنهم شيئًا، فقد تحاشت قوات العثمانيين التي تـدفقت كالسـيل مواجهـة المماليـك عند الريدانيّة عندما علمت تحصـيناتها، وتحولـت عنهـا، واتجهـت صـوب القـاهرة، فلحق بهم طومان باي،[47]

وفي 22 يناير سنة 1517، الموافق في 29 ذي الحجة سنة 922هـ التحم الفريقان في معركة هائلة،[48] وعلى الرغم من الخيانة التي بدرت من بعض ضباط المماليك، فقد أبدى سلاح الفرسان المملوكي شجاعة كبيرة في ذلك اليوم، فلم تكد المعركة تبدأ حتى كرّت ثلّة من فرسان المماليك المدججين بالسلاح الكامل على قلب القوّات العثمانية حيث كانت تخفق راية السلطان الخاصة، وكان على رأس الثلّة طومان بأي نفسه، والواقع أن السلطان سليم لم ينجُ من تلك الهجمة إلا بأعجوبة، فقد أخطأ طومان باي بينه وبين الصدر الأعظم "سنان باشا الخادم"، حيث قبض عليه وقتله بيده ظناً منه أنه السلطان سليم،[49]غير أن ما أقدم عليه سلطان المماليك لم ينفع شيئاً، فذهبت كل جهوده أدراج الرياح أمام المدافع العثمانية، فاضطر طومان باي ومن بقي معه إلى الانسحاب إلى نواحي الفسطاط، تاركين في ساحة الريدانية آلاف القتلى،[47] وبهذا انتصر السلطان سليم على المماليك واستعدّ لدخول القاهرة، وكان الثمن الذي دفعه كلاً من العثمانيين والمماليك في هذه الحرب باهظاً للغاية، إذ بلغ مجموع خسائر الفريقين من الجنود حوالي 25,000 جندي،[50]

9. ما بعد الريدانيّة

وبعد المعركة ببضعة أيام، تحديداً في يوم 23 يناير سنة 1517، الموافق في 8 محرم سنة 923هـ[48] دخل السلطان سليم مدينة القاهرة في موكب حافل وقد أحاطت به جنوده الذين امتلأت بهم شوارع القاهرة، يحملون الرايات الحمراء شعار الدولة العثمانية، وكُتب على بعضها "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً"، وفي بعضها "نصرٌ من الله وفتحٌ قريب"، ولم يكد السلطان يهنأ بهذا الفتح حتى باغته طومان باي في "بولاق"؛ واشترك معه المصريون في هذه الحملة المفاجئة، وأشعلوا في معسكر سليم الأول النيران، وظن الناس أن النصر آت لا محالة، واستمرت مقاومة المماليك أربعة أيام وليال، وظهروا فيها على العثمانيين، حتى إنه خطب لطومان باي في القاهرة في يوم الجمعة، وكان قد دعي لسليم الأول في الجمعة التي سبقتها، غير أن هذا الفوز لم يحسم المعركة لصالح طومان باي؛ إذ سرعان ما لجأ الجنود العثمانيون إلى سلاح البنادق، وأمطروا به من فوق المآذن الأهالي والمماليك، فأجبروهم على الفرار، وفرَّ طومان باي إلى "البهنا" التي تقع غربي النيل في جنوب القاهرة، وذهب ضحيّة هذه المناوشات من العثمانيين والمماليك وأهالي المدينة ما يبلغ خمسين ألف نسمة،[48]

ظل طومان باي يعمل على المقاومة بما تيسر له من وسائل، واجتمع حوله كثير من الجنود وأبناء الصعيد حتى قويت شوكته، غير أنه أدرك أن هذا غير كاف لتحقيق النصر، فأرسل إلى سليم يفاوضه في الصلح، فاستجاب له السلطان العثماني، وكتب له كتاباً بهذا، وبعث به مع وفد من عنده إلى طومان باي، إلا أن بعض المماليك هاجموا الوفد وأفنوه عن بكرة أبيه،[47] فحنق السلطان سليم وغضب غضباً شديداً، وخرج لقتال طومان باي بنفسه، والتقى الجيشان قرب قرية "الوردان" بالجيزة حيث دارت معركة حامية استمرت يومين وانتهت بهزيمة طومان باي وفراره إلى البحيرة،[47] وهنا أعلن السلطان سليم أنه يعفو عمّن يستسلم إليه من المماليك، فاستسلم ثمانمئة من زعمائهم إليه، ولكنه أمر بقتلهم جميعاً،[47]

لجأ طومان باي إلى أحد مشايخ البدو بإقليم البحيرة طالباً منه العون والحماية فأحسن استقباله في بادئ الأمر، ثم وُشي به إلى السلطان سليم، فسارع بإرسال قوة للقبض عليه فأتت به إليه، وكان السلطان قد أُعجب بشجاعة طومان باي وحزمه على القتال والدفاع عن ملكه على الرغم من كل العوائق، فلم يفعل شيئًا سوى معاتبته واتهامه بقتل أفراد الوفد الذي أرسله إليه للصلح، فنفى طومان باي التهمة عن نفسه، وبرر استمراره في القتال بإن الواجب يُحتم عليه ذلك،[41]وكاد السلطان من شدّة إعجابه بجرأة وشجاعة طومان باي أن يعفو عنه، ولكنه لم يفعل تحت تأثير الوشاة الذين حرّضوا السلطان على قتله بحجة أن لا بقاء لملكه في مصر ما دام طومان باي على قيد الحياة، عندئذ أمر السلطان بقتل طومان باي شنقًا، فنُفذ أمره في 13 أبريل سنة 1517، الموافق في 21 ربيع الأول سنة 923هـ بباب زويله، ودُفن الجثمان في القبر الذي كان السلطان الغوري قد أعدّه لنفسه،[51] وبذلك انتهت دولة المماليك وسقطت الخلافة العبّاسية، وأصبحت مصر ولاية عثمانية.

مكث السلطان سليم بالقاهرة نحو شهر زار في خلالها جميع المساجد التاريخية بالمدينة وكل ما بها من الآثار، ووزع على أعيان المدينة العطايا والخلع السنيّة،[52] وحضر الاحتفال الذي يُقام في مصر سنوياً لفتح الخليج الناصري عند بلوغ النيل الدرجة الكافية لريّ الأراضي المصرية، ثم حضر احتفال سفر قافلة الحجاج التي تُرسل معها كسوة الكعبة إلى الأراضي الحجازية وأرسل الصرّة المعتاد إرسالها إلىالحرمين الشريفين، من عهد السلطان محمد "چلبي" الأوّل، بقصد توزيعها

على الفقراء، وأبلغها إلى ثمانية وعشرون ألف دوكا،[53] وفيما كان السلطان سليم في القاهرة قدّم إليه شريف مكة، "محمد أبو نمي بن الشريف بركات"، مفاتيح الحرمين الشريفين كرمز لخضوعه وكاعتراف بالسيادة العثمانية على الأراضي المقدسة الإسلامية؛ وكانت هذه السيادة لسلاطين المماليك من قبل، وهكذا خضع الحجاز لسيطرة العثمانيين من غير حرب أو قتال،[47] ومما جعل لفتح وادي النيل أهمية تاريخية عظمى، أن محمد الثالث "المتوكل على الله"، آخر ذريّةبني العبّاس، الذي حضر أجداده القاهرة بعد الغزو المغولي لبغداد سنة 1258، وكانت له الخلافة بمصر اسمًا،[54]تنازل عن حقه في الخلافة الإسلامية إلى السلطان سليم، على الرغم من أن الأخير كان قد أعلن نفسه قبلاً خليفة للمسلمين في دمشق،[47] وسلّمه الآثار النبوية، وهي بيرق وسيف وعباءة نبي الإسلام "محمد بن عبد الله"،[55]ومن ذلك التاريخ حمل كل سلطان عثماني لقب "أمير المؤمنين" و"خليفة المسلمين".

وبعد أن أصبح السلطان خليفةً للمسلمين، خلع على نفسه لقب ملك البرّين، وخاقان البحرين، وكاسر الجيشين، وخادم الحرمين الشريفين - ويقصد بهذا، سيطرته على عدد من الدول الآسيوية والأفريقية، وبالتحديد مصر، الأناضول، ومعظم أنحاء الهلال الخصيب، وسيطرته على البحر المتوسط وما يتفرع عنه من بحور، والبحار المتفرعة من المحيط الهندي، وهزيمته للجيوش الصفويّة والمملوكيّة، وحمايته للمدينتين المقدستين عند المسلمين، مكة والمدينة المنورة.

بداية الصدام مع البرتغاليين

10.خلفيّة النزاع

نشط البرتغاليون عبر عملياتهم العسكرية البحرية على مدن المغرب العربي الساحلية بالإضافة إلى المحيط الاطلسي،[56] فبعد اكتشافهملرأس الرجاء الصالح وضع البرتغاليون خطة كبرى هدفت الالتفاف حول العالم الإسلامي عبر المحيط الأطلسي، واقتضت الخطة السيطرة على المضائق المهمة التي تربط العالم العربي بالمحيط

الهندي من مثل مضيق هرمز وباب المندب واليمن وجزيرة هرمز وغيرها بحيث يتأمن الطريق للمستعمرات البرتغالية في الهند،[57]

أرادت البرتغال من هذه الخطة ضرب اقتصاد مصر- وجمهورية البندقية واحتكار التجارة البحرية، وقد عُين "ألفونسو دي ألبوكيرك" قائداً لهذه الحملة البحرية، وقد كان من أفكار البوكيرك دخول البحر الأحمر وسرقة قبر النبي محمد ومساومة المسلمين على القدس،[58]بالإضافة إلى محاولة ربط النيل بالبحر الأحمر تمهيدا للهجوم على مصر،[59]

تمكن البرتغاليون من السيطرة على المضائق الحساسة التي تربطالعالم الإسلامي بالمحيط الهندي، وبعد سيطرتهم على جزيرة هرمز تكون حلف بين الشاه إسماعيل وألبوكيرك ضد الدولة العثمانية، وأثرت سياسة الاحتكار هذه على النشاط الاقتصادي في دولة المماليك إبان سقوطها فلم تعد البضائع الشرقية تباع وتشترى في مصر- بل في لشبونة عاصمة البرتغال، ولم تتمكن السلطنة المملوكية من قهر البرتغاليين لانشغال أسطولها في البحر المتوسط بمحاربة فرسان القديس يوحنا وجيوشها البرية بقمع الاضطرابات الداخلية وصد الجيوش العثمانية،[61][60]

11.ضم الجزائر

وعندما تمكن العثمانيون من مصر في عهد السلطان سليم سارعوا في محاربة البرتغاليين وسار أسطول بحري بقيادة "مير علي بك" إلى الساحل الأفريقي واستطاع تحرير مقديشو ومدناً أخرى وأنزل بالبرتغاليين خسائر فادحة، وفي هذه الفترة كان نجم أحد القباطنة المسلمين، واسمه "خير الدين بربروس باشا"، قد سطع، وخير الدين هذا من أصول يونانيّة، كان يعمل وأخاه "عرّوج" بالقرصنة ببحر الروم، ثم أسلما ودخلا في خدمة السلطان "محمد الحفصي" صاحبتونس واستمرّا في حرفتهما وهي أسر المراكب الأوروبية التجارية وأخذ كافة ما بها من بضائع وبيع ركّابها وملاحيها بصفة رقيق،[62]وفي ذات يوم أرسلا إلى السلطان سليم إحدى المراكب المأسورة إظهاراً لخضوعهما لسلطانه، فقبلها منهما، وأرسل لهما خلعاً سنيّة وعشر- سفن ليستعينوا بها على غزو السفن البرتغالية ومساندة الدولة العثمانية في حربها ضد البرتغال،[62] فقويت شوكتهما وأقدم خير الدين على الاستيلاء على ثغر مدينة

"شرشال" بالجزائر، ثم عاد إلتونس وأرسل إلى السلطان سليم بمصر رسولاً يؤكد لديه إخلاصه وولائه للسدّة السلطانية العثمانية،[62]

أما عرّوج، فبعد أن استولى على مدينة الجزائر وهزم الجيوش الإسبانية التي أرسلها الإمبراطور "كارلوس الخامس" المعروف باسم "شارلكان"، لمساعدة أمير الجزائر على المقاومة، فتح أيضًا مدينة "تلمسان"، وقُتل في محاربة الإسبان بعد ذلك، فحفظ خير الدين المدن المفتتحة حديثًا ومنع الإسبان من السيطرة عليها وقتل أمير الجزائر،[62]

وفي خضم الأحداث أرسل أهل الجزائر رسالة إلى السلطان سليم بمصر باسم الخطباء والفقهاء والعلماء والتجار والأعيان تطلب الانضواء تحت الراية العثمانية والمساعدة للوقوف في وجه الإسبان والبرتغاليين، فسارع السلطان سليم بمنح بربروس لقب "بكلر بك الجزائر" وأرسل فرقة من المدفعية وألفي إنكشاري وفتح الباب أمام المتطوعين للذهاب إلى الجزائر لمناصرة أهلها وخص المتطوعين بامتيازات الإنكشارية تشجيعاً لهم كما شرع العثمانيون بإنشاء أسطول بحري ثابت للجزائر، وصكت النقود باسم السلطان سليم الأول، ودعي له على منابر المساجد في خطب الجمعة، وبذا صار هذا الإقليم ولاية عثمانية،[62]

ما بعد الفتوحات

في أوائل شهر سبتمبر سنة 1517، سافر السلطان سليم من القاهرة عائداً إلى القسطنطينية، التي صارت حينها مقر الخلافة الإسلامية، وكان سفره عن طريق بلاد الشام مصطحباً معه آخر بني العبّاس، وعيّن الأمير "خاير بك الجركسي" والياً على مصر، والأخير هو أحد أمراء المماليك الذين خانوا طومان باي وانضموا إلى السلطان سليم وعمل لديه سراً، وكان له دوراً كبيراً في انكسار جيش المماليك فيمرج دابق والريدانية، حيث بثّ إشاعة أن السلطان "قنصوه الغوري" قُتل أثناء معركة مرج دابق، فتفرّق شمل جيشه ووقعوا لقمةً سائغة للعثمانيين، كذلك كان قد عمل على بث روح الهزيمة ونشر بذور الفتنة بين قواد المماليك في مصر، مما تسبب في سقوط دولتهم بعدمعركة الريدانية،[63]

ويروي ابن إياس أن لدى خروج سليم الأول من مصر أخذ معه كميات كبيرة من الكنوز والأموال، كما يُروى انه لدى احتلاله للقاهرة نقل أمهر فنانيها وحرفييها إلى الأستانة، وترك السلطان بالمدينة حامية عسكرية لحفظ الأمن تحت قيادة "خير الدين آغا" الإنكشاري،[64] وفي أثناء عبور الجيش العثماني لصحراء العريش، إلتفت السلطان للصدر الأعظم "يونس باشا"، الذي كان فتح مصر على غير رأيه، وقال له ما معناه أنه قد أتمّ فتحها خلافًا لرأيه، فأجابه يونس باشا بأن فتحها لم يعد عليه بشيء إلا قتل نحو نصف الجيش بما أنه سلّمها لخائن كان غرضه التملك عليها لنفسه، فلا يؤمن ولاؤه للدولة، فغضب السلطان من هذا الكلام الموجه إليه بصفة لوم وأمر بقتل الصدر الأعظم في الحال فقُتل،[64] وكان ذلك في 22 سبتمبر سنة1517م، الموافق في 6 رمضان سنة 923هـ وعيّن بدلاً منه "پير محمد باشا"، الذي كان معينًا قائممقام السلطان في القسطنطينية أثناء تغيبه في فتح مصر لثقته به بناءً على ما أظهره من أصالة الرأي في محاربة الشاه إسماعيل،[64]

وفي 6 أكتوبر سنة 1517م، الموافق في 20 رمضان سنة 923هـ وصل السلطان إلى مدينة دمشق ومكث بها إلى 5 مارس سنة1518م، الموافق في 22 صفر سنة 924هـ[64] ثم سافر إلى مدينةحلب بعد أن حضر الاحتفال بإقامة الصلاة لأوّل مرّة في المسجد الذي أقامه بدمشق على قبر الشيخ "محيي الدين بن عربي" في 5 فبراير من نفس السنة،[64] وبعد أن أقام بحلب مدة شهرين ارتحل عنها قاصدًا الأستانة، فوصلها في 25 يوليو، الموافق في 15 رجب، وأقام بعد ذلك حفلاً ضخمًا ومولدًا نبويًا في مسجد آيا صوفيا بمناسبة وصول الآثار النبوية إلى العاصمة، وأودعها في جناح خاص في قصر الباب العالي،[65] ثم ارتحل عن العاصمة بعد عشرة أيام إلى مدينة أدرنة ليستريح من عناء السفر،[64] وكان الأمير سليمان معيناً حاكماً على القسطنطينية طيلة غياب والده، وبعد وصول الأخير بعشرة أيام استأذنه الأمير سليمان بالسفر إلى ولاية صاروخان المعيّن والياً عليها.

وفي أثناء إقامة السلطان بمدينة أدرنة، وصل إليه سفير من قبل مملكة إسبانيا ليُخابره بشأن حرية زيارة المسيحيين للقدس التي كانت تابعة قبلاً للسلطنة المملوكية، وأصبحت خاضعة للدولة العثمانية، في مقابل دفع المبلغ الذي كان يُدفع سنويًا للمماليك، فأحسن السلطان مقابلته وصرّح بقبوله ذلك إذا أرسل ملكه رسولاً آخر مخولاً له حق إبرام معاهدة مع الباب العالي، وكذلك أتى إليه سفير من قبل

جمهورية البندقية ليدفع له خراج سنتين، متأخر الخراج المقرر على البنادقة نظير بقائهم في جزيرة قبرص،[64]

ترتيبات السلطان الداخلية

12.الإصلاحات العسكرية

كان للعصيان الذي أظهرته الإنكشارية بعد معركة چالديران ورفضها تتبع أثر الشاه إسماعيل ومن معه إلى الجبال الإيرانية أثراً كبيراً على قرار السلطان سليم بتغيير نظام تعيين ضبّاط هذه الفئة، لا سيما وأن المحرّضين على التمرّد كانوا من كبار الضبّاط وعلى رأسهم قاضي العسكر "جعفر چلبي"، وبعد أن قتل السلطان سليم قاضي العسكر وجميع من حرّض على هذه الفتنة، جعل لنفسه حق تعيين قائدهم العام، ولم يكن من بينهم، ليكون له بذلك السيطرة الفعليّة عليهم، وكان النظام السابق يقتضي بتعيين القائد العام من أقدم ضبّاط الإنكشارية،[27]

13.إصلاح البحريّة

أهمل العثمانيون بناء المرافئ والترسانات البحرية لتصنيع السفن الحربية في مدينة القسطنطينية بعد أن افتتحها جد السلطان سليم،محمد الثاني "الفاتح"، فقد اكتفى الأخير، وابنه بايزيد الثاني من بعده، بأن احتفظا ببعض السفن الحربية في مضيق القرن الذهبي بوصفه مرسى طبيعي للسفن، واقتصر عملها على حماية الشواطئ والمياه الإقليمية من أعمال القرصنة والتعدي، وفي شهر أغسطس من سنة 1518، عزم السلطان سليم على بناء ترسانة بحرية ضخمة بغية إنشاء أسطول مكوّن من السفن الحربيّة الكبيرة، لمواجهة السفن البرتغالية بعد أن اشتد خطر البرتغال على العالم العربي ومهد الإسلام،[59][58] ولاستخدامه في الغزوات البحرية،[66] واختار السلطان مضيق القرن الذهبي لإنشاء المرسى، فعمل المهندسون والمعماريين بكدّ حتى أصبح للعثمانيين أسطول بحري متميز، وأحضر السلطان أمهر القباطنة والملاحين العرب والمماليك لقيادة السفن الجديدة، لكنه لم يُقدّر له أن يرى ثمار هذا الأسطول، إذ توفي قبل القيام بأي فتوحات أو غزوات بحرية،[46]

14.العمران والبناء

كان للسلطان بضعة إنجازات معماريّة نظرًا لقصر فترة حكمه ولانشغاله بالغزوات والفتوحات طيلة أيامه، بنى السلطان سليم عدداً كبيراً من المساجد ورمم البعض الآخر، ومن أبرز هذه المساجد: مسجد فاتح باشا ومسجد البستان في ديار بكر، ومسجد ابن العربيفي دمشق، وترميمه للمسجد الأموي، وبدأ العمل في عهده على بناء مسجد يحمل اسمه، ولم يكتمل إلا بعد وفاته،[67] كذلك بنى السلطان بضعة مدارس وتكايا وزوايا للمتصوفين،[69][68] وحوّل أجملكنائس القسطنطينية إلى مساجد، مع إبقائه على يمين جدّه، السلطان محمد الفاتح، لبطريرك الروم الأرثوذكس آنذاك، بعدم مس نصف الكنائس الثاني الذي تركه لهم بعد فتح المدينة،[70]

15.اهتمامه بالأدب

كان السلطان سليم محباً للأدب والشعر والتاريخ، ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم، وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي أمجاد الماضي، وفي هذا انعكاس لشخصيته، حيث وصفه عدد من معاصريه أنه "بطل ملحميّ"،[71] كان سليم أيضاً شاعراً متميزاً يتقن اللغات التركية والفارسية والعربية وينظم بها الشعر تحت الاسم المستعار "مَهْلَس سليمي"؛ وما زالت مجموعة من أشعاره بالفارسية باقية حتى اليوم في إسطنبول وفي برلين بعد أن نقلها إلى هناك الإمبراطور "ڤيلهلم الثاني" سنة 1904،[71]

وفي إحدى أبرز قصائده، كتب السلطان يقول: "إن سجادة تكفي صوفيَين اثنين، ولكن العالَم كله لا يكفي لملكين"،[71] وفي هذا إشارة إلى نزاعه مع الشاه إسماعيل وسلطان المماليك على زعامة الشرق الأوسط.

وفاته وإرثه

بعد عودة السلطان سليم من مصر، إنهمك بتجهيز أسطول بحريضخم لمعاودة الكرّة على جزيرة رودسبحرًا بعد أن لم يتمكن جدّه، السلطان محمد الفاتح،

من غزوها في أيامه، ويُقال أيضًا أنه كان يُحضّر لحملة على المجر، كذلك كان يستعد لمحاربة الشاه إسماعيل الصفوي مجدداً بعد أن تحالف مع البرتغاليين ضده وسمح لهم بإقامة مراكز حصينة على الجزر الفارسيّة الواقعة في الخليج العربي، جمع السلطان خمسة عشر ألف جندي من المشاة تحت قيادة "فرحات باشا" بيلر بك الأناضول، وأرسل إليهم عدداً عظيماً من المدافع والذخائر، وسار إليهم من القسطنطينية إلى أدرنة لقيادتهم في الحملة.

وفي هذه الفترة أصيب السلطان بمرض عُضال يقول البعض أنه كان الجمرة الخبيثة، ويخمنون أنه أصيب به لشدّة تعرضه للجثث في ساحات المعارك واستنشاق روائح الأجساد المتحللة، بالإضافة إلى سفره إلى بلدان ذات مناخات مختلفة ومتناقضة أشد النقيض وتعرّضه لما في جوّها من أدواء،[1] ويقول آخرون أن ما أصيب به السلطان لم يكن سوى سرطان جلديّ أصيب به جرّاء تعرّضه الطويل لأشعة الشمس خلال غزواته وسفره على صهوة جواده،[1] بينما يقول البعض أنه جرى تسميمه من قبل طبيبه الخاص الذي كان يداويه،[1] وعلى الرغم من ألمه، استمر السلطان بسيره إلى أدرنة لإتمام مشروع فتح رودس، لكن لم يمهله المنون ريثما يتم ذلك، فعالجه في رحلته هذه، وتوفي في يوم 22 سبتمبر سنة 1520م، الموافق في 9 شوّال سنة 975هـ في السنة التاسعة لحكمه وحوالي الخمسين من عمره،[72]

وأخفى طبيبه الخاص خبر موته عن الحاشية ولم يبلغه إلا للوزراء، فاجتمع كل من پير محمد باشا وأحمد باشا ومصطفى باشا، وقرروا إخفاء هذا الأمر حتى يحضر الأمير سليمان من إقليم صاروخان خوفاً من أن تثور الإنكشارية كما هي عادتهم عند تولّي كل سلطان،[73] فأُرسل إلى سليمان خبر موت أبيه، فقام قاصدًا القسطنطينية ودخلها في يوم 29 سبتمبر، الموافق في يوم 16 شوّال، من نفس السنة، وبعد ظهر ذلك اليوم وصل الصدر الأعظم پير محمد باشا من أدرنة وأخبر عن وصول جثمان السلطان سليم في اليوم التالي،[73] وعند ظهر يوم 30 سبتمبر وصل الجثمان، فخرج السلطان سليمان والوزراء والأعيان لمقابلة النعش خارج المدينة، ثم ساروا في موكب الجنازة حتى واروا سليماً التراب على أحد مرتفعات المدينة، حيث كان يبني مسجدًا يحمل اسمه، وأمر السلطان ببناء مدرسة وعمارة لإطعام الفقراء صدقة على روح والده،[73]

ضريح السلطان سليم:

يروي المؤرخون الذين عـاصروا السـلطان سـليم الأوّل أنـه كـان رجـلاً فـارغ الطول، عريض المنكبين، وذو شارب عظيم،[74] وقيل بأنه كان يضع أقراطـاً في أذنيـه، لكن عددًا من المؤرخين يشك بصحة هذا الأمر، ذلك لأن وضع الرجل لأقـراط محـرّم في الإسلام، بما أنه يُعتبر تشـبهًا بالنسـاء،[75] كـذلك فقـد كـان عصـبيّ المـزاج سريـع الغضب وذو شخصيّة ملحميّة كما أبطال الروايات، ويؤخذ عليه ميله لسفك الدماء، فكان سريع الفتك بمن يعارضه، مسرفاً في قتل خصومه لا يعرف العفو مطلقاً، فقتـل سبعة من وزرائه لأسباب واهية، وكان كل وزير مهددًا بالقتل لأقل هفوة، حتى صار يُدعى على من يُرام موته بأن يُصبح وزيراً له،[73]وفي إحدى الروايات أن أحد وزرائه طلب منه مازحًا أن يخـبره مقـدماً بتـاريخ إعدامـه، حتـى يرتـب أمـوره، فـرد عليـه السلطان يقول بأنه في الواقع كان يفكر لفترة من الوقـت في إعدامـه إلا أنـه لم يجـد بعد البديل المناسب، ولكنه وعده بإخباره بمجـرد العثـور عـلى البـديل،[71] ويجمـع المؤرخون أنه على الرغم من فظاظته، فقد كان سليم الأول فاضلاً ذكيًا، بعيد الغـور، وصاحب رأي وتدبير وحزم، وإنه على الرغم من قصر مدة ولايته، فإنه حضّر الدولـة العثمانيةلتصل أعلى درجـات الكـمال والازدهـار في عهـد إبنـه سـليمان،[71] وهنـاك مأثورة شهيرة مفادها أن سليم ملأ الخزينة الملكية حتى اتخمت ثـم أقفلهـا بختمـه الشخصي، وقال: "إذا استطاع شخصٌ أن يملأ الخزينة أكثر من ذلك، فليقفلها بختمه"، أي بدلاً من ختم سليم، لكن الخزينة ظلت مغلقة بختم الأخير حتـى انهيـار الدولـة العثمانية بعد حوالي 400 سنة،[76] وقد أُطلق اسـم هـذا السـلطان عـلى عـدد مـن المواقع في تركيا وخارجها، مثل مسـجد السـلطان سـليم القـاطع في مدينـة مانهـايم بألمانيا،[77] وفي سنة 2010 أنشأ فيلم سينمائي تركي يحمل اسـم السـلطان ويتحـدث عن حياته،[78]

شخصيته

حسب معظم المؤرخين، فقد كان سليم عصـبي المـزاج ذا شخصـية دمويـة، ويبدو أنه كان يتوقع الكثير من مرؤسيه، وقد أعدم العديد مـن كبـار وزرائـه (وقـد طلب أحد وزرائه مازحاً بإخباره قبل إعدامه بفترة، حتى يرتب أموره، وقد رد سـليم

على ذلك بأنه في الواقع كان يفكر لمدة من الوقت في إعدامه إلا أنه لم يجد بعد البديل المناسب، ولكنه وعده بإخباره بمجرد العثور على البديل).

وبالتالي، فقد كان بلاطه يعج بالحيوية، حيث الجوائز بقدر عظمة المخاطر، والمعتقد أنه كان حاكماً ذا همة وفعالية، بالرغم من فظاظته أحياناً، وكانت فترة حكمه قصيرة، إلا أنها أعدت، أغلب الظن، الدولة العثمانية لأوج عظمتها تحت إنجازات ابنه،[79] وهناك مأثورة شهيرة مفادها أن سليم قد ملأ الخزينة الملكية حتى اتخمت ثم أقفلها بختمه الشخصي ـ ثم أصدر قراراً إذا استطاع شخصاً أن يملأ الخزينة أكثر من ذلك، فبإمكانه أن يقفلها بختمه (بدلاً من ختم سليم)،" الخزينة ظلت مغلقة بختم سليم حتى انهيار الدولة العثمانية بعد 400 سنة.

وكان سليم أيضاً شاعراً متميزاً بكل من التركية والفارسية وكان يقرض الشعر تحت الاسم المستعار مَهْلَس سليمي; ومازالت مجموعة من أشعاره بالفارسية باقية حتى اليوم،[80]

[2014]

الفصل الثامن

ظهور

الإمبراطورية البيزنطية

[8]

دار البداية ناشرون وموزعون

ظهور الإمبراطورية البيزنطية

مصطلح الإمبراطورية البيزنطية يشير إلي الأمبراطورية الرومانية الشرقية، وهي تعود لأيام دقلديانوس الذي أدرك أن الإشراف على شؤون الدفاع عن الامبراطورية مهمة ثقيلة لا يستطيعها رجل واحد ولهذا قام دقلديانوس بوضع نظام جديد في الحكم خالف به نظم الامبراطورية منذ قيامها أيام أوغسطس فقد قسم الامبراطورية إلى قسمين كبيرين بواسطة خط عمودي يمتد من الشمال إلى الجنوب عبر البحر الأدرياتيكي واختار زميلاً له ورفيق سلاح ليكون شيكا له في الحكم ولكن ذلك لم يكن كافيا للقضاء على الفتن وكبح جماح القادة الطامحين في العرش، كما أن اتساع الامبراطورية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً أدى إلى صعوبة التحكم في الأمور وحماية الحدود وخصوصاص مع كثرة الولايات وثقل الإدارة فاضطر دقلديانوس وزميله إلى الاعتراف بقائدين آخرين كإمبراطورين وشريكنين لهما في الحكم ولكن كلا منهما منح لقب قيصر دلالة على أنه أقل شأنا من دقلديانونس وشريكه ولم يكونا سوى مساعدين،كما رأى دقلديانوس أن روما لمن تعد صالحة للبقاء كعاصمة وحيدة للامبراطورية فأتخذ عاصمة جديدة في الشرق هي نيمقوميديا على الشاطئ الآسيوي للبوسفور وذلك قبل بناء القسطنطينية وأقام بها وجعلها مركزاً لحكمه وكان ذلك بدافع إدراكه بأن ميزان القوى بدأ يميل لصالح الأقاليم الآسيوية والشرقية في الإمبراطورية وذلك بفضل ثرواتها وغناها وقوة الكثافة السكانية فيها وكذا تمركز المدن الهامة في أرجائها ولهذا نجد أن دقلديانوس استأثر لنفسه بحكم تراقيا ومصر وأقطار آسيا الغنية.

عندما تولى الإمبراطور قنسطنطين الحكم أعاد في العام 330م إعمار مدينة بيزنطة على شاطئ البوسفور لتظهر إلى الوجود باسم القسطنطينية، ولتكون عاصمة لما عرف بالإمبراطورية البيزنطية والذي يطلق عليها كثير من المؤرخين المحدثين اسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الإمبراطورية الرومانية المتأخرة، كونها امتداد لتاريخ الإمبراطورية الرومانية القديمة، وتمييزا لها عنها بعد أن سقطت في الغرب على أيدي الغزاة الجرمان، وأيضاً تمييزاً لها عن الإمبراطورية الرومانية الغربية التي تم إحياؤها على يد شارلمان في بداية القرن التاسع الميلادي.

نظام الحكم:

حُكمت الإمبراطورية البيزنطية - والتي تعتبر الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية القديمة - بنظام حكم ملكي عبر أسر إمبراطورية توالت على العرش، فمنذ انتقال العاصمة من روما، وتأسيس العاصمة الجديدة القسطنطينية وخلال تاريخها الطويل؛ الذي أمتد أحد عشر قرنا، توالت على العرش ثلاث عشرة أسرة حاكمة، ومن النظام الملكي الذي بدأت به تاريخها إلى النظام الجمهوري الذي شمل القرون الخمسة الأخيرة قبل الميلاد، وكان يمثل روما اثنان من القناصل يمثلان السلطات العليا في الجيوش الرومانية، وكان يتجدد انتخابهما كل عام، وكان هناك مجلس السيناتو أو مجلس الشيوخ الذي كان يمثل السلطة التشريعية في روما، وخلال هذا العصر الجمهوري تمت أغلب الفتوحات الرومانية الهامة واتسعت مساحة الامبراطورية الرومانية إلى أقصاها أواخر القرن الأخير قبل الميلاد في عهد الامبراطور أوغسطس، وفي القرن الأول الميلادي أضيفت إليها ولاية بريطانيا، وقد أدى التنافس بين قادة الجيش في القرن الأخير من عهد الجمهورية إلى إهمال التقاليد التي كان معمولاً بها وصار الانتصار في الحرب مبرراً كافياً للوصول إلى قمة السلطة، وكان أول من فعل ذلك هو أكتافيوس الذي انتصر على خصمه أنطونيوس سنة 31ق،م.

ديانة الدولة البيزنطية:

اتجه العالم الروماني باهتمام متزايد نحو عبادات الشرق المتدفقة بالحيوية مثل عبادة إيزيس من مصر وعبادة إله السماء وإله الشمس من سوريا وعبادة متراس إله الشمس المحارب ومخلص الإنسان من فارس بل إن الإمبراطور ماركوس أورليوس سيد معبدا للإله الفارسي ميتراس وقرر الإمبراطور أورليان جعل عبادة الشمس ديناً رسمياً للدولة ولكن هذه العقائد لم يكتب لها البقاء طويلاً،ووسط هذه الفوضى الدينية بدأت المسيحية تظهر وتتفوق، ففي عهد الإمبراطور أورليان كانت المسيحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً في الشرق ورسخت جذورها في إيطاليا وتغلغلت في روما نفسها حتى صارت خطراً كبيراً على الديانة الرسمية للدولة وهي عبادة الإمبراطور وعبادة الشمس وخصوصاً بعد اعتناق عدد من أفراد الجيش للمسيحية، وهذا ما أدى بالدولة إلى كراهية المسيحيين وإلى إقدام السلطات الحاكمة على اضطهادهم مثلما حدث على عهد كل من الإمبراطور دكيوس 249-251م والإمبراطور فاليريان 253-260م حين تعرض المسيحيون لأشد أنواع الاضطهاد، وفي نفس هذا

الإطار كره دقلديانوس المسيحية التي ظهرت في أوروبا كعقيدة جديدة ونظام وافد من الشرق خصوصا وأن هذه الديانة بدأت تدعو أتباعها إلى عبادة إله غير الإمبراطور ثم ازداد سخطه عليها حين بدأت تظهر تطرفا وبدأت تخير أتباعها بين الإخلاص للمسيح أو الإخلاص للإمبراطور وخصوصاً حين تعدى نطاق تأثيرها في المجتمع إلى التأثير في الجيش، وحين قضت على ولاء الجند للإمبراطور وصارت عبارة عن دولة داخل الدولة وشكلت جماعات سرية لا تقيم وزناً لنظامالدولة وتقاليدها، ويذكر أن المسيحية كعقيدة تسربت إلى أفراد من البلاط الإمبراطوري وإلى بعض أفراد أسرة دقلديانوس نفسه وهذا ما جعل الإمبراطور يشرع في اضطهاد عنيف للمسيحية وأتباعها قبل سنوات قليلة من اعتزاله للحكم، ففي سنة 302م بدأت حركة اضطهاد كبيرة للمسيحيين جرى بمقتضاها طردهم من البلاط ومن صفوف الجيش ونفيهم إلى جهات نائية وحرمانهم من حقوق المواطنة ومنعهم من تولى الوظائف الإدارية وحرق كتبهم المقدسة وهدم كنائسهم وإصدار قرار يحرم عتق الأرقاء منهم وتبع ذلك حركة تعذيب عنيفة في سنة 304م جرى فيها إعدام كثير من المسيحيين وإذاقتهم ألواناً من العذاب الأمر الذي أدى بكثير منهم إلى التخلي عن عقيدتهم، وهكذا كانت السنوات الأخيرة من حكم دقلديانوس فترة محنة كبيرة للمسيحيين وقد حدث مثل ذلك في شمال إفريقيا أيضاً حيث عرف الأهالي محاكمات وعمليات تعذيب وحرق مؤلمة ولكن القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية هو الذي عانى القسط الأكبر من الاضطهاد الديني وذلك بحكم تركز المسيحيين في الشرق مهد المسيحية الأول، غير أن هذه الحركة العنيفة من الاضطهاد لم تلبث أن خفت حدتها عندما قرر دقلديانوس اعتزال السلطة سنة 305م بعد أن صار شيخاً ولازمه المرض المزمن، وبعد أن أكمل عشرين عاماً على رأس الإمبراطورية، وكذلك بوفاة جاليروس عدو المسيحية اللدود سنة 311م.

وإذا كان مسلك دقلديانوس تجاه المسيحية قد اتسم بقدر كبير من العنف والقسوة فإن ذلك قد أدى إلى انقلاب خطير في الحياة الدينية للأمبراطورية ووضعها على أعتاب مرحلة جديدة على عهد خليفته قسطنطين الذي جعل الإمبراطورية حصنا للمسيحية وملاذا لأتباعها والذي ترأس أول مجمع ديني مسكوني في تاريخ المسيحية وتبنى وجهة نظر رجال الكنيسة وجعل من المسيحية الوجه اللامع للحقبة الجديدة في بيزنطة.

أعداء الدولة البيزنطية وموقفها منهم:

أهم أعداء الدولة البيزنطية هم: الفرس: العرب المسلمون، الجرمان، الفرس:

- ظهر خطر الفرس الساسانيين في إيران عام 227م في غرب آسيا فقد اجتاحوا بلاد الشام ووصلوا إلى بحر إيجه في اليونان ونجح الملك الفارسي شابور في سجن الامبراطور الورماني فليريان وهكذا أصيبت الامبراطورية الومانية بكارثة عظيمة وكان ذلك سنة 260م، كما وقعت مدينة إنطاكية العريقة التي كانت معقل السيادة الرومانية في الشرق في يد الفرس، وفي عهد كسرى الثاني استغل نزاع على السلطة في الإمبراطوريةِ البيزنطية وانطلق مع جيوشه باحتلال شامل للأراضي البيزنطية ضد ملك الروم فوكاس، ففي عام 608م وصلت جيوش الفرس في آسيا الصغرى إلى كريسبوليس المواجهة للقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (أي في الجانب الآسيوي)، وفي نفس الوقت تقدمت قبائل الآفار والسلاف المتحالفين مع الفرس في البلقان لتطوق القسطنطنية من الجانب الآخر (الأوربي)، وغزت جيوش تلك القبائل كذلك عامة البلقان ووصلت إلى أثينا وقد وسع الفرس رقعة ممتلكاتهم في الشام وأرمينيا، وفي عام 613 وصلت جيوشهم إلى دمشق، وانتصر الفرس في عدة معارك منها معركة حاسمة في سهل حوران بين مدينتي بصرى وأذرعات وأخرى عند البحر الميت ثم في العام التالي 614 زحف جيش القائد الفارسي شهر بازار إلى القدس حيث حاصرها الفرس حوالي 20 يوماً، ثم دخلوها عنوة وجعلوها نهبا للحرائق، وقتل اليهود حلفاء الفرس عدداً كبيراً من النصارى يقدره بعض المؤرخين بـ57 ألف، ودمر الفرس كنيسة القيامة واستولوا على الصليب المقدس (الذي يعتقد النصارى أن إلههم صلب عليه) ونقلوه الي عاصمتهم المدائن، ثم تقدم إلى مصر، فسقطت الإسكندرية في أيديهم سنة 619، وترتب على ذلك انقطاع القمح عن القسطنطينية وازدياد سوء الأحوال الاقتصادية، ولكن في عهد الامبراطور هرقل الذي يعتبر منقذاً للمبراطورية البيزنطية فهو صاحب فكر سياسي وإداري وعسكري لمم جراح الدولة البيزنطية، وبدلاً من منازلة جيوش الفرس المتوغلة في أراضي الامبراطورية، قام بالاتفاف عليهم ومهاجمتهم في عقر دارهم في البلاد الفارسية، فقد ترك العاصمة المحاصرة القسطنطينية وهاجم

بلاد فارس مِنْ المؤخّرةِ عن طريق الإبحار من البحر الأسود فاستولى على أذربيجان سنة 624م، حيث قام بتدمير أكبر معبد نار مجوسي انتقاماً لتخريب كنيسة القيامةفي القدس، وقد استغل الإمبراطور البيزنطي هرقل غياب قادة الجيش الساساني وربح عِدّة إنتصارات مُدَمّرة للفرس بعد 15 عاماً من حربهم للبيزنطيين، حملة الامبراطور هرقل تَتوّجتْ في معركة نينوى، حيث انتصر الملك هرقل في عام 627م انتصاراً ساحقاً على الجيش الفارسي بقيادة راهزاد وهذه المعركة الحاسمة قد قررت مصير الصراع بين الطرفين قتل بعدها كسرى واستعاد هرقل الصليب المقدس وأعاده إلى القدس سنة 630م.

العرب المسلمين:

كانت دار الإسلام بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية تعني كياناً سياسياً مناوئاً له دينياً واجتماعياً، فكنوا يعتبرونهم أكثر الأعداء أهمية وخطراً، لاسيما أن المسلمين قد اخذوا منهم أهم مناطقهم الاقتصادية مصر- والشام، ولما كانت عليه الدولة البيزنطية من انهاك نتيجة لحروبها مع الفرس فقد استغل المسلمون الوضع ومعركة أجنادين عام 634م اليرموك عام 636م وفتوحات الشام خير دليل فقد مرت عقود كثيرة بعد ذلك أصبح فيها المسلمون يقومون بالمبادرة في الهجوم حتى إنهم حاولوا السيطرة على القسطنطينية نفسها في مرات عديدة في العهد الأموي، ولكن في فترة ضعف الدولة العباسية استغل الامبراطور البيزنطي رومانوس الأول ليكايينوس وأخذ زمام المبادرة في الهجوم على الثغور الاسلامية لمدة 22 عاماً سقطت خلالها ملطية إحدى الثغور الاسلامية وأصبح إقليم الجزيرة ومنطقة ديار بكر مكشوفة أمامهم دون حراك من الخلافة العباسية الضعيفة آنذاك، وقد بدأهجوم الدولة البيزنطية على الثغور الاسلامية مدة قرن من الزمان تقريباً بدأت سنة 926م، ومع قيامالدولة العثمانية وتزعمها للعالم الإسلامي كان لابد من إنهاء ما سبق أن قاموا به الأوائل المسلمين في محاولة القضاء على الدولة البيزنطية وقد تم لهم ذلك عام 1453م بسقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح.

الجرمان:

بدأت العلاقات بين الجرمان والإمبراطورية الرومانية بمرحلة من السلم والتعاون بين الجانبين استغرقت حوالي قرنين من الزمان أي إلى نهاية القرن الثاني

الميلادي وبالتحديد نهاية عهد الامبراطور ماركوس أورليوس سنة 180م،ولكن الأمور أخذت في التبدل باتجاه العداوة ابتداء مـن أواخـر القـرن الثـاني حـين عاثـت قبائـل الجرمان فساداً في حوض نهـر الـدانوب وأخـذت هجماتهـم في هـذه المرحلـة طـابع الهجمات المتفرقـة والعمليـات الحربيـة غـير المنظمـة وغـير الشـاملة، وقـد تنازلـت الامبراطورية الرومانية للقوط عن إقليم داشـيا بالبلقـان وذلـك لتـأخير تغلغلهـم في أراضيها، وفي أواخر القرن الرابع الميلادي توجهت الامبراطورية الرومانية للإفادة مـن هذه العناصر المتحمسة الوافرة النشاط وعملت على اسـتخدامهم كجنـد مرتزقـة في الجيوش الرومانية وهكذا صار كثير من القادة العسكريين في الجيش الروماني تجـري في عروقهم دماء جرمانية وخصوصا بعد أن صار التزاوج بين الجانبين أمـراً مألوفـا في القرنين الثالث والرابع الميلاديين من بين الأسباب التي دفعت الجرمان إلى التحرك إلى تخوم الامبراطورية الرومانية الاسـتفادة مـن مظـاهر الحضـارة الرومانيـة وطمعـاً في السيطرة على ثروات الأراضي الرومانية وخصـبها وكـذلك التغـيرات التـي حـدثت في المنطقة من حولهم وأسهمت في دفعهم إلى جوف الامبراطورية الرومانية وذلك منـذ أواخر القرن الثاني الميلادي، ومن بين هذه التغيرات جوانب اقتصادية تتمثل في ضيق سبل العيش في بلادهـم نظـراً لتزايـد أعـدادهم وفقـر أراضـيهم وكونهـا عبـارة عـن مسـاحات شاسـعة مـن الغابـات والمسـتنقعات هـذا إضـافة إلى تعرضـهم لكـوارث الطبيعة من جفـاف ومجاعـات وفيضـانات وحرائـق في الغابـات وصـواعق، وهنـاك جانب آخر من هذه التغيرات له طابع عرقي ويتمثل فيما حدث مـن ضـغط قبائـل أخرى على الجرمـان كالصـقالبة والسـلاف مـن جهـة الشرـق حملـتهم عـلى التحـرك والزحف باتجاه مواطن أخرى عبر نهـري الـراين والـدانوب ويتطلعـون في حسـد إلى الأراضي الخصبة والمدن العامرة على الضفة الأخرى للنهرين الكبيرين، غـير أن تحـرك فريق من الجرمان الشرقيين وهم القوط وزجفهم إلى داخل الامبراطوريـة الرومانيـة كان نتيجة لتحرك شعب آسيوي آخر أشد ضرواة وأكثر وحشـية وهـم الهـون حيـث هزمـوا القـوط الشرـقيين وراحـوا يـدفعونهم وغـيرهم مـن الجرمـان إلى داخـل الإمبراطورية الرومانية، وقـدتميزت هجـمات الجرمـان أواخـر القـرن الرابـع المـيلادي بطـابع الهجـمات المنظمـة والهجـرات الجماعيـة الكبـيرة وانتهـي الأمـر إلى اسـتقرار الجرمان الدائم داخل حدود الامبراطورية الرومانية وتأسيس ممالك جرمانية معروفة ظلت قائمة فترات طويلة لتصبح أحـد العنـاصر الهامـة والمـؤثرة في التـاريخ الأوروبي الوسيط، ولكن وبعد دخول الهون إلى داشيا سـنة 376م وهـزيمتهم لعشـائر القـوط الغـربيين وإجلائهـم عـن هـذه المنطقـة مـن البلقـان توسـل القـوط الغربيـون إلى

الإمبراطور فالنز أن يهبهم ملجأ يحتمون به من خطر الهون فسمح لهم هذا الإمبراطور بعبور نهر الدانوب والالتجاء إلى الأراضي المهملة في تراقيا ومحاولة استصلاحها ويبدو أن هذا الإمبراطور كان يهدف إلى الاستفادة من قبائل القوط الغربيين خصوصاً وأن القوط الغربيين اعتنقوا المسيحية وتأثروا بالحضارة الرومانية، ولكن هذا التصرف من الإمبراطور فالنز كانت له انعكاسات سيئة على أمن الإمبراطورية الرومانية، إذ لم يقنع القوط الغربيون أن يكونوا مجرد مواطنين خصوصاً وأنهم لا زالوا يحافظون على طابعهم القبلي فأخذوا يفرضون سلطتهم على السكان المجاورين وبدأوا يستولون لحسابهم الخاص على كل المنطقة إلى غاية نهر الدانوب وأعلنوا الثورة على الإمبراطور فالنز وهزموه في موقعة أدرنة سنة 378م ولقي حتفه على أيديهم وبهذا النصر الكبير بدأوا مرحلة هامة في علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية، وقد بادر القوط الغربيون بانتخاب ملك عسكري عليهم في سن الثلاثين ممتلئاً بالحماسة والجسارة وهو ألاريك الذي قاد عشائره من القوط الغربيين وهجم أثينا وتساليا واستولى على كورنثة وإسبرطة في بلاد اليونان وبدأ يعد العدة لغزو إيطاليا وتعرضت هذه الأخيرة لحصار القوط الغربيين ثلاث مرات حتى اضطرت في النهاية لفتح أبوابها لهم سنة 410م فاستباحتها جيوش ألاريك وعاثت فيها فساداً، بل إنهم أقاموا من جهة أخرى دويلات مستقلة داخل حدودالدولة الرسمية وخصوصاً بعد أن سيطر على مصائرها قادة عسكريون تجري في عروقهم الدماء الجرمانية ولم يكن لهم أي اهتمام بالمحافظة على أمجاد روما وضمان سلامتها وأمنها وقد ظهر قائد شهير من الجرمان الشرقيين وهو إدواكر قائد الإمبراطور الروماني الصغير روميلوس أوغسطولوس الذي أدرك سنة 476م أن لديه من القوة ما يمكنه من خلع الإمبراطور الغربي وإدارة شؤون إيطاليا وقد سلك طريقاً ديبلوماسية للوصول إلى هدفه إذ أعلن ولاءه للأمبراطورية الشرقية وارتبط بالتبعية لها وحصل من مجلس السيناتو عل موافقة شكلية فاتصل بالإمبراطور زينون لطلب تفويض بحكم إيطاليا في ظل التبعية للقسطنطينية وخلع الإمبراطور الغربي، ورحب الإمبراطور زينون بعودة إيطاليا وما بقي لها من نفوذ إسمي في الغرب إلى حظيرة الإمبراطورية الشرقية وهو الأمر الذي شجع أدواكر وخلع آخر الأباطرة الرومان في الغرب سنة 476م ونفاه إلى جنوب إيطاليا وإنفرد بتسيير دفة الحكم في إيطاليا ووضع نهاية لمجد الإمبراطورية الرومانية في الغرب وظل غرب أوروبا دون إمبراطور حتى توج شارلمان سنة 800م.

الأسر التي حكمت الإمبراطورية:

أسرة قسطنطين (306-378)م:

وأهم أباطرتها قسطنطين الذي أعلن المسيحية ديانة رسمية للدولة.

أسرة ثيودوسيوس (379-518)م:

وأهم اباطرتها ثيودوسيوس الـذي قسـم الإمبراطوريـة الرومانيـة إلى شرقـي وغربي بين ابناه أركاديوس وهنريوس.

أسرة جستنيان (518-610)م:

وأهم اباطرتها جستنيان الذي أحيـا الإمبراطوريـة الرومانيـة وأصـدر قـوانين إصلاحية.

الأسرة الهرقلية (610-717)م:

وأهم اباطرتها هرقل الشاب الذي أعاد مجـد الإمبراطوريـة بهزيمتـه للفـرس واستعادة الصليب المقدس.

الأسرة الأيسورية (717-820)م:

أهم أباطرتها ليو الثالث وقسطنطين الخامس اللذان حاربا عبادة الأيقونات، -الأسرة العمورية (820-867)م.

الأسرة المقدونية (867-959)م.

أسرة آل كومنين (1057-1185)م.

أسرة أنجيلوس (1185-1204)م.

أسرة باليولوغوس (1261-1453)م.

أهم القضايا منها:

- موقف الدولة البيزنطية من عبادة الأيقونات:

دعى الإمبراطور ليو الثالث كبار رجال الدولة في القسطنطينية إلى اجتماع سنة 730م أعلن فيه رسمياً قرار تحريم عبادة الصور والأيقونات، خوفاً منه من عودة البلاد للوثنية بعد ما رأى تعلق الناس بهذه الصور والتماثيل وربما كانت نشأة ليو في مرعش بسوريا القريبة من دار الإسلام هي السبب في تأثره بهذا الرأي وربما يرى أن الهزائم التي مني بها الروم ضد المسلمين هي ناتجة عن غضب الرب لعبادتهم وتقديسهم لتلك الصور، وقد استمرت سياسة تحريم الأيقونات مائة عام تقريباً، الجدير بالإشارة فإن التيار المعادي لعبادة الأيقونات كان موجوداً منذ قرون لكن تبني الإمبراطور لهذه الفكرة هو ما جعلها حيز التنفيذ، فقد كانت الأيقونات تعلق ببوبات المدن والقلاع لطرد الأعداء وكان الجند يحملونها معهم في المعارك ومع ذلك كانت المدن والقلاع تسقط بأيدي المسلمين وكانوا ينتصرون على الروم في تلك المعارك الأمر الذي دعم تبني ليو الثالث لمنع عبادة الأيقونات، وقد وجدت اللاأيقونية معارضة من هرم التنظيم الكنسي، وقتل كثير من الرهبان لمقاومتهم لتلك السياسة، كما أن هذه السياسة لن تتمكن من اكتساب تأييد شعبي واسع النطاق بإستثناء الجيش، وقد وصلت هذه السياسة والحركة اللا أيقونية قمتها في عهد ابن ليو قسطنطين الخامس الذي تحطمت فيه الأيقونات واضطهد مؤيديها وقد انعقد مجمع ديني في سنة 754م في قصر هيريا لتقديم الحجج ضد عبادة الصور وأعلنت اللعنه على معارضين هذه الفكرة، وبدأ الإضطهاد الديني ضد المعارضين خاصة الرهبان والذين كان لهم تأييد شعبي عريض فعبادة الأيقونات كان للرهبان منها مصلحة مادية كما أنهم يعتبرون نفسهم حماة للعقيدة، وقد تحول عدد من الأديرة الهامة في العاصمة إلى مؤسسات مدنية، وسجن وعذب الرهبان لمقاومتهم تلك السياسة بل إن بعضهم قد قتل، ولكن في عهد ليو الرابع فقدت الحركة مؤيديها فبدأ يطلق سراح المعارضين من السجون، وعادت عبادة الأيقونات في عهد أرملته إيرين الأثينيه التي كانت مصممة على عودة عبادة الأيقونات وعقدت اجتماع مسكوني عام 786م في نيقية تقرر على أثرها عودة عبادة الأيقونات.

- موقف الدولة البيزنطية من الحروب الصليبية:

جاءت بداية الحروب الصليبية في فترة كانت فيها أوروبا قد تنصرت بالكامل تقريبا بعد اعتناق الفايكينج والسلاف والمجر للمسيحية،فكانت طبقة المحاربين الأوروبيين قد أصبحوا بلا عدو لقتاله، فأصبحوا ينشرون الرعب بين السكان، وتحولوا إلى لسرقة وقطع الطرق والقتال في ما بينهم، فكان من الكنيسة أن حاولت التخفيف بمنع ذلك ضد جماعات معينة في فترات معينة من أجل السيطرة على حالة الفوضى القائمة، وفي ذات الوقت افسح المجال للاوروبيين للاهتمام بموضوع الأرض المقدسة التي فتحها المسلمون منذ عدة قرون ولم يتسن للاوروبيين الالتفات لها لانشغالهم بالحروب ضد غير المسيحيين من الفايكنج والمجريين الذين كانوا يشكلون المشكلة الاقرب وعندما دعت الإمبراطورية البيزنطية لشن حملات صليبية لمساعدتهم ضد توسع المسلمين السلاجقه في الأناضول، ولكن السحر انقلب على الساحر فالدمار الذي كانت تخلفه الحملات الأولى المارة من القسطنطينية عاصمة الإمبراطوريةالبيزنطية ساهم بشكل كبير في انهيارها بعد ذلك فقد تحولت بعض الحملات بعد ذلك نحوها، فالسبب الديني وراء الحملات الصليبية كان يتبعة شغف وطمع بثروات الشرق مع حماسة عسكرية منقطعة النظير لرجال الجيوش الصليبية التي كانت تعشق الحروب والنهب والسلب الذي اعتادت عليه في أوروبا وقد تجلى ذلك في الحملة الصليبية الرابعة عام 1204م التي غيرت اتجاهها وهدفها إلى القسطنطينية وتقسيم الامبراطورية البيزنطية بين الصليبيين والبندقية.

حضارة الإمبراطورية البيزنطية وفنها:

عندما نتحدث عن حضارة بيزنطة لابد أن نمر على طبيعة اقتصادها الذي كان مزيجاً من المشروعات الفردية والتنظيم الحكومي فقد كانت الدولة تحتكر بعض المصنوعات من ما يحتاجه الجيش والموظفين والحاشية من البضائع، حتى وصل الأمر في عهد جستنيان بأن بسط السيطرة على الأثمان والأجور، ومن أهم مناطق الصناعات في الدولة البيزنطية كانت سوريا التي تقع مابين الفرس والقسطنطينية وهم بذلك طبعوا اتلك الحضارة بفنهم وأخلاقهم، وقد كانت عملة البيزنطيين هي صوليدوس التي صكها قسطنطين لتحل محل الأوريوس الذي صكه قيصر، وكانت عملة مقبولة في جميع انحاء العالم، كما أنه بسقوط روما وانتقال

التقدم الصناعي إلى آسيا الصغرى وسوريا، تلاقت في بيزنطة الفن الشرقي الساساني ووومصر القبطي وسوريا النسطوري، فقد اصبح الفن اليوناني الممثل للطبيعة متأثراً بالفن الشرقي ذي الزخارف الرمزية، وبعد ان كانت المواد الفنية والآلهة الوثنية في أعين البيزنطيين ما هي إلاشياطين وأن الهياكل مأواها، فقد استفادوا من تلك الآثار المادية بدلاً من هدمها استخدامها في تشييد الكنائس والمنازل، فقد كانت الدولة تحتاج لتشييد صروح ضخمة لعبادها، فأخذ الفن هنا يثبت وجوده وأصبحت الزينة والزخرفة موجودة على الصروح وكان العباد في حاجة لتماثيل للمسيح ولمريم العذراء لتقريب صور الآلهة لهم، وهنا نشأت فنون النحت والفسيفساء والتصوير في بيزنطة، فالفن البيزنطي اتخذ عن طريقها اسلوباً لنشر المسيحية وإظهار حياة المسيح والعذراء في نقوش بالفسيفساء ورسوم الجدران في الكنائس، وكان هؤلاء الفنانون يعملون في جماعات، وكانت الرسوم متمسكة بالفن اليوناني التقليدي، كما ظهر النقش على العاج وعمل التماثيل الصغيرة وألواح تجليد الكتب، كما ظهر فن الحفر على المعادن الثمينة والأحجار الكريمة فقد كان البيزنطيون يحبون الحلي، أما بالنسبة للموسيقى فقد كانت محببة إلى نفوس البيزنطيين وفي الكنيسة كانت تعزف فقد كانت تمزج العاطفة بالعقيدة، أما بالنسبة للفن المعماري فقد اتحدت مميزات الفنون الشرقية وتجلت في الفن المعماري للكنائس والقصور البيزنطية مثل آيا صوفيا وهي كنيسة البطريق الكبرى بناها جستنيان، كما هناك المسرح الرائع من العهد الروماني والذي يعتبر أجمل مدرج روماني في مدينة سيروس، إذ يعود بناؤه إلى القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وعلى مدرجاته مقاعد حجرية ضخمة مدون عليها أسماء أصحابها من ذوي المكانة المميزة.

أما بالنسبة للتعليم ففي الدولة تعليم ابتدائي على أيدي مدرسين خصوصيين يؤدي لهم الآباء أجوراً أما التعليم العالي يقوم به محاضرون تؤدي لهم الدولة أجورهم، وقد نظم التعليم العالي ثيودوسيوس عام 425م وأنشأ جامعة مؤلفة من 31 مدرساً، كما كان الإقدام على التعليم بغير ترخيص من الدولة جناية، ويكون الترخيص فقط على اتباع الدين الرسمي للبلاد، وقد بنيت الكثير من الجامعات في القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية وأثينا، ومن أعه العلوم التي درست وبرع فيها البيزنطيون الطب والفلسفة والأدب ففي الطب مثلاً برع كثير من الأطباء مثل الإسكندر التراليسي وطبيب جستنسان ايتيوس الذي وضع موسوعة طبية تضم أحسن مافي الطب القديم، كما كان الطب يعتمد على التنجيم والخرافات والعلاج

بمواقع النجوم، كما ازدهر علم الكيمياء عند البيزنطيين الذين استخدموا الطرق التجريبية ولهم الفضل بعد الله في تقدم علم كيمياء السبائك والمعادن، ومن أهم الكتب التي ألفت في التاريخ في العهد البيزنطي التاريخ الكنسي، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، كتب الحروب، التاريخ السري.

[2014]

الفصل التاسع

علاقة البيزنطيين بالمسلمين

[9]

دار البداية ناشرون وموزعون

علاقة البيزنطيين بالمسلمين

- العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين قبل خلافة الرشيد، وتناولت العلاقة في عهد أبي جعفر المنصور، الذي اهتم بتحصين الحدود الإسلامية وحدد أسلوب القتال بالصوائف والشواتي، كما وضحت دور الرشيد في خلافة والده المهدي، حيث قاد الرشيد جيشاً كبيراً انتصر على الروم.

- العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين في خلافة الرشيد (170- 193 هـ/786 - 808م)،وفيها عني الرشيد بإنشاء منطقة العواصم قرب إنطاكية، وبنى مدينة طرسوس، لتكون مركزاً استراتيجياً يغزون المسلمين منه، وحرّك جيوش الصوائف والشواتي ناحية الروم، كما بينت العلاقة بين الرشيد وإيريني- سنة 183- 186 هـ/ 799- 802م- والتي توقفت فيها الشواتي والصوائف على بلاد الروم، لإعلان إيريني الطاعة للمسلمين ودفع الجزية السنوية لهم ووضّحت- أيضاً - العلاقة العدائية بين الرشيد ونقفور- سنة 187 - 193 هـ/ 802- 808م حيث تقدم الجيش الإسلامي صوب هر قلة وفتحها سنة 187 هـ/ 802 م.

في نهاية هذا البحث خاتمة بأهم نتائجه ومنها: أنه تحقق الهدف المنشود من الشواتي والصوائف، وأخذ صوت الإسلام يعلو في بعض المدن الرومية، وبدأ الروم يحسبون للمسلمين ألف حساب، باعتبارهم القوة الغالبة، ودخل الآلاف من الروم في دين الإسلام.

العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين قبل خلافة الرشيد في الدولة العباسية:

أ) تمهيد عن العلاقة في عهد أبي جعفر المنصور وابنه المهدي:

بعد أن أقام العباسيون دولتهم في العراق سنة 131هـ/748م كان النفوذ البيزنطي قابعاً في شمال الشام حيث تحصن الروم في مواقع حصينة في جبال طوروس وآسيا الصغرى وبحر مرمرة، وأخذوا يطلّون منها على المسلمين ساعات الضعف أو الانشغال ويتراجعون إليها في ساعة القوة، وبدايةً انتهز الإمبراطور قسطنطين الخامس كوروليموس (124- 159هـ/741- 775م) فرصة انشغال العباسيين بأحداث إقامة دولتهم والتمكن لأنفسهم ومواجهة مشاكل المركزية

والإقليمية وأغار في سنة (133هـ/ 750م) على منطقة الحدود (الحدود بين المسلمين والروم) - أي منطقـة الثغـور- وأتى عـلى جهـود المسـلمين في التحصـين، ودمّـر خـطّ حصون الفرات، ثم الخطّ الممتد من نهر الفرات إلى البحر الأبـيض المتوسـط، وهـدّد النظام الثغري كله تهديداً خطيراً فحاصر ملطية واستسـلم أهلها له، ولـذلك اهـتم أبـو جعفـر المنصـور (137- 158هــ/754 - 774م) بتحصـين الحـدود، فـأمر عمّـه - صالـح بن علي - بإعادة تحصين ملطية.

يبدو أنه أول من جعل لمنطقة الجزيرة كياناً إدارياً مسـتقلاً؛ فقـد ولى عبـد الوهاب بن إبراهيم الإمام على الجزيرة والثغور، وسخّر في ذلك العمل الجليل جنود الدولة الجدد، فقد خرج الحسن بن قحطبة في سبعين ألفاً، وجمع العمال مـن كافـة البلاد الإسلامية، ويذكر البعض أن الحسن كان يحمل الحجارة بنفسه احتسـاباً، وقـد استطاع الجند الخراسانية أن يعيـدوا بناء ملطية في نحو ستة شهور، ومن ذلك تبين أن المنصور هو الذي وضع أساس النظام الثغـري الـذي وصـل إلى حـدّ الكـمال زمـن المعتصم (218 – 227هـ/833 – 841).

حرص المنصور عـلى وضـع أسـلوب للقتـال وتقاليـده، والـذي حـافظ عليـه الخلفاء الذين تعاقبوا بعده، ففـي عهـده نظمـت الصـوائف والشـواتي، فقـد كانـت هناك أوقات معيّنة يغير فيها المرابطون في الثغور تحدث في فصـل الربيـع والصـيف وتسمى بالصوائف ويشير قدامة بن جعفر إلى أن غزو الربيع كان يبـدأ في منتصـف مايو بعد أن تكون الخيل قد سمنت وقويت من رعيها، ويستمر الغـزو ثلاثـين يومـاً (أي حتى منتصف شـهر يونيـو) وتجـد الخيـول أثنـاء هـذه الغـارات الغـذاء الـوفير والمرعى الخصـيب في أراضي البيـزنطيين التـي تعيـث فيهـا، ثـم يـركن المسـلمون إلى الراحة حتى منتصف يوليو، فتبدأ غارات الصيف وتستغرق قرابـة الشـهرين، ويبـدو أن ممن اشتهر بالبطولة في ميدان الصوائف في عهد المنصور رجل يـدعى مالـك بـن عبد الله الخثعمي الذي بلغ من شدة بلائه في الحرب وظفـره فيهـا وغنائمـه الكثـيرة منها أن سمي مالك الصوائف.

أما الشواتي فكانت تبدأ في مستهل فبراير والنصف الأول من مـارس وكانـت غزوات المسلمين تتركز في الصيف وقلّما تحدث في الشتاء؛ نظراً للـبرودة الشـديدة في بلاد الروم، وخاصة أن الثغور يقع معظمهـا في أعـالي جبـال طـوروس حيـث تغطـى بالثلج أغلب فصل الشتاء والربيع، وربما أيضاً لأن طبيعة العنصرـ العـربي الشرـقي لا

يحتمل هذه البرودة وهذه الثلوج، وكذلك لأن تحركات الجند تكون بطيئة بسبب الأمطار والوحول وغيرها.

وتابع محمد المهدي (158 - 169هـ/ 774 – 785م) السير على درب أبيه في بناء الحصون، وحشد الجند ومحاولة تأمين حدود الشام من غارات البيزنطيين، فتصدى للإمبراطور البيزنطي ليو الرابع (159-164هـ/775-780م) وأرسل عدة حملات، منها حملة بقيادة الحسن ابن قحطبة سنة (161هـ/777م) الذي دخل بلاد الروم وثقلت وطأته على أهلها حتى صوّروه في كنائسهم.

ولقد أثمرت استراتيجية المنصور وابنه المهدي في شمال الشام، وأصبحت مدنه - وفي مقدمتها ملطية - حصناً منيعاً للقوات الإسلامية يهاجمون منه القوات البيزنطية التي لا تفتأ في الإغارة على المسلمين من حين لآخر، وكانت سنّة حميدة طبّقها من جاء بعدهم من خلفاء بني العباس حتى إذا اكتملت أصبحت درعاً يقي المسلمين من أخطار أعدائهم.

وكان للصوائف والشواتي أثرها الكبير في نفوس البيزنطيين، فبعد أن كانت الإدارة البيزنطية لا تعير المسلمين كثيراً من الاهتمام؛ لأنهم في نظرهم قبائل بدائية يفتقرون إلى النظام والوحدة، - وربما كان هذا قبل خلافة معاوية بن أبي سفيان - أصبحوا بعد ذلك يحسبون لهم ألف حساب، فقد أرغمتهم سياسة المسلمين في الشواتي والصوائف إلى إخلاء منطقة الحدود في أطراف دولتهم من السكان؛ حتى لا تتعرض لهجمات المسلمين في الصيف والشتاء، في حين أبقوا بعض الحاميات للدفاع عنها فقط، مما شجع خلفاء بني العباس بعد المهدي على انتهاج نفس السياسة.

ب) دور الرشيد في هذه العلاقة في خلافة والده المهدي:

لم يكتف المهدي بما أحرزه الحسن بن قحطبة من نصر في أرض الروم؛ بل قرر أن يغزوهم بنفسه ويصحب معه ابنه هارون الرشيد، فتحرك الجيش الإسلامي من بغداد في جمادى الآخرة سنة 163هـ/779م وجعل عليها ابنه موسى الهادي (169- 170هـ/785- 786م) وبعد أن وصل المسلمون حلب سلّم قيادة الجيش لابنه الرشيد لانشغاله بإدارة الدولة العباسية - فواصل الطريق مخترقاً آسيا الصغرى حتى بلغ مدينة صمالو، وحاصر قلعتها صمالو، ونصب المجانيق عليها ثمان وثلاثين ليلة حتى فتحها الله عليهم.

ويعزى انتصار الرشيد إلى نشاطه وقوته، وكـان لوجـود المهـدي معـه دافعـاً قوياً شجعه على التقدم إلى بلاد العدو، كما كان لوجود عناصر متعددة في جيشه من خراسان والعراق والشام دافعاً لهم على التنافس الشريف في إظهار القوة أمام الروم، فضلاً عن أنهم كانوا هيئوا أنفسهم للقاء الخصم مدة شهرين، حيث أقاموا بـالبردان وأنفق فيهم نفقة كبيرة، كما كـان لآل برمـك دور في التعجيـل بالنصر. فقـد أظهـروا بسالة في حربهم للروم، يقول ابن كثير: "وكان لخالد بن برمك في ذلك أثـر جميـل لم يكن لغيره وكذلك أبناؤه"، ثم صالحهم الرشيد عـلى ألاّ يقتلـوا ولا يرحّلـوا ولا يفـرّق بينهم.

وفي سنة 164هـ/780م عاد عبد الكبير بن عبد الحميد أدراجه مـع الجـيش الإسلامي – وكان قد بعث به المهدي على رأس الصوائف ذلك العـام – حقنـاً لـدماء المسلمين ؛ لعلمه أن الروم استعدوا لهـم في درب الحـدث في تسـعين ألفـاً يتقـدمهم بطارقتهم (ميخائيل وطازاذا)، ولابد أنهم جاءوا لرد الاعتبار بعـد هـزيمتهم في قلعـة صمالو، إلاّ أن المهدي أغاضه ذلك وعدّه انهزاماً، ولهذا بعـث بابنـه الرشـيد في العـام الذي يليه سنة 165هـ/781م على رأس الصائفة لغزو الروم؛ لثقته في حسـن قيادتـه، ولقد ألقت الدولة العباسية بثقلها كله في هذه الحرب، وهـذا واضـح في قـول بعـض المؤرخين ((أن الجيش الذي قاده هارون الرشيد بلغ خمسة وتسعين ألفـاً وسـبعمائة وثلاثة وتسعين رجلاً، وكان معه من النفقة مائة ألف دينـار وأربعـة وتسـعون ألـف دينار وأربعمائة وخمسون ديناراً، ومن الفضة إحدى وعشرون ألف وأربعمائة ألـف وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم)).

وتقدم هارون الرشيد بهذا الجيش حتى توغل في بلاد الروم فافتتح حصـــن ماجدة، وتصدى لـــه البيزنطيـون بقيادة نقيطا Niceta قـومس([30]i) القوامسـة، ولكنهم هزموا، وواصل الرشيد توسـعه في قلـب آسـيا الصـغرى متجهـاً إلى نقموديـة (نيقوميديا)؛ ليحارب الدمسق – صاحب المسالح – وظل الرشيد ينتقل من نصر إلى آخر حتى أشرف على خليج البحر الذي على القسطنطينية عند مدينـة كريزوبـوليس Chrysopolis.

وسـاعد الرشـيد عـلى إحـراز هـذا النصر الحاسـم تـردي الأوضـاع للدولـة البيزنطية فقد كان يحكمها (قسطنطين السادس بن ليو الرابع - 164 - 181هـ/ 780 - 797م – وهو طفل لم يتجاوز حينئذ العاشرة من عمره بوصاية أمه إيريني والتـي

لم يكن لها دراية كافية بسياسة المسلمين، كما أن الدولة البيزنطية لم تهيئ نفسها لمواجهة الجيوش الإسلامية التي بلغت استعداداتها ما بلغت، فضلاً عن رغبة المسلمين الأكيدة في رد الاعتبار للمسلمين الذين انسحبوا أمام البيزنطيين سنة 164هـ / 780م وقد أحدث هذا النصر أثره الواضح والعاجل إذ بادرت إيريني إلى طلب المصالحة مع المسلمين؛ خوفاً من اجتياح الرشيد بلادها.

وكانت الهدنة تنص على توقف الحرب بين المسلمين والبيزنطيين مدة ثلاث سنوات، وتتعهد إيريني أن تدفع للمسلمين جزية سنوية وقدرها تسعون ألف قطعة دينار تؤديها في نيسان الأول من كل سنة وفي حزيران، وأن تمدّ الجيش العباسي بالأدلاء، وتيّسر لهم المؤن في الطريق عند كل منزلة.

ولقد بالغ المؤرخون المسلمون حين ذكروا أن من قتل من الروم في هذه الصائفة أربعة وخمسون ألفاً، وما ذلك إلاّ لإظهار قوة الخلافة العباسية والحطّ من شأن البيزنطيين وفي هذه الغزوة يقول الشاعر مروان بن أبي حفصة:

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً إليها القنا حتى اكتسى الذلّ سورها

وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتها والحرب تغلي قدورها

وقبل انتهاء مدة الهدنة بأربعة أشهر تجدد القتال بين الطرفين؛ لامتناع البيزنطيين عن دفع الجزية للمسلمين ويظهر أن سوء الأحوال الاقتصادية كان سبباً مباشراً في ذلك، فقد رأت إيريني بنظرتها الخاطئة أن معالجة هذه الأوضاع لا يكون من الداخل؛ حتى لا تفقد محبة الناس لها وتستبعد عن الحكم، وبناء على ذلك تجاوزت عن كثير من الضرائب المقررة على السكان، وأمعنت في منح امتيازات للأديرة لما للرهبان من أهمية في تأييدها ومساعدتها فرأت في الامتناع عن دفع الجزية تعويضاً لهذا؛ ظناً منها أن المسلمين بعيدون عن أراضيها وليس لهم في تلك الأموال أي حق يذكر، وأنهم لن يتمكنوا من عمل أي شيء في هذا الصدد.

وعليه فقد سيّر المهدي سرية على رأسها علي بن سليمان (والي الجزيرة وقنسرين) ويزيد بن بدر بن البطال- سنة 168هـ/ 784م – وصلت إلى بلاد الروم وقاتلت البيزنطيين وهدمت بعض القلاع التي على الحدود وغنموا وعادوا سالمين.

كما اصطدم معيوف بن يحيى الذي انطلق على رأس الصائفة سنة 169هـ/ 785م بالجيش البيزنطي الذي تحرك بأمر من إيريني؛ لرد اعتبار الروم بعد هزيمتهم الأخيرة، وتقابل الجيشان في منطقة الحدث وهُـزم البيزنطيـون وتوغـل المسـلمون في بلاد الروم حتى بلغوا مدينة أُشْنُة وأصـابوا غنـائم وفـيرة وأسروا خمسـمائة رجـل - تقريباً -.

وهكذا ساءت العلاقات بـين الخلافـة العباسـية والدولـة البيزنطيـة في عهـد المهدي، والذي رأى ضرورة اسـتمرار غـزوات الصـوائف والشـواتي، مـثلما كـان عليـه الحال في عهـد أبيـه المنصـور؛ لأن إيقافهـا سـيدفع البيـزنطيين إلى التحـرك لمهاجمـة المسلمين كلما سنحت لهم الفرصـة ويلاحـظ اعـتماده في قيادتهـا عـلى ابنـه هـارون الرشيد، حيث كان محل ثقته من بين أبنائه ولذلك حقّق انتصارات كبـيرة في معظـم حملاته، حتى أشرف في أحدها – سنة 165هـ / 781م - عـلى خلـيج البحـر الأسـود فكانت حملته تلك خاتمة الحملات العربية على البسفور كـما أفـاد بعـض المـؤرخين المحدثين، حيث أظهر فيها من الحنكة والبطولة ما أهلّه لحمل لقب الرشيد قبـل أن يتولى الخلافة.

وكان لانتصارات الرشيد على الإمبراطورية البيزنطية أثره في تشـجيع البلغـار عـلى توجيـه حملاتهـم ضـدها، وتمكنـوا مـن إحـراز عـدة انتصـارات عليهـا دون أن تستطيع القيـام بعمـل إيجـابي ضـدّهم، فلقـد كانـت إيرينـي - إلى جانـب مواجهـة المسلمين لها - تعاني من الاضطرابات الداخلية، فقد بدأ ابنها - قسطنطين السادس - بعد أن بلغ سنّ الرشد يطالب بالعرش ودخل معهـا في صراع مريـر، وسـاندته بعـض العناصر الكارهة لأمه، كما كان عليها أيضاً أن تواجه أطماع شارلمان في الغرب.

كما أن هذا النصر مكّن المهـدي مـن أن يفـرض الطاعـة في آسـيا الوسـطى، فيشير اليعقوبي إلى أن ملك كابل شـاه (حنحل) وملـك طبرسـتان (الاصـبهبذ) وملـك السغد (الإخشيد) وملك طخارستان (شروين) وغيرهم دانوا له بالطاعة والولاء، ولعل هذه التطورات جعلت المهدي -قبـل وفاتـه بعـدة أشـهر- يعـزم عـلى تقـديم ابنـه هارون على ابنه موسى الهادي، حيث بعـث إليـه وهـو بجرجـان بعـض أهـل بيتـه ليقطع أمر البيعة ويقدم أخيه الرشيد.

ثانياً:

(أ)طبيعة العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين في خلافة هارون الرشيد 70 - 193هـ/ 786 - 808م:

كان للفترة التي عاشها الرشيد مع أبيه المهدي 158 – 169هـ / 774 - 785م أثرها الواضح في علاقته مع الروم بعد توليه الخلافة سنة 170هـ / 786م، فقد اطلع بنفسه على خطر البيزنطيين على المسلمين، ورأى أن خطرهم سيبقى قائماً طالما بقيت الحدود مفتوحة بين الجانبين لذا عوّل على إتمام ما بدأه أسلافه، فأنشأ التحصينات على المناطق المخوّفة لتكون جميعاً بمثابة الحصن الحصين الذي يحمي دار الإسلام من ناحية، وليتخذوها قواعد لهم يشنون منها حملاتهم على أراضي الدولة البيزنطية من جهة أخرى.

كما أقام منطقة جديدة قريبة من إنطاكية أطلق عليها العواصم لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها، فتعصمهم وتمنعهم من العدو البيزنطي – بإذن الله – إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر الشامي، وأسكنها جنداً عرفوا بجند العواصم، واختار الرشيد هذه الجهة دون غيرها؛ لأن الروم اعتادوا مهاجمة المسلمين منها، فأخذوا يغيرون عليهم بين فترة وأخرى.

واهتم بطرسوس - وكانت على حدود بلاد الروم -؛ للأخبار التي وصلت إليه من عزم الروم على الاتجاه إليها وتحصينها، لتكون مركزاً استراتيجياً يغزون المسلمين منه، ولهذا أرسل الرشيد سنة 171هـ/ 787م جيشاً بقيادة هرثمة بن أعين، وأمره – بعد أن ينتهي من غزو الروم – أن يهتم بأمر طرسوس، وينقل البنائين المهرة ليبنوا المساكن والحصون فيها، وينقل إليها الناس ليسكنوها، وتمصّر كبقية الأمصار الإسلامية الأخرى.

ولما أحرز هرثمة بن أعين النصر على الروم بادر في تنفيذ ما أوصاه به الرشيد، وأوكل هذه المهمة إلى فرج الخادم؛ لما له من خبرة واستعداد جيد للقيام بمثل هذه الأمور، يدل على ذلك مباشرته للعمل بنفسه، ولا بد أنه دعا كل من لديه معرفة ببناء المساكن والحصون وتخطيط المدن، وزودهم بما يحتاجونه من أدوات البناء، وجلب إليهم الطين والأحجار القوية لبناء الحصون، كما أغدق الأموال على

البنائين، لمضاعفة العمل وإنجازه في وقت مبكر، وأحكم بناءها - بعد سنة تقريباً - وجعل لها خمسة أبواب، وحولها سبعة وثمانين برجاً، ولها نهر عظيم يشق في وسطها، عليه القناطر المعقودة واتجه فرج الخادم إلى بغداد، ونقل المجموعة الأولى من السكان – وكانوا في الأصل من أهل خراسان ممن دخلوا بغداد بعد حركة الفتح الإسلامي وأقاموا فيها – وعددهم ثلاثة آلاف رجل، وكانت المجموعة الثانية من ألفي رجل ألف من المصيصة وألف من إنطاكية، وطلب من الجميع أن يعسكروا في المدائن ريثما يستكمل بناء مساكن طرسوس وحصونها ومساجدها، وحين انتهى البناء منها سنة 172هـ / 788م نقل إليها الجميع ومصّرها، وأقطع أهل طرسوس الخطط، وزاد كل رجل عشرة دنانير في أصل عطائه.

والحقيقة أنه ترتب على سياسة الرشيد على الحدود مع الروم أنهم لم يستطيعوا اختراق منطقة الثغور؛ لقوة تحصيناتها ومرابطة الجيوش الإسلامية الدائمة فيها، والذي مكنّهم من تسيير جيوشهم مرتين أو أكثر في السنة من غير تعب أو ملل وهذا ما سنبيّنه لاحقاً – إن شاء الله تعالى.

(ب) سياسة الصوائف والشواتي سنة 170 – 182هـ / 786 – 798م:

بعد أن أكمل الرشيد تحصينات الثغور والعواصم، وضم طرسوس إلى حوزة المسلمين، ودفع بالجيش الإسلامي للمرابطة فيها لجأ إلى مجادلة البيزنطيين بالتي هي أحسن؛ إذ أرسل إليهم شارحاً حقائق الإسلام مؤكداً على ضرورة سيادة السلم بينهما وفق ما جاءت به الشريعة الإسلامية، وكان موقف البيزنطيين سلبياً مما دفع بهارون الرشيد إلى مضاعفة جهده في تسيير الحملات إلى بلاد الروم، لا رغبة في زحزحتهم عن مراكزهم وفتح بلادهم، بل لتثبيت العواصم والثغور في حدود الروم، وإشعار البيزنطيين بقوة المسلمين، ليظلوا يهابوهم ولا يفكرون في مهاجمتهم تحت أية ظروف يمروا بها، فيأمن المسلمون جانبهم في حالة انشغالهم بتسكين الفتن والثورات التي تطلّ عليهم - من خراسان وبلاد ما وراء النهر وشمال أفريقية – من حين لآخر.

وتحركت صائفة مع بدء خلافة الرشيد – سنة 170هـ/786م -، وكان يقودها: سليمان بن عبد الله البكائي فغزا بلاداً كثيرة – لم تبينها المصادر – في أرض الروم، ونصره الله عليهم، ورجع سالماً مع جنده، وهذا يفيد أمرين:

الأول: أن الرشيد لم يشغله أمر تحصين الثغور سنة 170هـ / 786م عن إرسال حملة إلى العدو البيزنطي؛ حتى لا يستغل الفرصة ويشن هجومه على المسلمين.

الثاني: كان نصر المسلمين في هذه الصائفة دافعاً قوياً لهم على إكمال بناء تحصينات الثغور، والسيطرة على طرسوس، ثم ضمها إلى حوزتهم سنة 171هـ/787م.

وفي سنة 170هـ/786م أيضاً قدم جماعة من الروم - لم تحدد المصادر عددهم - ليفدوا أسراهم، ويظهر أن هؤلاء هم الذين وقعوا في أسر المسلمين بعد دخول معيوف ابن يحيى بلادهم سنة 169هـ/785م وسيطرته على مدينة أُشنة – كما أوردنا سلفاً – ودفع الروم مبالغ طائلة لفداء أسراهم، وعادوا معهم بعد أن أقاموا بين المسلمين سنة - تقريباً - تعلموا فيها دين الإسلام وكانوا نواة خير في بلادهم بعد رجوعهم.

وتقدمت صائفة سنة 171هـ / 787م وعلى رأسها سليمان بن عبدالله الأصم، وتوغلت في أرض الروم واصطدمت بهم وأحرزت النصر عليهم، وغنمت الكثير ثم عادت سالمة.

وفي سنة 172هـ / 788م نزل الرشيد بالجيش في مرج القلعة، وبعث على الصائفة إسحاق بن سليمان بن علي، كما غزا فيها – سنة 172هـ / 788م – زفر بن عاصم الهلالي، حيث أرسل ابنه عبد العزيز على قيادة الجيش، فمضى حتى أتى جيحان، وعاد بسبب البرد الشديد.

ويبدو أن جيش صائفة 172هـ / 788م غزا أرض الروم، ودار بينه وبين البيزنطيين معركة هزم فيها البيزنطيون وقتل قائدهم ديجنيس أكريتاس Digenis Akritas (بطل حرب الثغور البيزنطيين)، في حين انطلقت الأخرى في فصل الشتاء، إلاّ أنها لم تتوغل في أرض الروم لشدة البرودة، وفضلوا العودة، حتى لا يهلك الجيش.

وقاد صائفة سنة 173هـ / 789م عبدالملك بن صالح بن علي، ولابد أنها وصلت إلى أرض الروم ولم تتوغل فيها، وعادت بعد النصر والغنيمة.

وربما استقرت هذه الصائفة – بعد رجوعها من الغزو – في منطقة العواصم؛ ولهذا عاد عبدالملك بن صالح – بأمر من الرشيد – ليقود الصائفة – سنة 174هـ / 790م – وقدم ابنه عبدالرحمن على رأس الجيش حتى بلغ عقبة السيَّر واصطدم بالروم، ونصره الله عليهم، فأسر وغنم.

كما قاد عبد الرحمن بن عبد الملك – أيضاً – الشاتية – سنة 175هـ / 791م – واستعان هذه المرة بأهل الثغور الشامية، وشكل الجميع جبهة واحدة، لم يستطع الروم مقاومتها ووصلوا إلى اقريطية وفتحوها، ثم عاد أهل الثغور إلى أماكنهم؛ لحمايتها من البيزنطين.

وقاد عبد الرحمن بن عبد الملك – كذلك – الصائفة – سنة 176هـ / 792م – وفتح المسلمون أحد حصون الروم كما فتحوا مدينة دبسة، ثم عادوا سالمين، وإن قيادة عبد الرحمن بن عبد الملك المتكررة يدل على أنه كان على اطلاع تام بسياسة البيزنطيين، ومعرفة واضحة بنقاط الضعف والقوة فيهم، وخبرة بأرض الروم، مما دفع الرشيد إلى أن يبعث به على قيادة الصوائف أكثر من مرة.

وفي سنة 177هـ/793م سيّر الرشيد ثلاث صوائف وشاتية، قاد الصائفة الأولى عبد الرزاق بن عبد الحميد التغلبي، وحين وصل المسلمون حدود أرض الروم (مساء السبت، السادس والعشرين من محرم) هبت ريح قوية، وتلوّنت السماء بالحمرة وأعقب ذلك ظلام دامس، فعاد المسلمون إلى معسكرهم في العواصم، وبعد ليلتين (مساء الثلاثاء الثامن والعشرين من محرم) حاولوا إعادة الكرة على الروم، وحال دون ذلك شدة الظلام، ثم حاولوا للمرة الثالثة بعد ثلاث ليالٍ (مساء الجمعة أول يوم من صفر) فعادت الريح قوية واشتد ظلام الليل، وعاد المسلمون إلى الشام، دون أن يلتقوا بالروم بسبب الظروف المناخية التي أرسلها الله إليهم؛ لتمنع وصولهم إلى أرض الروم حتى لا تصيبهم سيوف العدو الذي يفوقهم عدداً وعدة، أو يأخذهم الروم بغتة من حيث لا يشعرون في خضم هذه الأجواء المتقلبة.

ويذكر ابن خياط أن الصائفة الثانية – وكانت في ربيع أول سنة 177هـ/ 793م – كانت على يد عبد الله بن صالح بن علي، وأن الله تعالى أراد بهم خيراً، وكان الجو صافياً، ودخل المسلمون أرض الروم وغزوهم ورجعوا سالمين بعد أن أسروا وغنموا.

وكانت الصائفة الثالثة – وكانت في جمادى أول سنة 177هـ / 793م – على يد يسار بن صقلاب، وتقدم بأهل المصيّصة عن طريق الصفصاف، ثم طوانة، حتى دخل أرض الروم، وهزمهم وعاد أدراجه بعد أن غنم الكثير وسلم من خطر الروم.

كما أمر الرشيد سليمان بن راشد الثقفي أن يقود الشاتية سنة 177هـ/ 793م، فتقدم بالجيش حتى وصل ملطية بعد معاناة كبيرة من شدة البرد، وتمكن المسلمون من هزيمة البيزنطيين ثم عادوا بعد أن مات بعضهم من شدة البرد.

وأدى نجاح يسار بن صقلاب وسليمان الثقفي إلى أن يسيّر الرشيد في سنة 178هـ/ 794م صائفة بقيادة معاوية بن زفر بن عاصم، وشاتية يقودها سليمان الثقفي، ولقد بلغ كلاهما أرض العدو واصطدما بالروم وحققا نصراً مؤزراً.

أما في سنة 180هـ / 796م فقد قاد الرشيد الصائفة بنفسه؛ - لنقض الروم لعهدهم – وشاركه فيها معاوية بن زفر بن عاصم، وأقام الجيش في الرقة شهراً يعدّ نفسه للغزو، ثم اتجه إلى بلاد الشام ووصل أرض الروم وفتح مدينة مَعْصوف، وأسر وغنم ثم عاد مرة أخرى إلى الرقّة، وأقام بها بقية عامة ذلك.

وقاد الرشيد – أيضاً – الصائفة سنة 181هـ / 797م، وشاركه فيها عبد الملك ابن صالح، ودخل أرض الروم وفتح الله عليهم حصن الصفصاف، وربما كان الرشيد يعلم خطورة هذا الحصن على المسلمين، إذ كان الروم يلجأون إليه ليعتصموا فيه بعد مهاجمتهم للمسلمين، ولهذا هدمه الرشيد وسوى به الأرض وحرم الروم منه.

يقول الشاعر: مروان بن أبي حفصة:

إن أميـر المؤمنين المصطفى　　　قد ترك الصفصاف قاعاً صفصفا

ودفع هذا النصر المؤزر الرشيد أن يرسل عبد الملك بن صالح في نفس السنة 181هـ / 797م على رأس صائفة إلى شمال أرض الروم، وفتح الله على أيديهم أنقرة ومطمورة كما غزا منطقة مالاجينا - قرب مطمورة - وغنم منها خيولاً ومعدات حربية، وعزز المسلمون هذا النصر بنصر آخر حين أرسل الرشيد عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح سنة 182هـ / 798م على رأس صائفة توغلت في أرض الروم ودار بينها وبين البيزنطيين - وقائدهم بول Paul - معركة قوية انتصر

المسلمون فيها وغنموا وزحفوا إلى أفسوس، وانتصروا - أيضاً - وغنموا ثم عادوا بعـد أن أسروا سبعة آلاف بيزنطي.

ويظهر أن هذه الصائفة أفزعت الإمبراطورة إيريني، وجعلتهـا تـدفع جزيـة مقدارها تسعين ألف دينار؛ لخوفها على عرشها من السقوط، وعاد الجيش الإسلامي إلى الشام بعد أن أبلى بلاءً حسناً في قتاله للروم.

والحقيقة أن مقاومة البيزنطيين للصوائف والشواتي كانت ضعيفة جـدّاً؛ لأن الإمبراطورية البيزنطية تعاني من اضطرابات داخلية، وأهمها الخـلاف الـذي دار بـين إيريني وبين ابنها قسطنطين حول مطالبتها ببقاء الوضع على ما كان عليه - الوصاية على ابنها - ليصبح تحت سلطانها.

ووقـف الجـيش إلى جانـب إيرينـي، وسـاندت العنـاصر مـن رجـال الـدين البارزين قسطنطين السادس، حتى تولى الحكم ولم يعد لأمّـه مـن صـفة غـير والـدة الإمبراطور، ولكن أعاد إليها ابنها لقب إمبراطورة لرغبة أمه وتوسلاتها الكثيرة، فبدأت الأم من هذا المنطلق في الإطاحة بابنها حتى تظل إمبراطورة مــن الناحــية الرسـمية والعملية، فأثارت رجال الدين ضـدّه بعـدّة طـرق، فاضـطر قسـطنطين السـادس إلى القبض عليهم وإنزال العذاب بهم ونفيهم، وأثارت جيش أرمينية عليـه حيـنما أقـدم على سمل عيني قائدهم الأرمني - الكسيوس - لمعارضته له وأغضبت أعمامه عليـه - وهم الذين ساعدوه في الوصول إلى العرش - عندما سمل عيني أكـبرهم - نقفـور - ونتيجة لذلك انفض الجميع من حوله وكرهوه وتمنوا الخلاص منه، فأمرت إيرينـي بإلقاء القبض عليه ثم سمل عينيه - سنة 182هـ/797م- ليبقـى بقيـة عمـره علـى هامش الحياة، وهذا يشير بوضوح إلى أنه ليس ابنها وإنما ابن زوجها.

جـدير بالـذكر أن هـذه الخلافـات اسـتمرت حـوالي عشرـ سـنوات 170 - 181هـ/786 - 797م (أي منذ بلوغ قسطنطين السادس سن الرشد حتى قرب دخول الجيش الإسلامي أفسوس)، وهذا يفيد انشغال إيريني بالأوضاع الداخلية فلــم تلـق بالاً للدولة البيزنطية، وكان همّهـا الأكـبر أن تظـل إمبراطـورة مـن الناحيـة الرسـمية والفعلية، وربما أثّر عدم اهتمامها بأمن بلادها عـلى الشـعب والجـيش فلـم يحرصـا كذلك على الأمـن، ولهـذا كـان دفـاع الجـيش عنهـا ضـعيفاً، وهـذا لا يعنـي ضـعف استعدادات الروم وتساهلهم في قتال المسلمين، بدليل القتـال المسـتمر بـين الطـرفين

والانتصارات والهزائم والغنائم والأسرى، ولكن يبدو أنه لم يكن هناك جدّية في القتال من جانب الروم لا براً ولا بحراً، يذكر أحد المؤرخين أنه في سنة 182هـ / 798م حدث لقاء بين الأسطولين الإسلامي والبيزنطي في الخليج المقابل لمدينة أضاليا، هُزم فيه الأسطول البيزنطي هزيمة ساحقة، وأسر قائدهم البيزنطي ثيوفيلوس Theopilus.

(ج) بين الرشيد وإيريني في الفترة - 183 - 186هـ / 799 - 802م:

أصبحت إيريني الحاكم الفعلي على الإمبراطورية البيزنطية بعد سمل عيني ابنها قسطنطين، ونعتت نفسها بأنها إمبراطور Basilieus لا إمبراطورة Basilissa، والتمست الوسائل العديدة لتوطيد سلطانها، فتقربت إلى المسلمين بجزية سنوية مقدارها تسعين ألف دينار تدفعها كل سنة؛ لتوقف حملاتهم على بلادها، خشية تساقط المدن الرومية، مما يؤدي إلى ثورة الشعب عليها، وبالتالي زوال سلطانها، وبذلت الهبات والمنح لسكان العاصمة (بيزنطة) الذي يتوقف على رضاهم – إلى حدّ كبير – مصير حكومة قلقة غير مستقرة، وألغت ضريبة البلدية التي يدفعها سكان بيزنطة؛ لأنها تعتبر عبئاً ثقيلاً عليهم.

واستفادت الخلافة العباسية من هذا الصلح الذي عقد بين الرشيد وإيريني – والذي توقفت فيه الشواتي والصوائف على أرض الروم في الفترة بين 183 – 186هـ / 799 – 802م – ففضلاً عن هذه الجزية التي تسلّم للخلافة العباسية – تسعون ألف دينار – مع بداية كل سنة، أتيح للرشيد – خلال فترة الصلح – أن يوجّه اهتمامه للخزر، الذين دخلوا سنة 183هـ/ 799م على المسلمين من ثلمة أرمينية بأكثر من مائة ألف، وهدموا بعض المدن، وقتلوا عدداً من سكانها وأسروا آخرين، فاضطر الرشيد أن يوجّه قوات الخلافة العباسية عليهم، يقودها: خازم بن خزيمة ويزيد ابن مزيد الشيباني، فطردوا الخزر من أرض المسلمين، وسدّت الثلمة، وأصلحوا ما خرّبوه، كما تفرغ الرشيد لتنفيذ بعض الأمور التي كانت تشغل باله ويتحين الفرصة المناسبة ليتخذ قراره بشأنها، ففي الداخل بدأ يتخذ خطوات فعالة للتخلص من نفوذ البرامكة وفي الخارج اتخذ هارون واحداً من أقوى المواقف التي تحسب له؛ إذ اعترف بالأغالبة أمراء مستقلون لشؤون تونس (أفريقية) ولكن في إطار التبعية الإسمية للخلافة العباسية.

ولم يدم الصلح – أعني الصلح الأخير (سنة 182هـ / 798م) الذي تعهدت فيه إيريني بدفع جزية سنوية للمسلمين مقدارها تسعون ألف دينار؛ مقابل عدم غزو المسلمين لأرضها – أكثر من أربع سنوات، فاتهمت - من القادة العسكريين وكبار الموظفين - إيريني بتدمير الموارد المالية للدولة البيزنطية، وخيّم على بلاطها جوّ التآمر والاستبداد، واشتدت المنافسة بين الطواشي ستورياكوس Stauriacus والطواشي أيتوس Aetius على السلطة والنفـــوذ مما أدى إلى نشوب ثورة بالقصر – 186هـ / 802م – دبرّها كبار الموظفين والقادة العسكريين، انتهت باختيار نقفور الأول 186هـ - 196هـ 802م- 811م متولي الخزانة (بيت المال) إمبراطوراً، وتقرر نفي إيريني إلى جزائر الأمراء ثم إلى جزيرة لسبوس (ii[131]) سنة 192هـ/807م ولم تلق الإمبراطورة من يدافع عنها، ويعيدها إلى عرشها الذي اغتصب منها، فكان الجزاء من جنس العمل.

(د) بين الرشيد ونقفور في الفترة 187 – 193هـ / 802 - 808م:

تولى نقفور حكم الإمبراطورية البيزنطية بعد أن كان مسؤولا عن الخزانة المالية فيها، فاهتم بتدعيم اقتصاد البلاد وإنقاذ الخزانة من الإفلاس، الذي نشأ عن إهمال حكومة إيريني، فألغى الأوامر التي أصدرتها إيريني، وامتنع عن دفع الجزية للمسلمين والبلغار، وأعاد الضرائب على سكان بيزنطة، واستولى على بعض أملاك الكنيسة، وأضافها إلى الضياع الإمبراطورية، غير أنه لم يخفض ما عليها من الضرائب، ليستعيد ما بذلته إيريني من الامتيازات والمنح للكنيسة والأديرة كما قام بإصلاح نظام الدفاع عن الإمبراطورية البيزنطية فجعل لكل جندي قطعة أرض مقابل أن يأتي على الفور عند الحاجة إليه بفرس وأداة حربية كاملة، وفرض الخدمة العسكرية على الفلاحين، على أن يلتزم أهل المدن والقرى بتجهيزهم بالعدة الحربية عن طريق ضريبة سنوية تدفع للحكومة.

ونجح نقفور في إصلاح أوضاع الخزانة، وسدّت الحكومة البيزنطية العجز في قوتها الحربية عن طريق الجيوش الناشئة والتي درّبت أفضل تدريب على أحدث الأسلحة التي وصلت إليها الإمبراطورية البيزنطية آنذاك، حتى أنه استطاع القائد بارادنيس توركوس Bardans turcus أن يتصدى لحملة القاسم بن الرشيد وعبد الملك بن صالح التي انطلقت جمادى الثاني سنة 187هـ/ 802م، لكن اهتمام المقاتلين البيزنطيين بالدفاع عن أرض الروم والذود عنها لم يكن في المستوى الذي

هيأهم نقفور من أجله، ففي شعبان سنة 187هـ / 802م أرسل الرشيد ابنه القاسم على رأس الصائفة لنقض نقفور الصلح الذي عقده الرشيد مع إيريني سنة 182هـ / 798م وامتناعه عن دفع الجزية المفروضة عليهم وفرض الحصار على حصن قرّة، بينما حاصر العباس ابن جعفر- وكان معه في الصائفة - حصن سنان ويظهر أن المسلمين فاجأوا العدو البيزنطي وأحكموا الحصار حول الحصنين، لذلك رأى نقفور عدم الاصطدام بالمسلمين الذين هيأوا أنفسهم للقتال، لأن دخولهم الحرب يعني هزيمتهم وانهيار روحهم المعنوية، واستسلام المدن البيزنطية وضياعها من الإمبراطورية، وسارع نقفور إلى إخراج أسرى المسلمين من السجون البيزنطية - وكانوا ثلاثمائة وعشرين رجلاً - وسلّمهم القاسم ابن الرشيد مقابل أن يرحلوا عنهم، وهذا يفيد أموراً كثيرة:

أولاً: حرص القاسم بن الرشيد على استعادة أسرى المسلمين الذين وقعوا في قبضة العدو البيزنطي أثناء غزوة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح سنة 182هـ / 798م؛ لأنها توغلت في أرض الروم حتى بلغت أفسوس، وكان لاستراتيجية بيزنطة الدفاعية في مواجهة المسلمين دور في ذلك، فكانت تضع عصابات الروم في الممرات الجبلية لتعترض المسلمين أثناء عودتهم محملين بالغنائم وتهاجمهم، وقد فهم نقفور رغبة القاسم منذ قدومه بلاده، ولذلك بادر إلى إطلاق سراح الأسرى مقابل أن يرحلوا عن بلادهم.

ثانياً: شدة حصار المسلمين للروم، مما دفعهم إلى طلب النجدة من نقفور وهذا يفهم من قول ابن الأثير ((فحصر العباس بن جعفر حصن سنان حتى جهد أهلها (تعبوا) فبعث إليه الروم ثلاثمائة وعشرين أسيراً من المسلمين على أن يرحل عنهم، فأجابهم ورحل عنهم صلحاً)).

وفي نفس السنة أيضاً (سنة 187هـ / 802م - نهاية شعبان) كتب نقفور إلى الرشيد: ((من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب؛ أما بعد؛ فإن الملكة التي كانت قبلي... حملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن؛ فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلاّ فالسيف بيننا وبينك)).

اعتمد كتاب نقفور على محاور ثلاثة:

الأول: الترضية للرشيد والاعتراف بمكانته الحقيقية على العرب وأنه ملك العرب، ليجعل نفسه في مصافّه بأنه ملك الروم؛ ليرتفع قدره أمام شعبه حين يخاطب بهذا اللقب في المكاتبات، ودفعه إلى ذلك عدم احترام السكان له، لما فرض عليهم من الضرائب التي كانت أعفتهم منها الإمبراطورة إيريني.

الثاني: النقد اللاذع لسياسة النساء وأولهن إيريني، واتهامهن بالحمق والضعف، بسبب الجزية التي كانت تدفعها للرشيد كل سنة؛ للمحافظة على عرشها ومكانتها بين السكان، ولو أنها رفضت دفع الجزية للرشيد وحدثت حرب بين الطرفين، لاتهمت أيضاً بالحمق والضعف لكونها لم تجنب شعبها خطر المسلمين.

ثالثاً: إرهاب الرشيد وتخويفه بالحرب إن لم ينفّذ ما يطلبه نقفور منه، ويرد جميع الأموال التي بعثت بها إليه إيريني في الفترة بين سنة 164 - 186هـ / 780 - 802م، أي عليه أن يدفع لنقفور مليون وتسعمائة وثمانون ألف دينار (جزية اثنتين وعشرين سنة) ولعل دافعه إلى هذا حاجة الدولة البيزنطية إلى هذه الأموال؛ لإصلاح خزانتها المالية؛ بسبب عدم انضباط السكان في دفع الضرائب المفروضة عليهم، وتهاون نقفور في ذلك؛ خشية قيام ثورة داخلية تضعف الحكومة البيزنطية، وتصبح لقمة سائغة لجيرانها، وربما لإظهار نفسه بالمطالب بحقوق البيزنطيين من المسلمين - في الأموال - مما يرفع شأنه أمام شعبه، ولعل نقفور أراد أن يجرّب أسلوب الحرب النفسية مع الرشيد، ظناً منه أن هذا سيؤثر عليه ويدفعه إلى إرسال الأموال التي طلبها منه أو على الأقل يفاوض على بعضها.

ولم يقصد نقفور تحدي الرشيد على الحقيقة وإن كان في ظاهر الكتاب ما يشير إلى التحدي (وإلاّ فالسيف بيننا وبينك) لأنه يعلم أنه ليس في مستوى هذا التحدي، - لما يعرفه من التجارب السابقة مع الرشيد - وأن الروم تنقصهم الشجاعة في مجابهة القوات الإسلامية في ميادين القتال، ولو علم نقفور أن هذا الكتاب سيجلب عليه نقمة الحرب لما أرسله ومن الواضح أن وظيفة نقفور السابقة كمسؤول عن المالية قد غلبت على سياسة الإمبراطورية التي تركزت على إصلاح انهيار الاقتصاد المالي للبلاد، ولكن لسوء حظه أنه افتقر إلى الحكنة السياسية وبعد النظر، وسوء تقدير قوة الخصم وبعبارة أخرى أساء نقفور تقدير وفهم خصمه الخليفة العباسي هارون الرشيد.

وكان موقف الرشيد من كتاب نقفور: أنه حين قرأه اشتد غضبه، ولم يمكّن أحداً أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، فتفرق جلساؤه عنه؛ خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم، ورفض أن يستشير أحداً في أمر نقفور.

ودعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

((بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم؛ قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام)).

والحقيقة أن كتاب نقفور هو الذي حتّم على الرشيد هذا الموقف فما كان لخليفة مثل الرشيد قضى أربعة وعشرين سنة - 163 - 187هـ / 779 - 802م - يجاهد الروم أن يقبل هذا التهديد المشين، ولهذا كانت إجابته عليه واضحة جليّة وهي تجريد الجيش إليه، فوق إهانته وتحقيره.

وفي أول رمضان سنة 187هـ / 802م سار الرشيد على رأس حملة من مائة وعشرين ألف؛ لتأديب نقفور، واتجه إلى هرقلة، وحين بلغ نقفور خبر تقدم هارون أمر قادته بسرعة اقتلاع الأشجار وإلقاءها أمام طريق هارون وإشعال النيران فيها؛ ليمنعه من الوصول إلى هرقلة، لكن هارون وصل النار ولبس ثياب النفاطين فخاضها ثم تبعه الناس حتى وصل هرقلة، وحاصرها عدة أيام حتى فتحها عنوة، وغنم أموالاً كثيرة، وأسر عدداً من أهلها وفيهم ابنه ملكها، ولم يجد نقفور بداً - حين علم بذلك - من مصالحة الرشيد على جزية - تسعين ألف دينار- كل سنة؛ ليبعد المسلمين عن بلاده؛ لانشغال عدد كبير من جيشه بالقضاء على ثورة بارادانس تورکس Bardanus Torcus الذي دان لزعامته جميع ثغور آسيا الصغرى سنة 188هـ / 803م.

أثبتت هذه الأحداث أن بيزنطة كانت تعاني من ضعف الحكام وافتقارهم إلى المقدرة السياسية، خصوصاً فيما يتعلق بمواجهة خصمها التقليدي وهو الخلافة العباسية، فنقفور الذي رفض مواصلة دفع جزية إيريني أصبح عليه الآن الالتزام بالدفع مرة أخرى، بمقتضى اتفاقه مع هارون على النحو الذي عرضنا له، بل إن نقفور يسيء تقدير المواقف مرة أخرى معرضاً بيزنطة للخطر من جانب هارون الرشيد، وذلك حينما خرق اتفاقيته السابقة مع الخليفة العباسي فبعدما تأكد نقفور

أن هارون قد وصل إلى الرقة نقض الصلح الذي عقده مع الرشيد، ولعلـه نـدم عـلى مصالحته للرشيد، خاصة وأنه كرهـه قبـل ذلـك، واتهـم إيريـني بالضعف والحمـق بسببه، ولابد أنه وجد من سوّل لـه نقـض الصلـح وطمأنـه بـأن المسـلمين عـادوا إلى ديارهم، وأصبحوا بعيدين عنهم، وأنهم لن يتمكنوا مـن غـزوهم في الشـتاء القـارس وأنهم سيتهيأون لقتالهم في الصيف القادم إن عادوا إليهم، ولعـل نقفـور قـام بهـذا العمل من قبيل محاولة الإعلان عن قوة بيزنطة منتهزاً فرصة انشغال هارون الرشيد ببعض الفتن داخل الخلافة العباسية.

ولما وصلت أخبار نقض الصلح إلى المسلمين ترددوا في إبلاغ الرشـيد؛ إشـفاقاً عليه وعلى أنفسهم من الكرّة عليهم في مثل تلك الأيام التي كان الـبرد فيهـا شـديداً، لكن احتيل له بشاعر من جنده يقال له: الحجاج بن يوسف التميمي فقال للرشيد:

نقض الذي أعطيتـــه نقفـــور	فعليه دائرة البـــوار تـــدور
أبشر أميـــر المؤمنين فـــإنه	غنمٌ أتـــاك به الإله كبـــير
فلقد تبـــاشرت الـــرعية أن أتى	بالنقض عنه وافـــدٌ وبشـــير
ورجت يمينك أن تعجـــل غـــزوة	تشفي النفوس مكانهـــا مـذكور
أعطـاك جـزيته وطأطأ خـــدّه	حذر الصوارم والـــردى محـذور
فـأجرته من وقعـــها وكـــأنها	بـأكفّنا شعل الضـــرام تطـير
وصرفت بالطـــول العساكر قافـلاً	عنه وجارك آمـــن مســـرور
نقفور إنك حين تغـــدر إن نـــأى	عنك الإمام لجاهـــل مغـــرور
أظننت حين غـــدرت أنك مفلت	هبلتك أمك ما ظننـــت غـــرور
ألقاك حينـــك في زواجر بحـــره	فطمت عليك من الإمام بحـــور
إن الإمـــام على اقتسارك قـــادر	قربت ديـارك أم نـــأت بك دور
ليس الإمـــام وإن غفلنا غـــافلاً	عمّا يسوس بحزمـــه ويـــديرُ
ملك تجـــرّد للجهـاد بنفســـه	فعدوّه أبـــداً به مقهـــور

ولما تأكد الرشيد من نقـض نقفـور الصلـح الـذي عقـده معـه تجهـز إلـيهم وتحرك للمرة الثانية في شهـــر شوال سنة 187هـ / 802م - عـلى رأس حملـة مـن ثمانين ألفاً؛ لتأديب نقفور، واتجه صوب هرقلة، وكان البرد قارساً وعانى بسببه معاناة شديدة، وهذا واضح من قول ابن الأثير ((فرجع إلى بلاد الروم في أشد زمـان وأعظـم كلفة)) وحاصر هرقلة ورماها بالنفط والنار حتى سلّم أهلها، يقول أبو العتاهية:

ألا نادت هرقلة بالخراب من الملك الموفق للصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا ويبرق بالمذكرة القضاب
ورايات يحلّ النصر فيها تمرّ كأنها قطع السحاب

هكذا كانت العلاقة بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية سنة 187هـ / 802م - وخاصة شهر شعبان ورمضان وشوال – عدائية فنقض نقفور الصلح مع الرشيد وامتنع عن دفع الجزية التي اعتادت إيريني دفعها كل سنة، فتمخض عن ذلك فتح المسلمين لبعض حصون الروم، كحصن قرة وحصن سنان، وطلب نقفور من الرشيد ردّ الأموال التي دفعتها إيريني خلال حكمها، فترتب على ذلك فتح هرقلة وتأديب نقفور، ودفعه للجزية المقررة عليه، وبعد عودة المسلمين إلى بلادهم نقض نقفور الصلح واسترد هرقلة، فعاد المسلمون واستردوها، وهذا يدل على أهمية هرقلة لدى الطرفين؛ لأنها تمثل مركزاً استراتيجياً باعتبار أنها مدخل أرض الروم بعد الثغور الشامية، ونهاية حدود الدولة الإسلامية من أرض الشام، كما يدل أيضاً على تحمل الرشيد والمسلمين للغزو وصبرهم عليه، فقد دخلوا أرض الروم ثلاث مرات خلال ثلاثة أشهر؛ بينما يدل على ضعف المقاتلين البيزنطيين؛ لأنهم يقاتلون من وراء الحصون والقلاع مهابة الموت تحت سيوف المسلمين ويتضح كذلك حب نقفور الشديد لنقض العهد والغدر بالآخرين، فقد حدث منه ذلك مع المسلمين ثلاث مرات، فكان من شرّ ما دبّ على وجه الأرض؛ لأنه كفر بالله تعالى، ونقض العهود والمواثيق أكثر من مرة فلا عهد له بعد ذلك ولا ذمة، يقول الله تعالى: {إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون}.

وكعادته نقض نقفور الصلح سنة 188هـ / 803م، وامتنع عن دفع الجزية المقررة عليه- تسعون ألف دينار- فسيّر إليه الرشيد في جمادى الأولى سنة 188هـ/803م جيش الصائفة بقيادة إبراهيم بن جبريل، ودخل أرض الروم من ناحية الصفصاف، وتقابل الفريقان في حرب شديدة، ترتب عليها هزيمة الروم وفرار نقفور من الميدان بعدما جرح ثلاث جراحات، وحصول المسلمين على أربعة آلاف دابة من الروم، وقتل أربعين ألفاً وسبعمائة من الجيش البيزنطي، وإن كان العدد مبالغاً فيه؛ لإظهار قوة الخلافة العباسية، إلاّ أنه يدل على أمرين: أحدهما: كثرة قتلى

الروم والآخر: المعاناة التي بذلها المسلمون في هذه الغـزوة، والآخـر: اعـتراف نقفـور بقوة المسلمين، وإرساله الجزية للمسلمين، وأحدث كل هذا استياءً عاماً لدى الـروم، وخاصة بعـد قتـل الأعـداد الكبـيرة مـنهم وأسر الآخـرين، مـما دفعهـم إلى المطالبـة باستعادة أسراهم، وتم لنقفور هذا في فداء سنة 189هـ / 804م، وكـان عـدد الأسرى المسلمين حوالي ثلاثـة آلاف وسبعمائة أسير، أما الأسرى البيزنطيين فلم تمدنا المصـادر ببيانات عددية عنهم – لكثرتهم -، وقد تولى القاسم بن الرشيد عمليـة فـداء الأسرى التي تمت على نهر اللامس، وحضره العلماء والأعيان وخلق من أهل الثغور وثلاثـون ألفاً من الجنود فلم يبق بأرض الروم مسلم إلاّ فودي به، فقال مروان بن أبي حفصة في ذلك:

وفكّت بك الأسرى التي شيّدت لهـــا محـابس مـا فيها حميم يزورهـــا
على حين أعيا المسلمين فكاكهــــــا وقالوا سجون المشركين قبورهـــا

واستفاد كلا الطرفين من هذه المناداة، فقد أظهر الـروم الرضـا عـن نقفـور، وخاصة بعد إعلانه الانتقام من المسلمين في وقت قريب واسترداد ما أخذ من غنـائم وخيرات، وهذا ساعد على امتصاص غضب الروم وهدوء الأحوال في الدولة البيزنطية سنة 189هـ / 804م.

وفي محاولة مـن نقفـور قطـع عـلى نفسـه عهـداً – بتـأثير مـن الـروم سـنة 189هـ/ 804م – بردّ اعتبـار الـروم في أقـرب وقـت ممكـن؛ كسـباً لرضـاهم ورفعـاً لمكانته فيهم، وفوق هذا امتنع عن دفع الجزية للرشـيد، وعليـه تقـدم في 20 رجـب سنة 190هـ / 805م بقوة من الروم ناحيـة المـدن التـي تحمـي الجزيـرة (الشـمالية الشرقية) وأغار على عيـــن زربي وعـلى الكنيسـة السـوداء (بلـد بـالثغر مـن نـواحي المصيصة)، وقاتل المسلمين المرابطين فيهـا وأسر عـدداً مـنهم، إلاّ أنـه لم يـتمكن مـن المحافظة على هذا النصر، واستطاع أهل المصيصة أن يلحقوا بالروم – أثنـاء عودتهم إلى بلادهم – ويستنقذوا ما في أيديهم من الأسرى المسلمين.

وغضب الرشيد لهذه التطورات وسار في بداية شعبان سـنة 190هــ / 805م وسار معه مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف فيهم مـن المرتزقـة سـوى الأتبـاع وسـوى المطّوعة وسوى من لا ديوان لهم وساروا بعد أن أكملوا استعداداتهم وهيأوا أنفسهم للقاء الروم.

ويذكر الجهشياري أن الرشيد اتخذ دراعة مكتوباً عليها (غاز حاج) فكان يلبسها فقال أبو المعالي الكلابي:

فمن يطلب لقاءك أو يُرده فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففي أرض العدو على طمِرّ وفي أرض الترفّه فوق كور
وما حاز الثغور سواك خلق من المتخلفين على الأمور

ولما وصل الرشيد أطراف بلاد الروم وزع قواده فيها؛ لئلا يؤخذ المسلمون على غرّة، ولا يتاح للروم الإعداد للقاء المسلمين في جهات متعددة، فأرسل: عبد الله بن مالك ناحية ذي الكلاع، فحاصرها وفتح حصنها عنوة بعد أيام، وغنم وعاد سالماً، ووجه داود بن عيسى بن موسى في سبعين ألفاً إلى أرض الروم، ففتح بلاداً كثيرة – لم تذكرها المصادر – وهدم بعض الحصون والقلاع وغنم وعاد مع المسلمين، وبعث شراحيل ابن معن بن زائدة ناحية حصن الصقالبة ودبسة فافتتحهما وأدبّ من فيها من الروم، ثم أسر منهم عدداً (لا يقل عن خمسين رجلاً) وعاد سالماً وأرسل يزيد بن مخلد إلى الصفّصاف وملقونية ففتحهما عنوة وغنم وسبى، ووجه حميد بن معيوف الهمداني إلى ساحل البحر المتوسط فبلغ قبرص، فافتتحها عنوة، وهدم بعض قلاعها وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً.

والواضح أن الرشيد تحرك مع المسلمين صوب هرقلة؛ لتأديب نقفور وإخضاعه لدفع الجزية، إلاّ أنه لما وصل أطراف بلاد الروم غيّر استراتيجيته؛ لأنه علم أن نقفور أثار سكان المدن الرومية على المسلمين، وأمرهم أن يُعدّوا العدة للقائهم فأراد الرشيد أن يباغتهم قبل أن يكملوا استعداداتهم، ففرق القادة في أماكن متعددة من بلادهم – وكان نصيب الرشيد هرقلة والتي سنتحدث عنها لاحقاً – إن شاء الله – ففتحوا مدناً في البر والبحر.

وإن غزو حميد بن معيوف قبرص سنة 190هـ/ 805م يدل على أن العباسيين أخذوا يسعون منذ خلافة الرشيد (170 – 193هـ / 786 – 808م) إلى استعادة السيادة البحرية الإسلامية في البحر المتوسط، ومما يثبت هذا السعي والاهتمام أن الرشيد أحبّ أن يوصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر مما يلي بلاد الفرما فنصحه يحيى بن خالد البرمكي بالانصراف عن تنفيذ ذلك، وخوّفه من دخول مراكب الروم في البحر الأحمر وتهديد الحجاز، فعدل الرشيد عن المضي في تنفيذه.

أما أسرى قبرص فقد أقاموا مع المسلمين في الرافقة تسعة شهور، أظهروا فيها الاستقامة، فأمر الرشيد بردّهم إلى بلادهم، ولابـد أنـه أخـذ علـيهم عهـداً بالنصـيحة للمسلمين وإنذارهم الروم، وألاّ يقفوا إلى صفّهم في حالة هجومهم على المسلمين.

وبعد فتح المسلمين للمـدن والقـلاع السـابقة اتجهـوا صـوب هرقلـة، وكـان سكانها قد تحصنوا في قلعتها الحصينة التي أحيطت بخندق كبـير لا يمكـن الوصـول إليه إلاّ بمشقة، فأقام المسلمون على حصارها شهراً، استخدموا فيه السهام والمجـانيق والعرادات.

وحاول أهل هرقلة تخويف المسلمين، فأرسلوا لهم في اليـوم الأول (3 شـوال سنة 190هـ / 805م) رجلاً من أعلاج الروم، وأعلن تحديه لقتال المسلمين رجلاً رجلاً ثم رجلين رجلين وهكذا حتـى وصـل العشر-ين، ولم يـردّ عليـه أحـد مـن المسـلمين؛ سياسة منهم.

وفي اليوم التالي (4 شوال سنة 190هـ / 805م) خرج العلج الرومي وتحـدى المسلمين كاليوم الأول فخرج إليه رجل (يدعى ابن الجزري) عرف بالبـأس والنجـدة، وتقابل الرجلان وأخذ كلاهما يضرب ترس الآخر، حتى انهزم ابن الجزري أمام الرومي بعيداً عن الحصن، سياسة منه ليلحـق بهـم الرومـي ثـم يلتـف عليـه ابـن الجـزري ويقتله، ولمـا رأى الـروم - وكـانوا عشر-ين رجـلاً - ذلـك المشـهد لجـأوا إلى الحصـن وأغلقوه عليهم، فأوصى الرشيد قادته بتحطيم أسوار القلعة بضربها بالمجانيق وكُتَـل النار المشتعلة، ولما رأى الروم تهافت جنبـات السـور لجـأوا إلى فـتح أبـواب القلعـة وأعلنوا الولاء والطاعة للمسلمين ووافقوا على دفع الجزية، مقابل أن يعطـوا الأمـان على أنفسهم ولا يفرّق بينهم، فقال الشاعر المكي الذي كان ينزل جدة:

هوت هرقلة لما أن رأت عجباً ... حوائماً ترتمي بالنفط والنـــــار

كأن نيراننا في جنب قلعتهـم ... مصبغات على أرسان قصّـــــار

وكان لفتح هرقلة أثره على نقفور الـذي بـادر إلى دفـع الخـراج عـن أرضـه والجزية عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسـين ألـف دينـار منهـا عن رأسه أربعة دنانير وعـن رأس ولـده (إسـتبراق) دينـاران، وهـذا يـدل عـلى قـوة

المسلمين وضعف نقفور أمام المسلمين، الذين فتحوا كثيراً من مدنهم وحصونهم حتى أن هرقلة في هذا الفتح الأخير هُدِمَت أسوارها وحصونها وسُوّيت بالأرض؛ لئلا يتحصن بها الروم مرة أخرى.

وزيادة في تأكيد هذا الغَرَض اشترط الرشيد على نقفور ألاّ يعمّرها، وأن يحمل إليه ثلاثمائة ألف دينار، وأبقى على حصن ذي الكلاع وصملة وسنان من غير تخريب؛ لأنها لا تشكل خطراً على المسلمين كهرقلة وقال أبو العتاهية في ذلك:

إمام الهدى أصبحت بالدين معنّياً وأصبحت تسقي كل مستمطر ريّا
لك اسمان شقا من رشاد ومن هدى فأنت الذي تدعى رشيداً ومهديا
إذا ما سخطت الشيء كان مسخطاً وإن ترض شيئاً كان في الناس مرضيا
بسطت لنا شرقاً وغرباً يَدُ العلا فأوسعت شرقياً وأوسعت غربيا
ووشيت وجه الأرض بالجود والندى فأصبح وجه الأرض بالجود موشيا
وأنت أمير المؤمنين فتى التقى نشرت من الإحسان ما كان مطويّا
تجليّت للدنيا وللدين بالرضا فأصبح نقفور لهارون ذميا

وكان لفتح هرقلة أثره في الروم، فقد أعلن أهل الطوانة نقضهم للطاعة، وأرادوا الكيد للمسلمين، فتحرك الرشيد ناحيتهم لتأديبهم (15 شوال سنة 190هـ/ 805م) وأقام عليها فأظهر أهلها الطاعة، وأقام مسجداً هناك، كما أقام معسكرات لا حصر لها وخلف عليها عقبة بن جعفر وأمره ببناء منزل هنالك.

[2014]

الفصل العاشر

معركة ملازكرد

"جانب من العلاقات السلجوقية البيزنطية"

[10]

دار البداية ناشرون وموزعون

معركة ملازكرد

"جانب من العلاقات السلجوقية البيزنطية"

العلاقات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية قبيل معركة ملازكرد

تميزت العلاقات بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية قبيل معركة ملازكرد بتذبذبها بين الحرب والسلم، وإن غلبت الحرب على معظم مراحلها، إلا أنها حدثت بعض الهدن المؤقتة، ولا نستطيع فهم العلاقات العباسية مع الإمبراطورية البيزنطية إلا من خلال بيان جذور العلاقات السلجوقية البيزنطية لأن السلاجقة كانوا القادة الزمنيين للخلافة[i].

تتضح بداية العلاقات الدبلوماسية السلجوقية البيزنطية من خلال رسالة الإمبراطور قسطنطين التاسع والهدايا الثمينة التي أرسلها للسلطان طغرلبك عام (441هـ/ 1049م) عارضا عليه الصلح والهدنة، وإطلاق سراح الأسرى الابخاز، وكذلك رسالة الإمبراطور إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله عام (443هـ/ 1051م) عارضاً فيها الصلح وعقد هدنة مع الخلافة والسلاجقة، وانتهى الأمر إلى عقد هدنة أشترط فيها الخطبة للخليفة في مسجد القسطنطينية، مقابل إيقاف غزوات السلاجقة لأراض بيزنطة، كما أرسلت الإمبراطورة ثيودورا للخليفة القائم بأمر الله عام (447هـ/ 1055م) تعرض عقد هدنة مقابل دفع الجزية للتخلص من غزوات السلطان طغرلبك لأراضي بيزنطة، بينما نجد السلطان طغرلبك يبادر بمراسلة الإمبراطور البيزنطي إسحاق الأول عام (449هـ/1057م) يعرض عليه عقد هدنة، ولعل السبب في ذلك حتى يتفرغ لحل مشكلة البساسيري والوضع الداخلي في بلاد الشام.

ويبدو أن استمرار عقد الهدن بين السلاجقة والبيزنطيين كانت تظهر عندما يتولى سلطان جديد أو إمبراطور جديد، ولهذا فان البيزنطيين طالبوا من وزير الخليفة فخر الدولة بن جهير تجديد الهدنة مع السلاجقة سنة (457هـ/1056م) والإقرار بما جاء فيها، إضافة إلى وجود بعض المحاولات من الإمبراطور البيزنطي لعقد هدنة قبل معركة ملازكرد بسنة واحدة، ورغبة الخليفة والسلطان السلجوقي في ذلك.

كان السلطان السلجوقي آلب أرسلان قد استولى على الجزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرتي فان وأورمية بالإضافة إلى جورجيا وبلاد الأرمن وعاصمتها آني القديمة، وكانت تُعدُّ الحصن الواقي للإمبراطورية البيزنطية أمام غزوات السلاجقة من الشرق، وقد فتحت هذه الغزوات الطريق أمام السلاجقة لتكثيف غزواتهم على أراضي الروم والتوغل فيها وبخاصة الولايات الأرمنية والأناضول وكبادوكيا.

1. اتخذت الإمبراطورية البيزنطية عدة إجراءات أمام ازدياد نفوذ الأتراك السلاجقة وغزواتهم في أراضي الإمبراطورية، فرأت تأمين حدودها الشرقية المتمثلة بأرمينية وإماراتها الأرمنية، لما يمثله الأرمن من خطر على الإمبراطورية البيزنطية، نتيجة للخلاف الديني بينهما، ولذلك لم تكن الإمبراطورية البيزنطية تأمن الأمراء الأرمن في المنطقة، فبادرت إلى ضم الإمارات الأرمنية تحت سيادتها، وتهجير سكانها من الأرمن إلى آسيا الصغرى، وتمنحهم القطائع فيها، وكانت هجرتهم قد أخذت شيئاً من التنظيم والاهتمام.

وأخذت سياسة الإمبراطورية البيزنطية بعد ضياع أرمينية منها تعيد النظر في إعادة السيطرة عليها من جديد، وجعلها الدرع الواقي لها من غزو الأتراك السلاجقة، وبخاصة أن المشكلات الحدودية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية تأزمت وازدادت حدتها جراء ازدياد الهجرات التركمانية السلجوقية واجتياحهم للأراضي البيزنطية، فكان هدف الإمبراطورية إيقاف هذا المد من الهجرات ووضع حدٍّ للتغلغل والدمار الذي يلحقه السلاجقة في الأناضول، هذا بالإضافة إلى رغبة الإمبراطورية في إعادة سيطرتها على بعض القلاع والحصون الإسلامية وشحنها بالجند للوقوف في وجه الزحف السلجوقي.

وقد بدأ تنفيذ السياسة البيزنطية أثناء انشغال السلطان آلب أرسلان في إخضاع بلاد الشام وبخاصة حلب لسلطان السلاجقة، وانشغاله أيضاً في خطته الرامية إلى دخول مصر والقضاء على الدولة الفاطمية، ولم تكن عملياته العسكرية التي قام بها في أراضي الإمبراطورية البيزنطية إلا في نطاق العمليات الاعتيادية للجيش السلجوقي.

لقد تمثلت سياسة الإمبراطورية البيزنطية بسياسة الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجينس (460- 463هـ/ 1067م- 1071م) الذي رأى إعادة السيطرة على أرمينية وتحويلها لدرع واق لحدود الإمبراطورية البيزنطية من هجمات السلاجقة المتلاحقة.

ويبدو جلياً أن غطرسة الإمبراطور رومانوس كانت دافعاً قوياً في توجهه إلى أراضي المسلمين ورغبته في القضاء عليهم وعلى الإسلام بسبب انتشاره داخل أرمينية، وخير ما يدل على ذلك ما ذكره ابن العبري على لسان رومانوس إذْ قال: "لا يتيسر لي الرجوع بعدما افرغت خزائني من المال، وأصبحت الغلبة بجانبي".

التسمية والموقع:

تختلف المصادر والمراجع حول تحديد اسم المكان الذي حدثت فيه المعركة، غير أن غالبيتها يحددها في منطقة ملازكرد من أعمال بلاد خلاط، وقد جاء لفظ ملازكرد مرسوماً في المصادر والمراجع بعدة أشكال مثل ملاذكرد ومنزيكرت ومنازكرد، منازجرد Manzikert، ويبدو أن جميعها تصحيف للكلمة نفسها مع الاختلاف باللفظ من مصدر إلى آخر، بالإضافة إلى أن لفظ الكلمة في اللغات الأجنبية وترجمتها إلى اللغة العربية قد يغير اللفظ وبالتالي رسم الكلمة، والمقصود في النهاية الكلمة نفسها ملازكرد وهو الموقع الذي حدثت فيه المعركة.

وتذهب مصادر أخرى وتحدد موقع المعركة في بلاد خلاط، والغالب أن هذا اللبس لا يعد اختلافاً إذا ما أخذ بعين الاعتبار أن ملازكرد من أعمال إقليم خلاط، وبلدة خلاط قصبة الإقليم، ولهذا فإن هذه المصادر قد حددت الإقليم بشكل عام دون أن تحدد الموقع الذي حدثت فيه المعركة بشكل دقيق.

وتحدد مصادر أخرى موقع المعركة في موضع يعرف بالزهوة أو الرهوة، يقع ما بين بلدتي خلاط وملازكرد ولعل هذا الموقع أقرب إلى الصواب حيث أن ملازكرد بلدة وليس من المعقول حدوث المعركة فيها، كما تشير أيضاً المصادر أن موضع الرهوة من ضمن أعمال بلدة ملازكرد، ولهذا فإن المصادر نسبت المعركة أحياناً لخلاط مركز الإقليم، وأحياناً أخرى لبلدة ملازكرد، ولا يعتقد أن هناك خلافاً بين المصادر، وإن ورد بعض التسميات المتضاربة إلا أنها تعطينا الدلالة نفسها.

وأما المراجع الحديثة فبعضها يحدد موقع المعركة بـالقرب مـن بحـيرة فـان (آن) والبعض يحـددها شـمال البحـيرة ويـذهب آخـر إلى وقوعهـا في نـواحي خـلاط جنوب غربي ملازكرد، وشمال غرب بحيرة فان.'

ويبدو مما سبق أن المراجع الحديثة تذهب لتؤكد ما جاء في المصادر الأولية من حيث تحديد موقع المعركة، ويمكن حصر ساحة المعركـة في المنطقـة الواقعـة مـا بين ملازكرد وخلاط في موقع الرهوة شمال غـرب بحـيرة فـان وخـلاط وإلى الجنـوب الغربي من ملازكرد كما هو مبين في الخريطة المرفقة.

الاستعدادات قبيل معركة ملازكرد:

تكاد تجمع غالبية المصادر الأولية على أن الجيش البيزنطـي كـان عـلى أتـم الاستعداد من حيث العدد والعدة، إذْ رمت الروم إلى الديار الإسلامية أفلاذ أكبـادها وأخـرجت الأرض أثقالها من عديدها.

ويحدد سبط ابن الجوزي (654هــ/ 1256م) الجـيش البيزنطـي بأربعمائـة ألف مقاتل موزعين على النحو الآتي: مائة ألف مقاتل، ومائة ألف نقاب، ومائة ألف جُرخي[ii]، ومائة ألف صانع، أما من حيث المعدات، فكانت لـديهم حـوالي أربعمائـة عجلة تجرها ثمانمائة من الجواميس، وألف عجلـة أعـدت لحمـل السـلاح والمنجنيـق وآلة الزحف، وكان معه منجنيق يعمل على إمداده ألـف ومائتـا رجـل، ويقـدر وزن الحجر الذي يقذفـه بعشرـة قناطيروتسـاوي كـل حلقـة منـــه مائـــتي رطـل شـــامي ويشارك كل من ابن الأثير (630هــ/ 1232م)، والأصـفهاني (643هــ/ 1245م) وابـن كثير (774هـ/ 1372م) والـدواداري (736هــ/ 1335م) سـبط ابـن الجـوزي في هـذا الرأي، مع تفاوت في ذكر الأعداد.

وأمــا بــاقي المصــادر الأوليــة فتجعــل العـــدد يــتراوح مــا بــين مائــة ألــف مقاتل[iii]ومائتي ألف مقاتل إلى ثلاثمائة ألف مقاتـل باسـتثناء ابـن القلانسي (555هــ/ 1160م) الذي يجعل العدد ستمائة ألف من الروم وسائر الطوائف.

الإشارات التي تـذكرها المصـادر الأوليـة تعطـي انطباعـاً أن عـدد قـوات الجـيش البيزنطي يتراوح ما بين مائة ألف إلى أربعمائة ألف مقاتل إذا استثنينا رواية ابـن القلانسي

وأن هذه الأعداد مجهزة بكامل معداتها الحربية ومتأهبة على كل موجة لخوض معركة فاصلة مع المسلمين.

ويذكر المؤرخ اللاتيني وليم الصوري (581ه/ 1185م) إن الإمبراطور "حشد قواته من الفرسان ومن جميع تشكيلات الرجالة، وجمع كل ما أمكن للشعب إحضاره... وتقدم.... نحو عدوه على رأس فيالقه المحشودة من الرجالة ترافقه قوة ضخمة من الفرسان وقابله بقوة قوية جدا"، ويتضح من رواية وليم الصوري إن الإمبراطور حشد أعداد كبيرة من القوات، وهذا ما يجعل روايته تتفق مع باقي المصادر، وان لم يحدد الأعداد وتركها مبهمة.

إن الأعداد الهائلة التي تذكرها المصادر الأولية وتنحصر تاريخ وفاة أصحابها في بداية النصف الأول من القرن السابع الهجري وبداية الثالث عشر ميلادي، تعتمد في روايتها على ذكر معلومات فرعية واختصارات لبعض التفاصيل التي أوردها سبط ابن الجوزي المعاصر لهم، وان لم تصرح تلك المصادر بهذا؛ ولهذا ورد في هذه المصادر بعض الملابسات في ذكر الأعداد وتفاوتها من مصدر إلى آخر، ولذلك فان رواية سبط ابن الجوزي اقرب للواقع وبخاصة انه اعتمد فيها على جده ابن الجوزي (ت597هـ/ 1200م) المؤرخ للسلاجقة في هذه الفترة، وهي الرواية الوحيدة التي تحتوي جميع التفاصيل الواردة في المصادر الأخرى.

ويمكن تأكيد رواية سبط ابن الجوزي من خلال مراسلات السلطان السلجوقي للإمبراطور حول عقد صلح بادئ الأمر وعودة كلاهما إلى بلادهما، ورفض الإمبراطور العرض بحجة انه استنفذ أموال خزائن إمبراطوريته على تجهيز هذا العدد من الجيش الذي أعده لاجتياح ارض الشام ومصر، وهذا ما يؤكد ضخامة الجيش الذي كان برفقته، وإذا ما استجاب للصلح فانه لا يجد ما يعوضه عن الأموال التي أنفقها، كما انه أكد للقادة العسكريين والإداريين الذين وضعهم برفقته انه سيقطعهم الأراضي التي سيتم الاستيلاء عليها، ويعتمد عليهم في إدارتها، ولابد لهم من حاميات عسكرية للاعتماد عليها في حفظها والذود عنها، وهذه المهمة تحتاج إلى أعداد كبيرة من الجيش، وهذا ما يؤكد كثرة أعداد الجيش البيزنطي في هذه الحملة.

ولكن على الرغم من الأعداد الهائلة التي تذكرها المصادر الأولية إلا أنها كانت تتكون من عناصر بشرية متضاربة في الآراء والأهواء والمذاهب تمثلت بعناصر

مرتزقة من الروم والأرمن والفرس والبجناك والغز والإفرنج' ويضيف ابن خلدون (808هـ/ 1469م) والنويري (773هـ/ 1332م): الزنج، والروس والكرج والقفجاق' وكذلك الفرنسيين والسلاف والأتراك المنحدرين من أصول أخرى، وأتراك من جنوب روسيا، وغيرهم.

هذه الأجناس والعناصر البشرية المتباينة في الأهواء والميول والمذاهب كانت تواجهها مشكلة صعبة، تتمثل في صعوبة إخضاع تلك العناصر المتباينة لأوامر قيادية واحدة، ولذلك سرعان ما دبت الفتن فيما بينهم كما يقول الحسيني عنهم "أقوام أطالت الفتن بهم سواعدها".

ويضاف إلى هذه الاستعدادات في العدد والعدة، فإنه كان يرافق الجيش البيزنطي خمسة وثلاثون ألف بطريق وقومص ودوقس، وإن دل هذا الأمر على شيء فإنه يدل على أن الحملة تضمنت العامل العسكري والإداري بقصد القضاء على الديار الإسلامية والإسلام، والاستيلاء عليها وإقطاعها للحكام الإداريين الذين برفقته، وهذا ما أكده الإمبراطور رومانوس الرابع، قائلاً: "لا أرجع حتى أفعل ببلاد المسلمين مثل ما فُعِل ببلاد الروم"، وتقدم الإمبراطور لغزو بلاد المسلمين وفي نيته الاستيلاء على بلاد الشام ومصر وخرا سان والري والعراق بسبب الخطر الذي كانت تشكله محاولات السلاجقة لضم بلاد الشام ومصر جرّاء عمليات السلطان آلب أرسلان العسكرية في شمال الشام وضم حلب.

ومما سبق يمكن استنتاج الصورة الآتية عن الجيش البيزنطي:

أولاً: كان يتكون من أعداد هائلة مزودة بكامل عدتها الحربية المتطورة كالمنجنيق والعربات.

ثانياً: الإعداد والتخطيط المسبق من قبل الإمبراطور رومانوس لخوض معركة فاصلة مع المسلمين، ووضع نصب عينيه النجاح والنصر المحقق.

ثالثاً: العناصر البشرية المتباينة التي يتكون منها الجيش البيزنطي، أفقدت الجيش الوحدة العسكرية، الأمر الذي أدى إلى عدم المقدرة على تلقي التعليمات والأوامر من القادة.

رابعاً: الإعداد والتخطيط المسبق للاستيلاء على بلاد الشام ومصر، وللقضاء على الدين الإسلامي والمسلمين.

والواقع أن خروج الإمبراطور رومانوس الرابع على رأس جيش كبير إلى الأراضي الإسلامية كان مفاجأة للسلطان آلب أرسلان، إذ لم يكن مستعداً لمواجهة مثل هذا الجيش وخوض معركة فاصلة معه، لأنه كان منشغلاً آنذاك أولاً: بحملته على بلاد الشام لإخضاعها لسلطان الدولة العباسية، وثانياً: بمخططه الرامي إلى دخوله مصر وإنهاء الخلافة الفاطمية، هذا فضلاً عن أن جيشه آنذاك قد أنهك جراء العمليات العسكرية التي خاضها في بلاد الشام، وكان يستعد للعودة إلى العراق، ومن المؤكد أن هذا يقلل من كفاءة الجيش، ولذلك لم يكن لديه الاستعدادات الكافية لخوض مثل هذه المعركة الفاصلة.

وعندما علم السلطان آلب أرسلان بتحرك الجيش البيزنطي لأراضي آسيا الصغرى وأرمينية قاصداً طرد الأتراك السلاجقة منها والاستيلاء عليها وإغلاق طرق أرمينية في وجه السلاجقة، وجد نفسه أمام أمرين كلاهما مُرّ، أولهما، إما أن يتابع مسيره إلى العراق ويترك الجيش البيزنطي يعيث في المنطقة فساداً، وهذا أمر غير مقبول لأنه يضيع كل ما أنجزه السلاجقة خلال السنوات السابقة باسم الدولة العباسية في المنطقة، أما ثانيهما، وهو الأمر الأصعب والخيار المفضل، أن يواجه الجيش البيزنطي بما يتوافر لديه من قوات إسلامية، والتي يصفها سبط ابن الجوزي بقوله: "عادوا جافلين من الشام وتلك الجفلة استهلكت أموالهم" وعلى الرغم من ذلك كانوا يتصفون بالفروسية والشجاعة وكان كل واحد منهم يركب فرساً وبجانبه آخر يرافقه.

والمفاجأة بخبر زحف الجيش البيزنطي ووصوله إلى الأراضي الإسلامية لم تسنح الفرصة للسلطان آلب أرسلان بحشد عساكره بالشكل الذي يجب، ولقرب جيش العدو من أراضي الدولة الإسلامية، وأنه إذا ما أراد حشد المزيد من عساكره الموجودة في بلاد الشام أو من الموجودين في الحاميات العسكرية القريبة منه، فإنه لا يستطيع ذلك بحكم أن الوقت لا يسير في صالحه، وبخاصة أن الجيش البيزنطي قد وصل آنذاك إلى ساحة المعركة بعد احتلاله مدينة ملازكرد، وهذا ما يؤكده الأصفهاني لقوله: إن السلطان آلب أرسلان "لو تمهل بحشد الجموع لذهب الوقت، وعظم بلاء البلاد".

اتخذ السلطان آلب أرسلان قراره بملاقاة الجيش البيزنطي بما يجتمع لديه من قوات، ونذر أرواحهم في سبيل نصرة الإسلام والتصدي للكفار، فأبعد زوجه وولده ملكشاه ووزيره نظام الملك إلى مدينة همذان، وأكد عليهم إمداده بالجنود على وجه السرعة، لأنه بقي في قلة من جنده تختلف المصادر الأولية في إعطاء عددٍ ثابتٍ لها، فأغلبها يجعله حوالي خمسة عشر ألف مقاتل، وأخرى تعطينا أرقاماً قريبة من هذا الرقم، فسبط ابن الجوزي يجعلهم عشرة آلاف من الأكراد وأربعة آلاف ممن كان معه، وبالتالي يصبح عددهم حوالي أربعة عشر ألف مقاتل ويشاركه في الرأي الدواداري، أما ابن الجوزي (597هـ/ 1200) وابن كثير فيجعلان العدد حوالي عشرين ألفاًويذهب اليزدي (581هـ/ 1185م) إلى أن عددهم يزيد عن اثني عشر ألف مقاتل.

وأما ابن القلانسي فيذكر رواية مغايرة لما سبق فإنه يجعل عد جيش المسلمين أربعمائة ألف مقاتل من الأتراك وجميع الطوائف، وهذا رقم مبالغ فيه ويعارض فيه جميع المصادر الأولية، هذا فضلاً عن أن سبط ابن الجوزي الذي ينقل عن ابن القلانسي- يذكر الرقم ولكن لا يأخذ فيه، وإنما يرجح الرقم الذي ذكره وهو أربعة عشر ألف مقاتل.

مما سبق تتضح لنا الصورة الآتية عن الجيش السلجوقي:

أولاً: لم يكن مستعداً لخوض معركة فاصلة مثل معركة ملازكرد لأنه كان عائداً من إحدى حملاته العسكرية، وقد استنفذت جميع قواه؛ وهذا ما أوحى به السلطان آلب أرسلان للإمبراطور البيزنطي ليوهمه بعدم مقدرته خوض المعركة، لبينما يستوفي جميع استعداداته العسكرية.

ثانياً: قلة عدد القوات المتبقية تحت قيادة السلطان آلب أرسلان وتجهيزاتها العسكرية، إذا ما استبعدت رواية ابن القلانسي والأخذ بباقي الروايات الأخرى، وبخاصة أنه أرسل زوجته ووزيره لتزويده بقوات أخرى.

ثالثاً: تصميم السلطان آلب أرسلان على خوض المعركة على الرغم من قلة عدد قواته، واستنفاذ قواها.

رابعاً: العزيمة عند السلطان آلب أرسلان وقواته التي لا بد أنها نابعة من إيمانه القاطع وإيمان قواته بنصرة الإسلام ورفع كلمة الحق.

الإجراءات والمراسلات التي اتخذها السلطان والإمبراطور قبيل بدء المعركة:

حاول السلطان آلب أرسلان بعد تحققه من ضخامة الجيش البيزنطي تجنب وقوع هذه الحرب، بعدم استعداده لها كما تبين، ولمشاهدته الفرق الشاسع بين قواته والقوات البيزنطية، ولذلك أرسل رسله لعقد هدنة مع الإمبراطور رومانوس لم تحدد المصادر فحواها، إلا أنه من الممكن الاستنتاج من خلال ما ذكرته بعض المصادر والمراجع الحديثة أنه تم عرض ما يلي:

أولاً: وضع الحرب وعودة كلا الطرفين إلى بلادهما.

ثانياً: يتعهد السلطان آلب أرسلان بالجلاء عن بعض المناطق التي سبق أن احتلها، لا سيما في الأراضي التي كانت خاضعة للإمبراطورية البيزنطية.

ثالثاً: ويضيف الأصفهاني أن الهدف من إرسال آلب أرسلان الرسل كان بمثابة مهمة استخبارية، حيث يذكر: "ومقصوده أن يكشف سرّهم ويتعرف أمرهم.

ويبدو أن الإمبراطور رومانوس عندما تلقى خبر رغبة آلب أرسلان بعقد هدنة، انفرجت أساريره وأيقن أن السلاجقة فقدوا كل أمل في النصر، وأن هذا العرض يعني شيئاً واحداً فقط وهو إحساس السلاجقة بالضعف والوهن، الأمر الذي عزز آمال الإمبراطور في القضاء على الجيش السلجوقي وإبادته، ولذلك أرسل للسلطان ألب أرسلان، قائلاً: "كلا ليس لكم عندي إلا السيف" و"لا صلح إلا بالري".

كما ويبدو أن السلطان آلب أرسلان طلب هذه الهدنة رغبة منه كخدعة لاستكشاف أحوال الجيش البيزنطي، والاتصال بالعناصر الغُزّية غير المسلمة المرافقة للجيش البيزنطي في الباطن، كما وأنه كان بحاجة للوقت لنصب العديد من الكمائن وتهيئتها لوقت الحاجة والمفاجأة.

والحقيقة أن جميع المصادر تؤكد أن ألب أرسلان عرض الهدنة ولكن ليس بالصورة التي تقلل من شأنه، وبخاصة أن الهدنة قد تحقق أهداف الإمبراطور.

وبما أن السلطان ألب أرسلان كان أكبر وأقوى قائد في المنطقة فإنه ليس من السهل أن يتنازل عن حقوق الدولة العباسية في المنطقة لأن أي تنازل قد يؤثر على شرعيته المستمدة من الجهاد وحماية الدولة، ويقلل من سمعته وهيبته عند أعدائه ومنافسيه، وربما كان هدفه من الهدنة اكتساب الوقت لإعادة تنظيم صفوف قواته، وتجميعها، وبخاصة أنه أرسل وزيره وزوجه وابنه إلى همذان لتزويده بالقوات.

إن رد الإمبراطور رومانوس ورفضه قبول الصلح إلا في الري عاصمة السلاجقة دليل قاطع على عجرفته وغروره، وهذا ما أكده المؤرخ السرياني ميخائيل السوري، كما أن إهماله في إرسال فرق استكشافية للخطوط الأمامية كان سبباً في دفع الثمن باهظاً بسبب نقص خدماتهم الاستخبارية.

وجائز أن الإمبراطور محقٌ في إصراره على استكمال حملته، وقد أنفق أموالاً طائلة عليها، فرجوعه يعني هزيمة نكراء تحل بالإمبراطورية البيزنطية وجيوشها، هذا فضلاً عن أنه ما حشد تلك الحشود العسكرية إلاّ للانتقام واسترداد أراضي بيزنطة، والقضاء على تلك القوة (السلجوقية) التي عاثت فساداً في بلاده حسب رأيِه، ولذلك أصر على "حرق الأتراك (السلاجقة) في النار إذا ما تغلب عليهم، ونجد سبط ابن الجوزي يعبر على لسان الإمبراطور قائلاً: "لا أرجع حتى أفعل ببلاد الإسلام مثل ما فعل ببلاد الروم، وقد أنفقت الأموال العظيمة فيكف أرجع".

يبدو أن السلطان ألب أرسلان انزعج من هذا الرد، وبدا عليه الغضب، فلاحظ إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري الحنفي ذلك الانزعاج، فشد من عزائمه ورغبه في خوض المعركة بقوله"إنك تقاتل عن دين الله وأنا أرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح"، واقترح عليه أن يكون يوم الجمعة موعداً لخوض المعركة قائلاً له: "فالقهم يوم الجمعة في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر يدعون للمجاهدين بالنصر على الكافرين، والدعاء مقرون بالإجابة".

كان هذا اللقاء بين السلطان والفقيه يوم الأربعاء، فاتخذ السلطان بمضمون نصيحة الفقيه نصاً وحرفاً، فأخر اللقاء إلى يوم الجمعة، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾، وأضاف قائلاً: "ربما يكون في الخطباء من إذا قال في آخر خطبته اللّهم انصر جيوش المسلمين وسراياهم، حقق الله ببركات دعائه مقاصد الغزاة ومبتغاهم".

وأرسل السلطان إلى الخليفة يطالبه أن يدعو له على منابر بغداد، ويتضرع إلى الله ليمنحه نصره، فأعد الخليفة دعاءً خاصاً، قُرئ على منابر بغداد، يوم الجمعة، وقت حدوث المعركة، وتضمن الدعاء الإشادة بمناقب السلطان وأعماله في سبيل الدين، كما تضمن أيضاً التضرع إلى الله لينصر السلطان لأن نَصره نصرٌ للدين.

وعندما أيقن السلطان بقرب موعد اللقاء أرسل إلى زوجه ووزيره نظام الملك، وقال: "إني صائر بهذا القدر الذي معي إلى العدوّ، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن استشهدت فرحمة من الله تعالى، فخليفتي ابني ملكشاه"، ويعد هذا بمثابة وصية أقر بها السلطان لوزيره نظام الملك ليعمل على تنفيذها، بتعيين ابنه ملكشاه سلطاناً من بعده.

وبعد أن انتهى من أمر السلطنة، توجه إلى جنده، والتقى بهم مخاطباً إياهم، قائلاً: "من أراد الانصراف فلينصرف فما ههنا السلطان يأمر وينهى غير الله"، وأضاف، قائلاً: "إنما أنا واحد منكم وقد فتحنا على المسلمين ما كانوا عنه في غناء" فأجابوه قائلين: "نحن عبيدك ومهما فعلت تبعناك".

وبينما كان السلطان منشغلاً في أمور ترتيب دولته، ومخاطبة الخليفة، وبعث الحمية في صفوف جنده، كان الإمبراطور رومانوس قد أحاط نفسه بهالة من الأبهة والعظمة، حيث كان قد ضرب فسطاطاً من الأطلس الأحمر وأخرى مثلها، وجلس على سرير من الذهب وفوقه صليب من الذهب مرصع بالجواهر وفي مجلسه كثير من الرهبان والقسيسين، معتمداً في ذلك على غروره بكثرة قواته ومعداته التي كانت تفوق قوة المسلمين، ولهذا كان واثقاً من النصر عليهم، وما يدل على ذلك رسائل أمين الدولة التي صورت غطرسة الإمبراطور، وإدلاله بعظم جيشه، واغتراره بكثرة جنده، حيث "أدلوا بالإسراع إلى القرع، واستدلوا على القوة بطول الباع ووفر الأتباع".

وقبل خوض المعركة بيوم واحد - يوم الخميس- أرسل برسالة ترغيب وترهيب إلى السلطان ألب أرسلان يذكر فيها: "إني أتيتك ومعي من العسكر ما لا قبل لك به، فإن أنت دخلت في طاعتي فأنا أدفع لك من البلاد ما يكفيك، وتأمن سطوتي وبأسي، وإن أنت لم تفعل ذلك فإن معي من العساكر ثلاثمائة ألف فارس وراجل ومعي أربع عشرة ألف عجلة عليها خزائن الأموال والسلاح، وليس يقف بين

يدي أحـد من عساكر المسلمين، ولا يغلق بوجهي مدينة من مدائنهم، ولا قلعة مـن قلاعهم".

وعندما علم السلطان بهذه الرسالة أخذته عزة الإسلام وتحركـت في صـدره نخوة الملك والسلطان، فقال للرسول الذي بلغه الرسالة: "قل لصاحبك إنّك أنـت مـا قصدتني ولكن الله ﷻ حملك إليّ وجعلك وعساكرك طعمة للمسلمين، فأنت أسيري، وعبـدي وعسـاكرك بعضـهم قـتلاي وبعضـهم أسراي، وخزائنـك كلهـا ملـكي، فأثبـت للمقارعة وتهيأ للمكافحة، فسوف ترى أنّ عسـاكرك هـي رقـاب تسـاق إلى ضـاربها وخزائنك هي أموال تحمل إلى ناهبها".

أحداث معركة ملازكرد:

يلاحظ مما سبق عبـارات التحـدي بـين السـلطان والإمبراطـور، وتشـير إلى أن الحـرب واقعـة لا محالـة، ففـي صـبيحة يـوم الجمعـة (7 ذي القعـدة 463هــ/5 آب 1071م) التقى الجيشان، وهو اليوم الذي حدده الإمام والفقيـه أبـو نصر محمـد بـن عبد الملك الحنفي للسلطان آلب أرسلان والذي تتفـق عليـه أغلـب المصـادر المتـوافرة لدينا، مع أنها تختلف بتحديد تاريخ هذا اليوم، فإذا أخـذ بالتـاريخ الـذي يـذكره ابـن الجوزي ومن يوافقه من المصادر وهو(27 ذي القعدة)، فإن هذا التاريخ يصادف يـوم الخميس، وهذا لا يتوافق مع اليوم الذي حدده الإمام والفقيـه أبـو نصر ليكـون يـوم المعركة، وهو يوم الجمعة، والـذي أجمعـت عليـه جميـع المصـادر ومـن بيـنهم ابـن الجوزي ومن أيـده في رأيـه، ولـذلك فـان التـاريخ الـذي يصـادف يـوم الجمعـة هـو (7 ذي القعدة)، وهذا ما ذهب إليه ابن العديم.

فتوكل السلطان على الله بعزيمة قوية ورؤية صارمة وتقدم - كما يصـفه المـؤرخ اللاتيني وليم الصوري - "لم يعترض سبيله أيّ كان دفاعاً عـن سـلامته وذاتـه... والحريـة قبل كل شيء"، ووقف أمام قواته سائلاً: "أنا صابر صبر المحتسبين وصائر في هـذه الغـزاة مصير المخاطرين، فإن نصرني الله فذاك ظني في الله تعالى، وإن تكـن الأخـرى فأنـا أعهـد عليكم أن تسلموا لولدي ملكشاه، وتطيعوه وتقيموه مقامي، فقالوا: سمعاً وطـاعة.

وكان السلطان ألب أرسلان قـد وضـع خطـة عسـكرية قسـم عـلى أساسـها الجيش إلى أربع فرق كل فرقة أقامها في منطقة وأكد عليها أن تلتـزم بـه ولا تبرحـه،

وعدَّ كل فرقة من الأربع بمثابة كمين في منطقته المحددة له، معتمداً على سرعة تحركهم، وبخاصة أن معظمهم من الفرسان الخفاف التجهيزات، وطلب من قادة إحدى الفرق التراجع مع فرقته في حال التحام الجيشين، موهمة الجيش البيزنطي بانسحابها من المعركة، الأمر الذي يدفع الحمية في الجيش البيزنطي فيندفع قسم منه وراءها للقضاء عليها، فتأخذه الفرق الأخرى الكامنة في موقع الرهوة من الخلف والأمام.

سار السلطان ألب أرسلان قاصداً الجيش البيزنطي، وأرسل في مقدمة جيشه أحد الحجاب مع مجموعة من الغلمان لاستطلاع الأخبار، فصادفوا عند مدينة خلاط مجموعة من الجيش البيزنطي يبلغ تعدادها حوالي عشرة آلاف مقاتل يرأسهم بازيلكوس الروسي فالتحمت المجموعتان، وكان النصر للمسلمين وتم أسر القائد الروسي وبعث به إلى السلطان ألب أرسلان فاستبشر خيراً وقال: "هذا أمارة النصر"، وأرسل بالقائد إلى همذان، وجدع أنفه ثم أمر أن يحمل إلى الخليفة العباسي في بغداد.

هذه الهزيمة التي منيت بها الفرقة البيزنطية رفعت من معنويات الجيش السلجوقي وألهبت مشاعر الإمبراطور رومانوس، فقام برد سريع حيث هاجم ولاية خلاط يوم الثلاثاء، ثم توجه إلى مدينة ملازكرد فارضاً الحصار عليها، وسرعان ما لبثت أن سقطت في يده، وأسر العديد من المسلمين وبخاصة الحامية المدنية فانزعج سكانها وتزعزعت أركانها.

ووقع يوم الأربعاء مناوشات بين طلائع الجيشين في المنطقة الواقعة بين ملازكرد وخلاط ولم يترتب عنها نتائج حاسمة، غير أن طلائع الجيش الإسلامي نجحت في وقف الهجوم البيزنطي، وإعادته إلى معسكره، وتخليص جزء كبير من حامية ملازكرد، الأمر الذي رفع من معنويات الجيش الإسلامي وزاد معدات قواته.

وأما بالنسبة للسلطان آلب أرسلان فقد أرسل للإمبراطور رومانوس يوم الخميس يعرض عليه الصلح الذي تدخل فيه الخليفة من قبل ويتضمن رجوع كلا الطرفين إلى بلادهم، غير أن رد الإمبراطور المتغطرس والمغرور الرفض وأصر على تدمير أراضي المسلمين.

هذه الأحـداث تشـير إلى أن السـلطان كـان حتـى آخـر لحظـة قبـل وقـوع الاصطدام الفاصل بين الجيشين يرغب في عدم خوضه هذه المعركة، ويعبر عن رغبته في اللجوء إلى الصلح ويفضله حتى يتجنب دخول معركة نسبة النجاح بها ضـئيلة إذا ما قورن بين عدد القوات الإسلامية وعدتها بعدد القوات البيزنطية وعدتها.

والواضح أن حالة الجيش البيزنطي آلت إلى الضعف والانهيار وقلـة في عـدده قبيل بدء المعركة الفاصلة، إذ يبدو أن الإمبراطور قد ترك بعـض مقاتليـه كحاميـات في المناطق التي سيطر عليها وعددها مائة ألف، مثل ملازكرد، وحيّـد أصـحاب المنجنيـق عن التدخل في المعركة الفاصلة، هذا فضلاً عن أن جزءً من الجيش البيزنطي قد شُـتت شمله في هزيمة خلاّط، وجزءً آخر أرسل لمحاصرة خلاط بعد فشل المحاولة الأولى.

ويوعز المؤرخ السر-ياني ميخائيـل سـبب انهيـار الجـيش البيزنطـي إلى تمـرد القوات الأرمنية المشاركة بسبب سوء معاملـة الـروم لهـم في القضـايا الدينيـة ،هـذا بالإضافة إلى خلاف زعماء الروم مع إمبراطورهم وهروبهم من ساحة المعركة(iv).

ومع كل ما تؤكده المصادر الأولية من أسباب انهيار الجيش البيزنطـي إلا أن المؤرخ اللاتيني وليم الصوري يوعز انهيار الجيش البيزنطي إلى أسباب دينية، بقولـه: "إن قواته- يقصد الإمبراطور - كانت تفتقر إلى التأييد الرباني".

هذا والحال أصـبح الجـيش البيزنطـي قليـل العـدد ثقيـل العـدة، فضـلاً عـن الهزائم التي مني بها مما أضعف عزيمة أفراده، أما بالنسبة إلى الجيش الإسـلامي فقـد كان قليل العدد من الأصل، يضاف إليه الحاميات المحلية التي امتـازت بكفـاءةٍ عاليـة التدريب، يمثلون الجند النخبة، ولذلك كان الجيش خفيـف الحركـة مـما جعلهـم قـوة ضاربة في المعركة الفاصلة، هذا فضلاً عن معنويـاتهم العاليـة جـرّاء الانتصـارات التـي حققوها في الأيام الخوالي.

وقبل التحام الجيشين بلحظات، قام السلطان آلـب أرسـلان، ورمـى القـوس والنشاب وأخذ بيده السيف والدبوس، وعقد ذنب فرسـه بيـده، ولعـل عملـه هـذا لبعث الحمية والعزة في نفوس قواته وتعبيراً ضمنياً لإشعار قواته بأن القتال في مثـل هذه المعارك لا ينفع إلاّ بالمواجهة ويعتمد فيها الجند على شجاعته وإيمانـه وقدرتـه على الإقدام وخوض عباب المعركة ولذلك نجده يحمل السيف بيـده ويـترك السـلاح

الذي يستخدم عن بعد، ولهذا تذكر المصادر أن قواته نهجت النهج نفسه الذي سلكه.

وتضيف بعض المصادر الأولية أنه "لبس البياض، وتحنط وقال: إن قتلت هذا كفني"، ونزل عن فرسه وسجد لله ﷻ ومرغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره[٧]، ثم ركب فرسه بعد الظهر مباشرة وحمل على الجيش البيزنطي وحملت معه العساكر مستغلاً وقت صلاة الجمعة والخطباء على منابر الإسلام يدعون الله بنصرة الإسلام.

لم يكن يتوقع البيزنطيون هذا الهجوم فيما يبدو، إذ استطاعت الفرق الأربعة الإسلامية استدراج الجيش البيزنطي إلى العمق لمطاردتها متجاوزة لمكان الكمين (الرهوة)، ثم ما لبثت الفرق أن استدارت واشتبكت مع البيزنطيين من الأمام في الوقت الذي خرجت فيه قوات الكمين من الخلف لتبث الذعر الشديد في صفوف القوات البيزنطية، مما مزّق وحدة صفوفهم، وتوغل المسلمون وسط صفوفهم، فحجز الغبار بينهم، وقتل المسلمون منهم كيفما شاءوا، وأنزل الله نصره على المسلمين، وانهزم الجيش البيزنطي، وقتل منهم مالا يحصى وحتى "امتلأت الأرض بجثث القتلى".

وتذكر المصادر أن السلطان آلب أرسلان وعساكره طاردوا فلول الجيش البيزنطي بقية نهار يوم الجمعة وليلة السبت يقتلون ويأسرون، فلم ينج منهم إلاّ القليل، وغنموا جميع ما كان معهم، "وانجلت عند اصفرار الشمس غبرة المعركة وأحاطت بملك الروم يد الأسر والهلكة".

ويصور لنا الأصفهاني حالة الجيش البيزنطي بقوله"ووقعت نار البيض في حلفاء هامها، فأذنت بانهزامها، وانكسرت كسرة لا تقبل جبراً، فطائفة لم تثبت للقتال ولم تصبر، وطائفة ثبتت وقُتلت صبراً، فما نجت من أولئك الألوف آحاد، وما سلمت من أعداء الإسلام أعداد".

وأثبتت رسائل أمين الدولة حقيقة انهيار الجيش البيزنطي أمام قوات السلطان آلب أرسلان "فلم تكن إلا حملة هبت للإسلام ريح الظفر، ونشبت به نيران الاصطدام متطايرة الشرر، وظهر من التأييد السمائي ما علا فيه الإيمان على الكفر"، ويؤكد هذا القول وصف ابن الجوزي للمعركة حيث قال: "واقتتلوا ساعة أجلت فيها

عن هزيمة الكفار، فقتلوا يومهم وليلتهم القتال الذريع ونهبوا وسبوا النهب والسبي العظيم".

وقد ظهرت خطورة المعركة من خشية أمير المؤمنين على الإسلام، إذْ كان فكره مشتتاً، ينتظر المصير الذي ستأوول إليه المعركة، إلى أن جاءه البشير يخبره بالنصر المبين، مما أزال عن فكره الشك، وجلاء المضمون.

نتائج معركة ملازكرد:

أبرز النتائج التي ترتبت على انتصار المسلمين في هذه المعركة، ما تصوره لنا رسائل أمين الدولة عن المصير الذي آل إليه الجيش البيزنطي بصورة بلاغية رائعة، قائلا: "فتحكمت الصوارم في الجماجم، وأزالتها عن الأماكن، وأعادتهم من حكم المتحرك إلى الساكن، فحينئذ عجل الله إلى النار تلك الأرواح، وراح التوحيد وقد خلص عن غوائل الشرك وأراح، وألقيت تلك الأشلاء جزراً للطير والسباع... وحصل في الأسر العدد الجمّ من أعيان الضلة مثقلين بالأغلال، ومنقلين بين صنوف الإهانة والإذلال... ودخل في الإسلام من رام السلامة فنالها، ومال إليها حيث عرف مآلها، وهرب على وجهه من ستخطفه الأيدي من جميع المسالك، ويحمله الرعب على إلقاء نفسه في المهالك".

ويستنبط من هذا النص، المصير السيء الذي آل إليه الجيش البيزنطي الضخم والخسائر المادية التي منيت بها الإمبراطورية البيزنطية، ومدى انعكاس هذا الوضع على أمن الإمبراطورية البيزنطية واستقرارها بفقدانها الأعداد الضخمة من جيشها.

وأما المصير الذي آل إليه الإمبراطور رومانوس يُعد من أبرز نتائج هذه المعركة، وتقدم لنا المصادر الأولية صورة دقيقة عن هذا المصير، فتشير إلى أن الإمبراطور وقع أسيراً في يد أحد غلمان السلطان، فشد الغلام يديه وجره إلى مقر السلطان[vi].

أدخل الأسير لمقر السلطان مقيدا بالسلاسل، فضربه السلطان ثلاث مقارع ووبخه وعاتبه في أمور ارتكب حماقة لعدم تنفيذها، كان أولها، رفض إمضاء الهدنة

التي توسط بها الخليفة القائم بأمر الله للرجوع عن غـزو الـبلاد الإسـلامية، وثانيهـا، مطالبة السلطان ببعض الخارجين عليه الـذين لجـؤوا إلى الإمبراطـور، ورفـض الأخـير تسليمهم للسلطان، وثالثها، الغدر والخيانة التي ارتكبها الإمبراطور بعد عقد الهدن، وحلف الأيمان، وآخرها عدم سماع الإمبراطور للسلطان قبل بدء المعركة عنـدما طلب منه العدول عما يجول في ذهنه من غزو بلاد الإسلام.

وتتابع المصادر الأولية حوار روائي بين السلطان وأسيره الإمبراطـور في المصير الذي سيؤول إليه الإمبراطور، وينتهي هذا الحوار بصورة العفو والتسامح التـي تمتـع بها السلطان والتي استمدها من الدين الإسلامي السمح، وقد تمثلـت بعقـد اتفاقيـة بين الطرفين ضمن الشروط الآتية:

أولاً: العفو عن الإمبراطور رومانوس وإطلاق سراحه من الأسر.

ثانيـاً: يفـدي الإمبراطور رومانوس نفسه بمبلغٍ من المـال، اختلفـت المصـادر الأولية في تحـديد قيمته.

ثالثـاً: دفع الإمبراطور رومانوس الجزية المقررة عـلى بـلاده سـنوياً وقـدرها ثلاثمائة وسـتون ألف دينار.

رابعـاً: يتكـــفل الإمبراطـور بإرسـال عسـاكر الإمــبراطورية البيزنطيـة متـى اقتضت حاجة السلطان إليها.

خامسـاً: إطـلاق سراح جميـع أسرى المسـلمين الـذين في حـوزة الإمبراطوريـة البيزنطية.

سادساً: إقرار الإمبراطور بنيـابته عن السلطان في بيزنطة، وأنه بمثابـة خـادم لـه.

سابعاً: إعادة إنطاكية والرها ومنـبج وملازكـرد التـي أخـذت مـن المسـلمين قريباً، وأن لا يتعرض الإمبراطور لبلاد المسلمين بعد هذه الساعة.

ثامنـاً: ويشترط أن تكون أمد الهدنة خمسين عاماً.

وبعد الانتهاء من إقرار الإمبراطور رومانوس بشروط المعاهدة المذكورة، أمر السلطان بإكرامه والرفع من مكانته، وجهزه بمستلزمات عودته كإمبراطور لبلاده، وأرسل برفقته حاجبين ومائة غلام مهمتهما حراسته وتأمين وصوله إلى عاصمته القسطنطينية، كما شيعه السلطان قرابة الفرسخ، ثم عانقه مستودعاً إياه لتنتهي بذلك صفحة حياة أول إمبراطور بيزنطي أسير في أيدي المسلمين، اعتمد في إطلاق سراحه على التسامح والصفح والعفو عند المقدرة التي أقرها الدين الإسلامي.

وكان لانتصار السلطان ألب أرسلان في معركة ملازكرد أثر واضح في نفوس المسلمين فقرأت كتب البشائر بالنصر على الملأ، وزينت المدن وبخاصة بغداد بزينة لم ير مثلها من قبل، وبعثت نشوة النصر في نفوس المسلمين، وتغنى الشعراء في النصر وبالسلطان وأسرفوا في مدحه.

وقد انعكس صدى أهمية معركة ملازكرد في التاريخ الإسلامي فهي "التي ضم الله تعالى شمل الإسلام بما منَّ به فيها وجاد، وظل ذكر جلالها متداولاً بين كل من قصد الإتمام والأنجاد"، وقد وصف ابن الجوزي هذا النصر بقوله: "وهذا الفتح في الإسلام كان عجباً لا نظير له".

وقد عظمت مكانة السلطان ألب أرسلان بعد انتصاره في هذه المعركة عند الخليفة العباسي القائم بأمر الله، إذْ بعث إليه كتاباً يهنئه بالفتح والظفر، ويخاطبه بالولد السيد الأجل المؤيد المنصور المظفر السلطان الأعظم ملك العرب والعجم، واستغل السلطان هذا النصر، فطلب من الخليفة تعيين ولده ملكشاه، ولياً للعهد من بعده.

وكانت الخسارة التي منيت بها الإمبراطورية البيزنطية عسكرياً ومادياً تفوق التصور، وقد انعكست على المسلمين بكسب الغنائم، ووقع عدد لا يحصى من الجند قتلى في أرض المعركة حتى امتلأت الأرض بجثثهم، "وامتلأت الأيدي من سوادهم وأموالهم وآلاتهم وكراعهم".

أما أثر معركة ملازكرد على صعيد نظام الحكم في الإمبراطورية البيزنطية، فقد اغتصب عرش الإمبراطورية من قبل ميخائيل السابع (1071- 1072م)، وأعلن نفسه إمبراطورا؛ مدعيا أن الإمبراطور الأسير قد فرط بحقوق بلاده، وتعرض إلى إهانات

جسدية فلم يعد جديراً بتولي السلطة والتمتع بمقام الإمبراطور الرفيع، وذلك لصبغ عمله بالصفة الشرعية، الأمر الذي أدى إلى نشوب حرب أهلية حول منصب عرش الإمبراطور.

ومهما يكن الأمر فإن عدم تمكن الإمبراطور رومانوس من الرجوع إلى الحكم، سينعكس بالطبع على شروط المعاهدة المبرمة مع السلطان آلب أرسلان، لأن الإمبراطور الجديد لم يرتبط بها بأية مواثيق، والحقيقة إن المصادر المتوافرة لا تسعف بأية إشارات تبين مصير شروط المعاهدة، باستثناء ما قام به رومانوس عند وصوله إلى القسطنطينية بجمع ما لديه من أموال، وتقدر ما بين مائة ألف إلى مائتي ألف دينار، وأرسلها للسلطان آلب أرسلان.

وهناك رواية ضعيفة عند الدوادار يشير إلى أن الإمبراطور "وصل إلى بلاده سالما وأوفى بجميع ما أوعد به، وزاد في هداياه أضعاف ما كان في الظن، واستقر حال المسلمين معه طوال أيام حياته"، ولكن هذه الرواية تتناقض مع جميع المصادر الأخرى التي تشير إلى أن الإمبراطور اغتصب عرشه، ولم يعد إليه ألبتة، فكيف له أن ينفذ شروط المعاهدة؟ لعل الدواداري اعتمد على الإشارات التي تشير إلى أن الإمبراطور المخلوع عندما عاد إلى القسطنطينية جمع مالديه من أموال وارسلها للسلطان آلب ارسلان، ولذلك أشار إلى أن الإمبراطور المخلوع أوفى بجميع ما وعد به.

ويشير ابن الأثير إلى أن الإمبراطور رومانوس عندما علم بما حدث في عرشه أرسل للإمبراطور الجديد ميخائيل يعلمه بما استقر الأمر مع السلطان، وحثه قائلاً: "إن شئت أن تفعل ما استقرّ، وإن شئت أمسكت"، فأجابه ميخائيل بإيثار ما تم الاتفاق عليه، وسأله التوسط عند السلطان، لإقرار ما جاء في بنود المعاهدة.

والحقيقة أن رواية ابن الأثير تؤكد إقرار بعض بنود المعاهدة الخاصة فقط بالإمبراطور المخلوع، بدليل أن الإمبراطور الجديد طلب توسطه مع السلطان دون أن يحدد ابن الأثير نوع الوساطة، والأغلب أنه طلب إعادة صياغة بنود المعاهدة ليحقق مصلحة الإمبراطور الجديد والإمبراطورية، وهذا ما أكده الإمبراطور المخلوع للإمبراطور الجديد، قائلاً: "إن تُقّرر الصلح مع السلطان، وإلا فلن ترتاح ولن يرتاح المسيحيون.

ومهما يكن الأمر فقد اعتبرت معركة ملازكرد بمثابة كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية، ولم يعد البيزنطيون ينعتونها عند حديثهم عنها، إلاّ بـ"اليوم الرهيب"، فقد تقلصت أملاكها في أرمينية وآسيا الصغرى، ولم يعد لها إلا بعض المدن المعزولة على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، ولم تعد الإمبراطورية قادرة على إعادة

أملاكها أو بسط نفوذها على ما فقدته، وبخاصة بعد أن وجه السلطان آلب أرسلان ابن عمه سليمان بن قتلمش للاستيلاء على سهول وسط آسيا الصغرى التي كانت تشكل المصدر الرعوي للأغنام البيزنطية، مما أدى إلى انسياح الأتراك السلاجقة بحرية في آسيا الصغرى وبلاد الشام والجزيرة الفراتية، وفتحت الطريق أمام سلاجقة الروم بالتوجه نحو الغرب والتوغل في أراضي الإمبراطورية البيزنطية وطرق أبواب عاصمتها.

كما كان لسلاجقة الروم أثر واضح في نشر الإسلام في المناطق السابقة، والتغيير في أنظمتها الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والسياسية، وهذا ما يؤكد أن شروط المعاهدة خلعت بمجرد خلع الإمبراطور المخلوع، ولم يتم التعامل في بنودها إطلاقا، وبخاصة أن الفوضى والحروب الأهلية انتشرت داخل الإمبراطورية البيزنطية، وتدهورت أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والإدارية، إذ تمرد كثير من رعاياها الأرمن وعملوا على إنشاء إمارات مستقلة لهم في المنطقة.

وأصبح السلاجقة يشكلون دولة مهيبة الجانب على الأقل بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية التي أصبحت منهكة القوى بعد معركة ملازكرد، كما أتاحت فرصة للسلاجقة بقيادة آلب أرسلان التوجه بفتوحاتهم للشرق، لكبح جماح شاه خورزم الذي تزايدت قواه آنذاك، وإن كان هذا التحول نهاية حياة السلطان آلب أرسلان.

وقد عدت معركة ملازكرد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي بصفة عامة، وتاريخ غرب آسيا بصفة خاصة، إذْ استطاع سلاجقة الروم إزالة الروم وعزلهم كعدو صارعهم منذ خروج العرب من الجزيرة العربية، ولكن فتح المجال أمام القوى الأوروبية المسيحية القادمة من الغرب بناءً على دعوة من القسطنطينية التي استنجدت بالكنيسة الغربية ممثلة في البابا الذي ألهب مشاعر الغرب لمساعدة الكنيسة الشرقية، ورد اعتبار الإمبراطورية البيزنطية، الأمر الذي أدى إلى دخول منطقة آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر في صراع سياسي عرف بـ "الحروب الصليبية" استمر قرابة قرنين من الزمن، عاشت المنطقة في ظل هذه الحروب حالة من الفوضى والاضطراب في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية إضافة إلى التمزق في الوحدة السياسية للنظام السياسي الذي ساد المنطقة.

[2014]

الفصل الحادي عشر

هارون الرشيد

[11]

دار البداية ناشرون وموزعون

هارون الرشيد

هارون الرشيد بن محمد المهدي هو الخليفة العباسي الخامس، يعتبر من أشهر الخلفاء العباسيين،حكم بين عامي 786 و809 م، ولد (حوالي سنة 763م في مدينة الري وتوفي سنة 809م في مدينة طوس (مشهد اليوم)،وهو أكثر الخلفاء العباسيين ذكرا في المصادر الأجنبية كالحوليات الألمانية على عهد الامبراطور شارلمان التي ذكرته باسم Aron، والحوليات الهندية والصينية التي ذكرته باسم Alun، أما المصادر العربية فقد أفاضت الكلام عنه حيث صور بالخليفة الورع المتدين الذي تسيل عبراته عند سماع الموعظة والمجاهد الذي أمضى معظم حياته بين حج وغزو، فكان يحج عاما ويغزو عاما، وانه أول خليفة عباسي قاد الغزو بنفسه، وقد نقل ابن خلكان أن الرشيد قد حجّ تسع مرّات وكان يصلي في اليوم مائة ركعة[2]، كذلك كان يصور بصورة الخليفة الحذر الذي يبث عيونه وجواسيسه بين الناس ليعرف أمورهم وأحوالهم، بل كان أحيانا يطوف بنفسه متنكرا في الأسواق والمجالس ليعرف ما يقال فيها، ويعتبر عصره العصر الإسلامي الذهبي.

حياته قبل الخلافة

هارون الرشيد هو ابن الخليفة محمد المهدي من زوجتهاالخيزران بنت عطاء التي كان لها نفوذ كبير في الدولة، ولد هارون في مدينة الري سنة 763م كان والده واليا على المدينة، نشأ في صباه مع أخيه موسى الهادي في بغدادوعاش في قصر الخلافة في رعاية جده عاما قبل أن تنتقل أسرته إلى قصرها الجديد قرب الرصافة في الجانب الشرقي من مدينة بغداد [، أشرفت على تربيته اسرة البرامكة الفارسية التي كان لها روابط وثيقة بأسرة الخلافة وعائلة المهدي، وتلقى تعليمه على يد العالم علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي الكوفي عالم النحو المعروف بالكسائي الذي ظل معه حتى وفاته ثم صار أيضا معلما للأمين ابن الرشيد كما تولى تربيته وتعليمه أيضا المعلم المفضل الضبي الذي صنف للمهدي كتاب "المفضليات" وفي عام 158 هـ توفي أبو جعفر المنصور وأصبح المهدي في منصب الخلافة ودفع بابنه هارون للتدرب على الفروسية والرمي وفنون القتال، وعندما أصبح هارون شابا يافعا عينه والده قائدا في الجيش الذي يضم العديد من القواد الكبار وأمراء الدولة وكان عمر هارون

وقتها لا يتجاوز الخمس عشر عاما، وخرج الجـيش عـام 163 هــ إلى أراضي الـروم وتوغل فيها وأظهر هارون براعـة في قيادتـه وحـاصر قلعـة روميـة اسـمها "سـمالوا" ثمانية وثلاثين يوما حتـى انتهـا الأمـر بفتحهـا، وعـاد الرشـيد بـالجيش سـالما محمـلا بالغنـائم فاسـتقبله أهـل بغـداد وكافـأه المهـدي بتوليتـه بـلاد المغـرب وأذربيجـان وأرمينية[6]، لكنه اشـتهر بشـهرة كبـيرة بـين الأوسـاط الشـعبية وذلـك بعـد الحملـة العسـكرية التـي قادهـا ضـد الامبرطـورة البيزنطيـة ايـرين ووصـل فيهـا إلى أبـواب القسطنطينية، وفي خلال هذا الوقت تزوج هارون ابنة عمه زبيدة بنت جعفر والتي أنجب منها هارون ولده محمد الأمين، أما ابنه الثاني عبد الله المأمون فقـد ولـد مـن جارية فارسية اسمها مراجل[5]، وعاد هارون من تلـك الغـزوة إلى بغـداد وقـد فـرح المهدي بانتصار ابنه وأطلق عليه لقب الرشيد وأخذ له البيعة كولي للعهد بعد أخيـه الأكبر موسى الهادي فأصبح هارون الرشيد ولي العهد الثاني.

توليه الخلافة

بويع الرشيد بالخلافـة في (14 ربيـع الأول170هــ/14 سـبتمبر 786م)، بعد وفاة أخيهموسى الهادي، وكانت الدولة العباسية حين آلت خلافتها إليه متراميـة الأطراف متباعدة تمتد من وسط آسيا حتى المحيط الأطلسي، معرضـة لظهـور الفـتن والثورات، تحتاج إلى قيادة حكيمة وحاسمة يفرض سلطانها الأمن والسـلام، وتـنهض سياستها بالبلاد، وكان الرشيد أهلاً لهذه المهمة الصعبة في وقـت كانـت فيـه وسـائل الاتصال صعبة، ومتابعة الأمور شاقة.

تولية الحكم بتولي الرشيد الحكم بدأ عصر زاهر كان واسطة العقد في تاريخ الدولة العباسية التي دامت أكثر مـن خمسـة قـرون، إرتقـت فيـه العلـوم، وسـمت الفنون والآداب، وعمَّ الرخاء ربوع الدولـة الإسـلامية، ولقـد أمسـك هـارون الرشـيد بزمام هذه الدولة وهو في نحو الثانية والعشرين من عمرِه، فأخذ بيدها إلى ما أبهـر الناس من مجدها وقوتها وأزدهار حضارتها.

- أصدر الرشيد عند توليه الخلافة عفوا عاما أمن كل من كان هاربا أو مسـتخفيا عدا بعض الزنادقة[8].
- كما استعمل الرقة عاصمة لهُ بين عامي 799و800.

- وأنشأ بمـايعرف ببيـت الحكمـة في بغـداد وزودهـا بأعـداد كبـيرة مـن الكتـب والمؤلفات من مختلف بقاع الأرض، وكانت تضم غرفًا عديدة تمتد بينهـا أروقـة طويلة، وخُصصت بعضها للكتب، وبعضها للمحاضرات، وبعضها الآخر للناسخين والمترجمين والمجلدين، كما تمت في عهده أول ترجمة إلى العربيـة لأشـهر كتـاب علمـي عـرف في التـاريخ وهـو "كتـاب الأصـول (الأركـان) في الهندسـة والعـدد لإقليدس [9]، وتطورت العلوم خصوصًا الفيزياء الفلكية والتقنية، وابتكرت عـدد من الاختراعات كالساعة المائية[2]، كما أنشيء في عهده أول مصنع للورق ببغداد سنة 795م وصار سوق الوراقين لاحقا الذي يضم مئـات الحوانيـت التـي تبيـع السلع الورقية الفاخرة مفخرة عاصمة العباسيين وكان ورق بغداد يقدر تقـديرا عاليا في المنطقة حتى ان بعض المصادر البيزنطية تسمى الورق بصـحف بغـداد (Bagdatixon) في ربط مباشر بينه وبين مدينة بغداد.
- اهتم هارون الرشـيد بالإصـلاحات الداخليـة فبنـى المسـاجد الكبـيرة والقصـور الفخمة وفي عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقـات والمسـاجد، اعتنى الرشيد أيضاً بالزراعة ومأسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقنـاطر الكبـيرة وحفـرت الـترع والجـداول الموصـلة بـين الأنهـار، وأسـس ديوانـاً خاصـاً للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال الإصلاحية، ومن أعماله أيضـاً تشـجيع التبـادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن، وقد شيّد مدينة الواقفـة قرب مدينة الرقة على ضفاف الفرات لتكون مقراً صيفياً لحكمه.

وغدت بغداد قبلة طلاب العلم من جميع البلاد، يرحلون إليها حيـث كبـار الفقهاء والمحدثين والقراء واللغـويين، وكانـت المسـاجد الجامعـة تحتضـن دروسـهم وحلقاتهم العلمية التي كان كثير منها أشبه بالمدارس العليا، من حيث غـزارة العلـم، ودقة التخصص، وحرية الرأى والمناقشة، وثراء الجدل والحوار، كـما جـذبت المدينـة الأطباء والمهندسين وسائر الصناع، وكان الرشـيد نفسـه يميـل إلى أهـل الأدب والفقـه والعلم، حتى ذاع صـيت الرشـيد وطبـق الآفـاق ذكـره، وأرسـلت بلادالهنـد والصـين وأوروبا رسلها إلى بلاطهِ تخطب وده، وتطلب صداقته.

تصديه للفتن والثورات الداخلية

1. إخماد ثورات الخوارج

ظهرت طائفة الخوارج أثناء القتال الذي جرى بين الإمام علي بن أبي طالب ومنازعه على الخلافةمعاوية بن أبي سفيان، واستمر خروج هذه الطائفة على خلفاء بني أمية وبني العباس، لكنهم لم يكونوا بالخطورة التي كانوا عليها في العصور السابقة أثناء عصر الرشيد لذلك سهل على الرشيد القضاء على ثوراتهم، كانت أول ثورة قام بها الخوارج قادها الفضل بن سعيد الحروري لكنه قتل بعد فترة وجيزة من خروجه، ثم الصحصح الخارجي بالجزيرة فتصدى له والي الجزيرة لكنه انهزم أمامه وسار الصحصح إلى الموصل فقاومه عسكر المدينة بباجرمي لكنهم لم يتمكنوا منه وعاد إلى الجزيرة، فأرسل له الرشيد جيشا لحقه بدورين فقتله وقضى على ثورته، وفي سنة 178هـ خرج الوليد بن طريف التغلبي بالجزيرة فدخل إلى أرمينية وحاصر مدينة خلاط عشرين يوما فافتدوا منه أنفسهم بثلاثين ألفا، ثم سار إلى أذربيجان ثم إلى أرض حلوان وأرض السواد ثم عبر إلى غرب دجلة وقصد مدينة بلد وافتدى أهلها منه بمائة ألف، وبقي في أرض الجزيرة فأرسل اليه الرشيد قائده يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني الذي واجه الوليد وانتصر عليه وقضى على ثورته وانتهت الأزمة بمقتل الوليد، وفي عام 179 هـ خرج حمزة بن أترك السجستاني وعظم أمره عام 185 هـ عندما عاث فسادا في بادغيس بخراسان فتصدى له عيسى بن علي بن عيسى وقتل الكثير من أعوانه وهرب حمزة إلى كابل، وفي سنة 191 هـ خرج ثروان بن سيف في سواد العراق فتصدى له طوق بن مالك أدى إلى فرار ثروان ولم يعد له من أثر يذكر.

2. انهاء الفتن الداخلية

ظهرت حركات استقلالية في دولة الخلافة ترغب في الاستقلال وتصدى لها الرشيد وقضى عليها، في سنة 178 هـ قامت طائفة من قيس وقضاعة على والي مصر فقاتلوه فبعث لهم الرشيد هرثمة بن أعين فقاتلهم حتى أذعنوا له الطاعة وأدوا ما عليهم من الخراج، كذلك أخمد هرثمة فتنة قامت في أفريقيا بقيادة عبدويه الأنباري، وكان الفضل فيها يعود ليحيى بن خالد البرمكي الذي كاتب عبدوية ووعده

الأمان ان استجاب له فاستسلم عبدويه ووفى له يحيى بالأمان، و ظهرت بعض الفتن في عام 176 هـ في الشام بين القبائل المنصرية واليمانية ودامت المعارك بينهما دهرا طويلا فأرسل الرشيد جيشا أنهى تلك الفتنة عام 177 هـ وفي عام 185 هـ خرج أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي واحتلأبيورد وطوس ونيسابور ثم هزم في مرو وخرج إليه علي بن عيسى بن ماهان وواجهه وقضى عليه عام 186 هـ.

الرشيد والبرامكة

لما ولي هارون الرشيد الخلافة عرف ليحيى فضله عليه فاستوزره وزارة تفويض وهي الوزارة التي تستغني عن تواقيع الخليفة على عكس وزارة التنفيذ التي يباشرها الخليفة بنفسه، قام يحيى البرمكي بإدارة شؤون الدولة خير قيام وكان يساعده في ذلك ولداه الأفضل وجعفر، أما الأفضل فقد كان إداريا ماهرا وكانت مهارته في اخماد ثورة يحيى بن عبد الله العلوي دون أن يسفك دما كذلك كان كريما سخيا، وقد ولاه الرشيد بلاد المشرق (خراسان وطبرستان وأرمينيا وبلاد ما وراء النهر) قام الأفضل هناك بأعمال انشائية عظيمة الشأن من حفر القنوات وبناء المساجد والزوايا فحسنت سيرته في تلك البلاد، أما جعفر البرمكي وهو أصغر سنا من الأفضل فقد ولاه الرشيد على الجزيرة والشام ومصر وأفريقية، وكان محبوبا لدى الرشيد فاستبقاه في بغداد كي يكون قريبا منه وهذه الثقة الكبيرة التي أولاها الرشيد لجعفر البرمكي جعلت له نفوذا في الدولة.

أعطى الرشيد البرامكة سلطات واسعة وافسح لهم المجال في الاشراف على جميع مرافق الحياة العامة: في الإدارة والعلوم والفنون.

3. نكبة البرامكة

وعلى الرغم من اهتمام المؤرخين بهذه الحادثة إلا أن أسبابها ودوافعها ظلت غامضة ومجهولة وأشار المؤرخون أمثال الطبري واليعقوبي وأبو الفدا والمسعودي أن سبب غضب الرشيد على البرامكة وسخطه عليهم أمر مختلف فيه، وقد ذكر المؤرخون العديد من الأسباب واختلفوا في تعليلها وأخذوا يرجحون بعضها على بعض.

والأقرب إلى الواقع أن نكبة البرامكـة ترجـع إلى حـد كبـير إلى ذلـك الصراع الخفي الذي كان قائما بين حزبي العرب والعجم والذي ظل مستمرا بعـد ذلـك أيـام الأمينوالمأمون، في عهد الرشيد يظهر الصراع بين العرب والعجم بوضـوح حيـنما عهـد إلى ابنه الأمين بولاية العهد من بعده سنة 175هـ وذلك تحت تأثير الحـزب العـربي الممثل في زوجته زبيـدة بنـت جعفـر وحاجبـه الفضـل بـن الربيـع، وكـان الأمـين في الخامسة من عمره مما يدل على أنها كانت لها دلالـة خاصـة وهـي ضـمان الخلافـة للعصبية العربية ولم يرض الجانب الفارسي وعلى رأسه البرامكة بهذا الوضـع فأخـذوا يسعون لدى الرشيد حتى نجحوا في جعله يعهد إلى ولده المأمون بولاية العهـد بعـد الأمين سنة 182هـ على أن يتولى المـأمون ولايـة المشرـق بعـد وفـاة أبيـه بمعنـى أن خلافة الأمين بعد وفاة والده تصبح على بـلاد المشرـق خلافـة صـورية والمعـروف أن المأمون كان من أم فارسية ولهذا أيده البرامكة وفي سنة 186هـ حـج الرشـيد ومعـه ابناؤه الأمين والمأمون وهنـاك في البيـت الحـرام (أي الكعبـة) أخـذ علـيهما المواثيـق المؤكدة بأن يخلص كل منهما لأخيه وأن يترك الأمين للمأمون كـل مـا عهـد اليـه مـن بلاد المشرق، ثغورها وكورها وجندها وخراجها وبيوت أموالهـا وصـدقاتها وعشـورها وبريدها، وسجل الرشيد هذه المواثيق على شكل مراسيم وعلقها في الكعبة لتزيـد في قدسيتها، ويؤكد تنفيذها كما كتب منشورا عاما بهذا المعنى للآفـاق، وبـذلك ضـمن العرب الخلافة للعربي النسب والعجم بزعامة البرامكة ضمنوا الشرـق لرجـل أخوالـه عجم.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أخـذ العـرب يـوغرون صـدر الرشـيد ضـد البرامكة ويحذرونه من استبدادهم بالأمر وخلعهم له وصار الرشيد يتلقى رقاعا غفلا من التوقيع تصور خطـورة الحالـة، أدت كـثرة الدسـائس إلى افـزاع الرشـيد وجعلتـه يشعر بأنه صار مغلوبا على أمره وأن البرامكة شاركوه في سلطانه بشكل أخل بتوازن الدولة وسلامتها مما اضطره إلى التخلص منهم، والعباسـيون عمومـا كـانوا حساسـين من هذه الناحية السياسية ولهذا قتلوا كل من شكوا في اخلاصه.

عاقب الرشيد البرامكة جميعا وزج بهـم في السـجن وصـادر أمـوالهم ومنـع الشعراء من رثائهم وتوفي يحيـى والفضـل في السـجن قبـل وفـاة الرشـيد، أمـا سـائر البرامكة فقد عفا عنهم الأمين بعد ذلك وهكذا تنتهي نكبة البرامكة بانتصار العـرب هذه المرة، وقد تولى الوزارة بعدهم الفضل بن الربيع نصير الحزب العربي كـما تـولى

الرشيد أمور الحكم بنفسه حيث كان يتنقـل في أرجـاء دولتـه ويقـود الجيـوش ضـد الثائرين وضد البيزنطيين.

ويقول العلامة مصطفى جواد في موقفه من البرامكة(لعـل أغـرب مـا وهـم فيه المؤرخون فعمى عليهم سبب تدمير هـارون الرشـيد للبرامكـة أنهـم عـدوا بنـي برمك دعاة للعلـويين، والمشـكلة التاريخيـة إذا اسـتبهم جانـب منهـا تشـعبت فيهـا الظنون واختلفت الآراء واضطربت الأحكام، ولو علم المؤرخـون أن البرامكـة تقربـوا إلى الرشيد بالسعي على العلويين والسعي بهـم وتبغيضـهم لوجـدوا إلى سـبب تلـك الفتكة الهامشية سبيلا، وعلى الجلية دليلا، وعلمـوا أنهـم إنمـا حـق علـيهم العـذاب ودمرهم الله تدميرا، بل وان السبب الحقيقي وراء قضاء هارون الرشيد علـيهم، هـو تدبيرهم لقتل موسى بن جعفر (رض)، لم يكن الرشيد ملحدا حتى لا ينـدم ولا بليـدا حتى لا نتبه ولا شقيا حتى لا يتوب ولا مقصرا حتـى لا يتـدارك مـن شـفيعهم إليـه، وقد ولغوا في دماء بني علي وطلبوا الزلفى بتعذيبهم وأعلوا مراتبهم بخفض العصبية الهاشـمية واجتثـاث الشـجرة النبويـة، ولقـد جـرؤوا بإلحـادهم وسـوء سـيرتهم أن جعفرهم حز رأس حبيبه العلـوي عبـد الله الشـهيد بـن الأفطـس، في يـوم النـوروز وأهداه إلى الرشيد في طبق الهدايا، فلما رفعت المكبة من فوق الطبـق ورأى الرشـيد رأس بن عمه استعظم ذلك، فقال له جعفر: مـا علمـت أبلـغ في سرورك مـن حمـل راس عدوك وعدو آباءك إليك، وكان الرشيد قد حبسه عند جعفر وأمـره بـأن يوسـع عليه، وقال ذات يوم: اللهم أكفنيه على يد ولي من أوليائي وأوليائك، فلـم يجـد هـذا الشقي الكفايـة إلا بقتلـه صـبرا لا سـيف يـذود بـه عـن نفسـه ولا بنـو عـلي حولـه يحوطونه ويكلآونه ولا شفيع يرد عنه بؤم الزنادقة، وهـو الـذي شـهد وقيعـة "فـخ" متقلدا سيفين يذود بهما عن سـيده، فلـما أسر أخـذه الرشـيد وحبسـه عنـد جعفـر، فضاق صدره بالحبس، وكتب إلى الرشيد رقعة يشتمه فيها شتما قبيحـا فلـم يلتفـت الرشيد إلى ذلك، لأنه عالم بالعزة العلوية والاستبسال الهاشمي، ولم يأمر إلا بالتوسـع عليه والترفيه عنه فكان من أمره مع جعفر البرمكي ما كان).

4. الامبراطورية البيزنطية

الأربعــة ممالــك الكــبرى في عــام 800 بعــد المــيلاد: الدولــة العباســية وعاصمتهابغداد (أخضر) والدولة الأموية (أخضر- فاتح) في الأنـدلس إمـارة قرطبـة، والكارولنجية (بنفسجي)، والدولة البيزنطية (بني)،

كانت علاقة الرشيد بالإمبراطورية البيزنطية علاقة حرب وعـداء كـما كانـت على عهد أبيه وجده، واصل الرشيد استكمال تحصينات ثغـوره المتاخمـه للبيـزنطيين وأقام منطقة جديدة بين شمال الجزيـرة وشـمال الشـام أطلـق عليهـا اسـم منطقـة العواصم وجعل قاعدتها مدينة منبج في شمال شرق حلب ورتب فيهـا جيشـا دائمـا، كذلك اهتم بمنطقة الثغور الشامية التـي عـلى الحـدود بـين آسـيا الصـغرى وسـوريا فعمر فيها طرسوسوأضنة وعين زربه (ناورزا) كـما أقـام فيهـا حصـونا جديـدة مثـل حصن الهارونية بين مرعش وعين زربه، اهتم الرشيد بمناطق الثغور وولى عليها ابنـه الثالث أبا القاسم الملقب بالمؤتمن، كذلك اهتم الرشيد بتقوية الجيش العباسي حتـى صار من أقوى جيوش العالم في ذلك الوقت ثم وجه الحملات المتكـررة عـلى المواقـع البيزنطية في آسيا الصغرى كانت شهرة هارون الرشيد قبل الخلافة تعود إلى حروبـه العظيمه ضد الروم، فلما ولي الخلافة استمرت الحروب بينهما، وأصبحت تقـوم كـل عام تقريباً، وأضطرت دولة الروم أمام ضربـات الرشـيد المتلاحقـة إلى طلـب الهدنـة والمصالحة، فعقدت إيرينـي ملكـة الـروم صـلحاً مـع الرشـيد، مقابـل دفـع الجزيـة السنوية له في سنة 181هـ وظلت المعاهدة سـارية حتـى نقضـها إمبراطـور الـروم نقفور الأول، الذي خلف إيريني في سنة 186هــ وكتـب إلى هـارون: "مـن نقفـور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أمـا بعـد فـإن الملكـة إيرينـي التـي كانـت قـبلي أقامتك مقام الرخ (القلعة في الشطرنج)، وأقامت نفسها مقـام البَيْـدق (الجنـدي في الشطرنج)، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليهـا، لكـن ذلـك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلـك مـن أموالهـا، وأفتـدِ نفسك بما يقع به المبادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك".

فلما قرأ هارون هذه الرسالة غضب غضباً شديداً ورد عليها برسـالة مماثلـة قال فيها: "من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، والجواب ما تـراه دون مـا تسمعه، والسلام"، وخرج هارون الرشيد على رأس جيش كبير بلغ تعداده 135 ألفـا

سوى الاتباع والمطوعة وتوغل في آسيا الصغرى حتى وصل هرقلة عاصمة كورة بيثينيا فحاصرها واستولى عليها عنوة سنة 806م وأعقب ذلك توجيه حملات متلاحقة بقيادة كبار قواده أمثال داود بن عيسى وشراحيل بن معن بن زائدة ويزيد بن مخلد، هزمت جيوش البيزنطيين ودمرت حصونهم واضطر الامبراطور نقفور أن يتناسى خطابه ويعترف بهزيمته ويتعهد بدفع الجزية من جديد وفي ذلك يقول الطبري:

"وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطانته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استبراق (هوستوراكيوس) بدينارين كما تعهد بأن لا يعيد ترميم الحصون التي دمرها الرشيد"، ويبدوا أن الضربات التي وجهها الرشيد إلى الدولة البيزنطية كانت عنيفة وحاسمة بدليل أنها لم تحاول الاستفادة بعد ذلك من الفتنة التي دبت بين الأمين والمأمون في استعادة ما فقدته في عهد الرشيد.

5. الامبراطورية الرومانية المقدسة

اشتهرت شخصية الرشيد في أوروبا نتيجة لعلاقته الودية مع امبراطور الدولة الرومانية المقدسة شارلمان (768- 814م)، بودلت بينهما السفارات، والبعثات الدبلوماسية المتنوعة كما وردت في الحوليات الملكية الكارولنجية " Carolingian Royal Annales" في المدة التي بين 797- 806م، أرسل شارلمان ثلاث سفارات مختلفة إلى البلاط العباسي في بغداد وفي المقابل أرسل الرشيد بعثتان تجاريتان على الأقل إلى أوروبا، ففي عام 801م وصلت أولى البعثات العباسية إلى بيزا بشمال ايطاليا[1] تبعتها سفارة ثانية إلى آخنبألمانيا ولا شك أن المصالح السياسية كانت وراء هذا التفاهم الودي بين الملكين، فقد أراد شارلمان من وراء هذا الحلف أن يضعف من نفوذ امبراطور الدولة البيزنطية، واستغل الرشيد هذا الحلف ضد أعدائه البيزنطيين والأمويين في الأندلس على السواء، كانت تلك البعثات المتبادلة بين الملكين مرفقة عادة بالهدايا الوافرة وقد اختار شارلمان المنتجات القيمة من أقمشة ملكية فاخرة وأرسلها مع سفرائه إلى الرشيد، أراد شارلمان توسيع صادرات الأقمشة منفرنسا إلى أراضي الدولة العباسية وبالتالي تعزيز التجارة في مملكته، ورد عليها الرشيد بأن أرسل إلى شارلمان عطورا وأقمشة وفيلا ولوحة شطرنج وساعة مائية، كما عرض عليه

الخليفة أن يكون حاميا للأماكن المسيحية المقدسة في بيت المقدس ويذكر أن الساعة المائية التي أرسلها الرشيد إلى شـارلمان مصـنوعة مـن النحـاس الأصـفر بارتفـاع نحـو أربعة أمتار وتتحرك بواسطة قوة مائية وعند تمام كل ساعة يسـقط منهـا عـدد مـن الكرات المعدنية يتبـع بعضـها الـبعض الاخـر بحسـب عـدد السـاعات فـوق قاعـدة نحاسية فتحدث رنينا جميلا في أنحـاء القصر- الامبرطـوري كانـت السـاعة مصـممة بحيث يفتح باب من الأبواب الاثني عشر- المؤديـة إلى داخـل السـاعة ويخـرج منـه فارس يدور حول الساعة ثم يعود إلى المكان الذي خرج منه وعنـدما تحـين السـاعة الثانية عشر يخرج اثنا عشر فارسا مرة واحدة يدورون دورة كاملة ثم يعـودون مـن حيث أتوا وتغلق الأبواب خلفهم، أثـارت السـاعة دهشـة الملـك وحاشـيته، واعتقـد الرهبان أن في داخل الساعة شيطان يسكنها ويحركها، وجاؤوا إلى الساعة أثناء الليل، واحضروا معهم فؤوسا وحطموها إلا أنهم لم يجدوا بداخلها شيئا سـوى آلاتهـا، وقـد حزن الملك شارلمان حزنا بالغا واستدعى حشدا من العلماء والصـناع المهـرة لمحاولـة إصلاح الساعة واعادة تشغيلها، لكن المحاولة فشلت، فعرض عليه بعض مستشـاريه أن يخاطب الخليفة هارون الرشيد ليبعث فريقا عربيا لإصلاحها فقال شارلمان "انني أشعر بخجل شديد أن يعرف ملك بغداد أننا ارتكبنا عارا باسم فرنسا كلها".

غـير أن السـفارات المتبادلـة بـين الرشـيد وشـارلمان قـد ذكـرت في المصـادر الأوروبية فقط، ويرجع بعض المؤرخين الأوروبيين أمثال بارتولد وبروكلمان أن بعـض التجار العراقيين الذين ذهبوا إلى مدينة اكس لاشابيل (آخن) قاعدة شارلمان انتحلـوا صفة السفراء الناطقين باسم الرشيد لـدى شـارلمان مـن غـير تفـويض، ولهـذا لم يـرد ذكرهم في المراجع العربية، وكان اعتماد الجانبين في أداء هذه المهام الدبلوماسية على العلماء والفقهاء في أغلب الأحيان

6. المغرب والأندلس

أما عن سياسة الرشيد نحـو المغـرب والأنـدلس فكانـت تقـوم عـلى سياسـة الاعتراف بالأمر الواقع في تلك البلاد وعدم الخوض في مغامرات غير مأمونة العواقـب كما فعل أبوه المهدي وجده المنصور ولهذا اكتفى بمحالفـة جـارهم القـوي شـارلمان، كما أقام في أفريقية دولة مستقلة في نطـاق التبعيـة للخلافـة العباسـية وهـي دولـة الأغالبة التي كانت بمثابة ثغر عباسي أو دولـة حـاجزة لحمايـة أطرافـه الغربيـة مـن

أخطار الخوارج، والأدارسة، والأمويين فضلا عـن البيـزنطيين، ولم يلبـث إبـراهيم بـن الأغلب مؤسس هذه الدولة أن شرع في بناء مدينـة جديـدة عـلى بعـد ثلاثـة أميـال جنوبي القيروان سماها العباسية وجعلها قاعدة لامارته سنة 800م - 183هـ

أسرته

تزوج الرشيد زبيدة بنت جعفر وهي ابنة عمه ورغم أن الرشـيد قـد تـزوج أكثر من امرأة إلا أن زبيدة كانت المتربعة على عرش قلبـه، ومـن زوجاتـه أيضـا أمـة العزيز وأم محمد ابنة صالح المسكين بنت عمه سليمان بن أبي جعفـر وتـزوج أيضـا ابنة عبد الله التي تعود بالنسب إلى عثمان بن عفان وتلقـب الجرشـية لأنهـا ولـدت بجرش باليمن، ومن زوجاته أيضـاً عزيـزة بنـت صـالح وهـي بنـت خالـه أخـو أمـه الخيزران، هذا بخلاف الجواري ملك اليمين، حيث كان وجود الجواري والحظايا أمـراً معروفاً في ذلك الوقت وخاصة عند الملوك والأمراء وكبار القوم.

ولد لهارون الرشيد عشرة أبناء واثنتا عشر بنتا أما الأبناء فهم: محمد الأمـين من زوجته زبيدة، وعبد الله المأمون من جارية فارسية اسمها مراجـل، والقاسـم بـن الرشيد وأمه قصف، وأبو إسحاق محمد المعتصم بالله ووالدتـه تركيـة اسـمها ماردة خاتون، وعلي من زوجته أمة العزيز، وصـالح مـن جاريـة اسـمها رئـم ومحمـد أبـو يعقوب ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو العباس ومحمد أبو علي وهـؤلاء مـن أمهـات أولاد.

أما بنات الرشيد فهن: سكينة أخت القاسم، وأم حبيبة أخـت المعتصـم مـن مـاردة خـاتون، وأروى وأم الحســن وحمدونـة وفاطمـة وأمهـا عفـص، وأم سـلمة وخديجة وأم القاسم رملة وأم علي وأم الغالية وريطة وكلهن من أمهات أولاد.

اهتمامه بالعلماء والأدباء

كان الرشيد مثقفا ثقافة عربية واسعة وكان يملك أدباً رفيعاً وتـذوقاً للشـعر واللغة لذلك قيل: كـان فهـم الرشـيد فهـم العلـماء، وكانـت مجالسـه تمـلأ الشـعراء والعلماء والفقهاء والأطباء والموسيقيين وكان كثيراً ما يناقش العلماء والأدباء، كـذلك كان ينقد الشعر والشعراء، كان يقول: "البلاغـة التباعـد عـن الإطالـة، والتقـرب مـن

معنى البغية، والدلالة بالقليل على المعنى"، قال عنه الذهبي: "وكان يحب العلـماء، ويعظم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويـبكي عـلى نفسـه ولهـوه وذنوبـه لاسيما اذا وعظ" ويقول الخطيب البغدادي: "وكان يحب الفقه والفقهاء، ويميـل إلى العلماء"[35]، ومن أشهر الأدباء الذين عاصروا الرشيد وحضروا مجالسه الشاعر الكبـير أبو العتاهية وأبو سعيد الأصمعي، ومن علماء الدين الذين عاشـوا في عصره الامـام الشافعي صاحب المذهب الشافعي والامام مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي في الفقه الذي التقى بالرشيد حين قصد الخليفة منزله بالمدينة المنورة وقرأ عليه الامـام كتاب الموطأ وعلى الصعيد العلمي دعم الرشيد عالم الكيمياء المشهور جابر بن حيان وأسس وتلامذته منهج التجربة في العلوم.

المراجع

1. عصام مصطفى، **الخلافة العباسية في ضوء رسائل أمين الدولة**، رسالة كتوراة، الجامعة الأردنية، 1997م، ص100.
2. جُرخ: آلة عليها قوس ثقيل يرمي السهام أو النفط، انظر: ابن العديم، **زبدة الحلب**، ج2، ص 265، هامش (1)، وترد عند سبط ابن الجوزي باسم جرجي أي بحرف جيم بعد الراء ،وهي مدينة تعرف باسم شنت جرجي بالقرب من الطريق الموصل للقسطنطينية، ولعل سبط ابن الجوزي أو المحقق أورد رسم الكلمة بقلب حرف الخاء إلى جيم لتصبح جرجي وبخاصة أن الكلمة لم تذكر في الرواية سبط ابن الجوزي بين أسماء الأقوام المرتزقة في الجيش الروماني وانما أوردها بين فئات الأسلحة التي استخدمت من قبل الجيش الروماني، وهذا ما يؤكد أن جرخي هي آلة قتال لا جنس بشري، انظر: سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان** (1056-1086)، ص148.
3. ابن العبري، **تاريخ مختصر الدولة**، ص322، رنسيمان، **تاريخ الحروب الصليبية**، ج1، ص97.
4. **تاريخ ميخائيل السرياني**، ج3، ص139.
5. ابن الأثير، **الكامل**، ج10، ص66، ابن كثير، **البداية**، ج12، ص108.
6. الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص51، سبط ابن الجوزي، **مرآة الزمان** (1056- 1086)، ص149، ابن العديم، **بغية الطلب**، ج4، ص198، ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص322- 323، النويري، **نهاية الأرب**، ج26، ص314، ابن الأثير، **الكامل**، ج10، ص66، الأصفهاني، **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص44، ابن الجوزي، **المنتظم**، ج8، ص262، عصام، **الخلافة العباسية في ضوء رسائل أمين الدولة**، ص186، الدواداري، **كنز الدرر**، ج6، ص395، ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص110.

المحتويات

الفصل الثالث

تأثير الدولة السلجوقية على تحول الامبراطوية البيزنطية

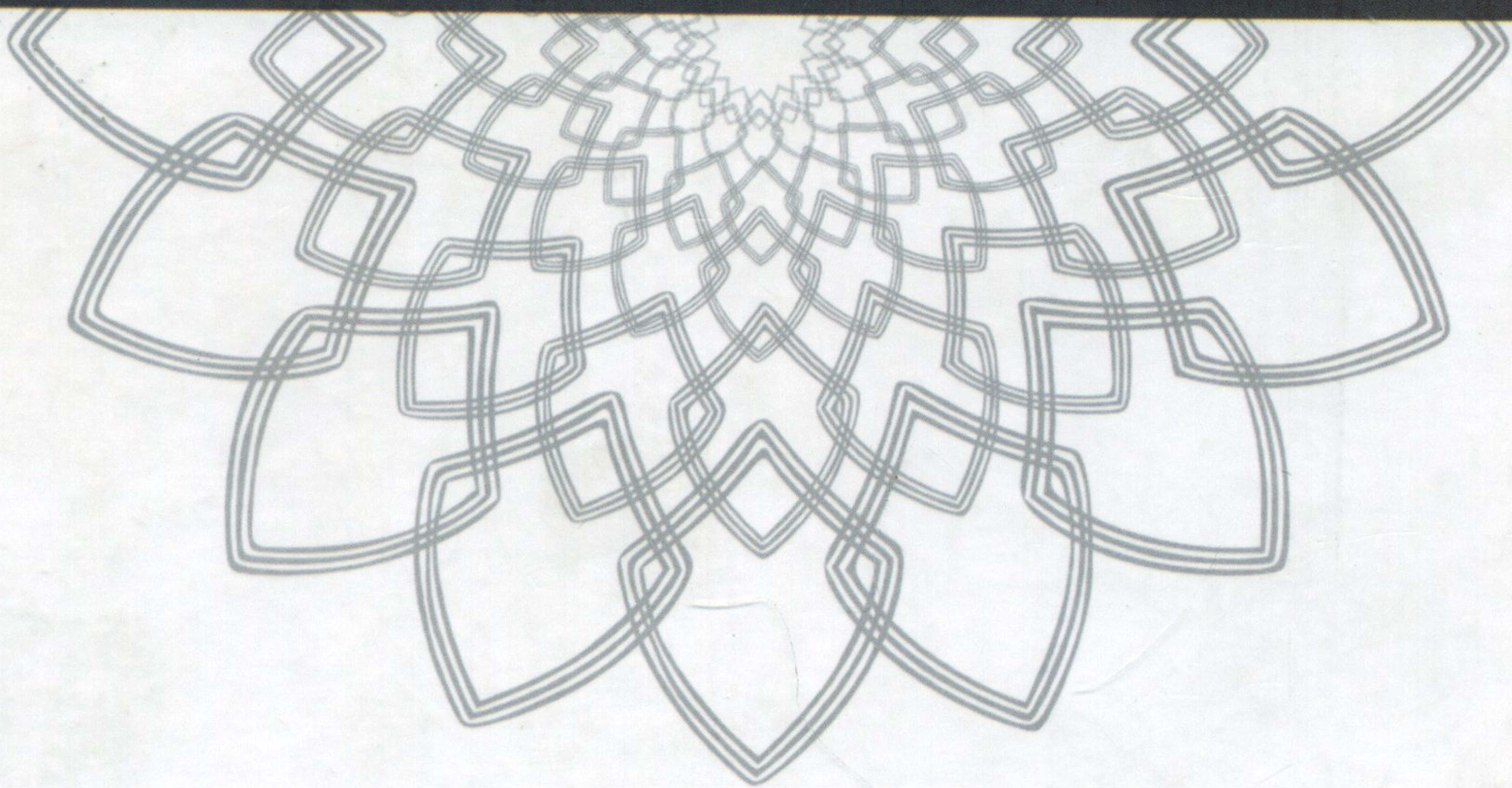
الفصل الرابع

تاريخ الدولة البيزنطية 324-1453م

الفصل الخامس

تاريخ العصور الوسطى الأوروبية

الموضـوع	الصفحة



الدولة البيزنطية

الدكتور أسامة أبو طالب







دار البداية ناشرون وموزعون
عمان - وسط البلد - تلفاكس : 4640679 6 962+
ص.ب 184248 عمان 11118 الأردن
Info.daralbedayah@yahoo.com
خبراء الكتاب الأكاديمي

توزيع
شابسوغ
الأردن
info.d
الجامعي